

لطيفي أكدوغان

سارة

المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية

ريع الدار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـبرقياً طلاسدار
هاتف : ٦٦١٨٩٦١ـ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠


سارة
المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية

الطبعة الأولى ١٩٩٥

لطفي أكدوغان



ترجمة

دار طلاس
للدراسات والترجمة والنشر

تقديم ومراجعة الدكتور : محمد محفل

عنوان الكتاب باللغة التركية

LÜTFÜ AKDOĞAN

İMPARATORLUĞU
YIKAN KADIN

SARA



الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

عندما عُهِد إليّ في مراجعة وتحقيق هذا الكتاب ، المترجم عن اللغة التركية ، استرعى انتباهي العنوان : « سارة ، المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية » ، فنحن ، كطلاب تاريخ ، لا تستهوينا عناوين كهذه ... فمن هو العملاق الأوحد القادر على بعثرة امبراطورية مترامية الأطراف ، كالدولة العثمانية ؟!... ولكن مؤلف هذا الكتاب ليس مؤرخاً ـ بالمعنى المتفق عليه ـ وهو الذي يقول في خاتمة كتابه : « ... ولا تنسوا ، هذا ليس مجرد سرد تاريخي وليس سرداً للأحداث ، وليس أيضاً رواية ... » وكاتبنا صحفي ، واسمه (لطفي أكدوغان) ، وُلِدَ في أنطاكية عام ١٩٣٠ ، قبل سلخ لواء اسكندرون عن الوطن الأم ، بحوالي عشر سنوات .

راح أكدوغان يمارس مهنة الصحافة اعتباراً من عام ١٩٥٠ ، وسرعان ما لمع نجمه لإتقانه اللغة العربية إضافةً إلى لغته الأم ، التركية ، وبذلك شكلت كتاباته نقطة وصلٍ بين أبناء بلده والعالم العربي ، وكتب أول تحقيق صحفي عن العالم العربي عام ١٩٥٣ ، ثم ذاع صيته بعد أن نجح في تغطية وقائع العدوان الثلاثي على مصر ، عام ١٩٥٦ ، ومنذ ذلك الوقت اشتهر كمراسل حربي في العالم العربي (١٩٦٧ ، ١٩٧٣) وفي آسية (الهند ، كشمير ، أفغانستان ، الخ...).

وعلاوةً على ذلك ، أقام أكدوغان علاقات ودٍ وصداقة مع عديدٍ من ملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية : الملك سعود وفيصل وأمراء الخليج وجمال عبد الناصر والقذافي الخ ... وقام أحياناً بدور الوسيط بين أطرافٍ عربية متنازعة .

إنضمّ في عام ١٩٦٥ إلى (حزب العدالة) التركي وانتُخِب لعدة مرّات نائباً في مجلس الشعب التركي وظلّ يحرّر زاويةً سياسية في صحيفة « الصباح

الجديد » التركية.

فلطفي أكدوغان ، كما نلاحظ ، كاتب بارز وذو موهبة كما أنه يثير الاهتمام لنشاطاته واهتماماته المتنوعة ، والتصنيف الذي نحن بصدده يشهد على ذلك . ! لايجب أن يظنّ القارىء أننا نشارك كاتبنا في الرأي بلا قيد ولا شرط، وكما يقولون : « أعطِ القيصر ما لقيصر ولله ما لله . » .

وتنحصر ملاحظاتنا أصلاً بحقلين أساسيين : في الشكل وفي الموضوع. فالعنوان بعينه يثير مسألة ، فكيف يمكن لفردٍ ، من رجلٍ أو امرأة (وإن كانت من أهل السحر) ، أن يدمّر الإمبراطورية العثمانية ، مهما كان متقن الحيلة أو عظيم القدرة ، فيما لو أن الوضع العام للدولة العثمانية كان سليماً ، علينا أن لاننسى « مفتاح السر وجوهره » : « تركة الرجل المريض » ، اعتباراً من القرن الثامن عشر ، و« المسألة الشرقية » ، بعد اجتياح قوات محمد علي بلاد الشام ودخوله الأناضول وانتصار ابنه ابراهيم على قوات السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٣٢) في قونية ، قبل أن تجبر الدول الأوروبية حاكم مصر على التراجع (تموز ١٨٤٠) .

وهكذا ، أصبح سلاطين (آل عثمان) أسرى الصراع والتنافس على اقتسام تركة « الرجل المريض » ، بين مختلف الدول الأوروبية وروسية القيصرية ، فضعفت قدرة الدولة وهزل سلطانها وتقلّصت رقعتها لتقتصر قبل الحرب العالمية الأولى على المشرق العربي وبعض أجزاء شبه الجزيرة العربية، أما بالنسبة للأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية ، فلنا عودة إليها لاحقاً .

لانودّ رمي الكلام على عواهنه ، ولكي لايبدو عنوان الكتاب أحجيةً ، بالنسبة للقارىء العربي العادي ، أبدينا بعض الملاحظات التاريخية ، في مقدمتنا هذه ، إضافة إلى الشروح الهامشية في متن الكتاب . قد يكون أكدوغان على حقٍ بالنسبة للقارىء التركي ، أما بالنسبة لنا ، فنعتقد أننا نجازف بقارئنا فيما لو ألقينا العنوان عليه بدون توضيح مغزاه ، وكأننا نسلّم

بمزاعم أولئك الذين أشاعوا أن الكاهن المشعوذ (راسبوتين) كان العلّة الفاعلة في زوال الإمبراطورية الروسية القيصرية .

ثم نأتي إلى الملاحظة الثانية حيث نجد أكدوغان يكرر كلمتي «موسوي» و «موسوية» مشيراً إلى «اليهودي» و «الديانة اليهودية» . وهنا أيضاً ، قد نجد عذراً للكاتب ، فكم هم أولئك الذين يظنّون أن التوراة المتداولة حالياً هي من آثار موسى . لانودّ أن نُغْرق القارىء بالدراسات التوراتية والتلمودية ، فهذا ليس قصدنا ولامجال لذلك هنا ، ومع ذلك نعتقد أنه لابدّ من توضيح بعض النقاط ، كما يلي:

١ ـ التوراة المتداولة حالياً ليست من آثار موسى ، ولقد سُطِّرَت على شكلها الحالي حوالي القرن العاشر للميلاد، أي بعد ظهور النبي موسى المفترض بألفي وثلاثمائة سنة تقريباً .

٢ ـ تضم التوراة الحالية ٣٦ سفراً ، لاتقرّبها الفرقة السامرية «الموسوية» باستثناء الأسفار الخمسة الأولى : التكوين، الخروج ، الأحبار ، العدد، تثنية الاشتراع . ويُختم السفر الأخير بموت موسى (٣٤ ، ٥ ـ ٦) : «فمات هناك موسى عبدُ الرّب في أرض موآب بأمر الرب، ودفنه في الوادي في أرض موآب تجاه بيت فَغُور ولم يعرف أحدٌ قبره إلى يومنا هذا .». وبذلك يمكننا القول إن السامريين ـ المقيمين حالياً بالقرب من نابلس ـ هم أقرب إلى واقع الأمر من اليهود الآخرين ، عندما يقولون : « كيف تنسبون أسفاراً لموسى مع أنها صُنِّفت بعد موته ؟ » . ونكرّر قائلين ان مختلف أسفار التوراة الحالية لاعلاقة لها قطعاً بموسى وعصره . ومن الجدير بالملاحظة ما نجده في تراثنا العربي ـ الإسلامي حول هذا الموضوع ، ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر (ابن حزم الاندلسي ٩٩٤ ـ ١٠٦٤)، فبالإضافة إلى كتابيه الشهيرين «طوق الحمامة» و « الفصل في الملل والأهواء والنحل » له رسالة «الرّد على ابن النغريلة اليهودي[١]» ، يفنّد فيها ابن حزم مزاعم الأحبار

---

(١) حقّق هذه الرسالة الدكتور احسان عباس ، نشر دار العروبة ، القاهرة ١٩٦٠ .

اليهود بالنسبة للأسفار وعصر تصنيفها .

أما رسالة «بذل المجهود في إفحام اليهود[1]» . فقد كتبها أحد أحبار اليهود بعد أن اعتنق الإسلام[2] ، ويقول فيها : « ... لأن موسى صان التوراة عن بني اسرائيل ، ولم يبثها فيهم ، وإنما سلّمها إلى عشيرته أولاد لاوي ... » وهؤلاء الائمة الهارونيون الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها قتلهم بخت نصر (هو الملك الكلداني نبوخذ نصر ٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) على دم واحد ، يوم فتح بيت المقدس . « ولم يكن حفظ التوراة فرضاً ولا سنةً بل كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة » وفي الرد من قال ، كيف نشأت التوراة المعروفة ، إذن ؟ يجيب السموأل بن عباس بقوله : «فلما رأى عزرا أن القوم قد أحرق هيكلهم ، وزالت دولتهم ، وتفرّق شملهم ورُفع كتابهم ، جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفّق منه هذه التوراة التي في أيديهم . ولذلك بالغوا في تعظيم عزرا هذا غاية المبالغة . وزعموا أن النور إلى الآن يظهر على قبره عند البطائح بالعراق ، لأنه عمل لهم كتاباً يحفظ لهم دينهم .

فهذه التوراة التي في أيديهم على الحقيقة كتاب عزرا[3]» .

نستنتج من جميع ما ذكرناه ، أن تكرار كلمتي «موسوي» و«موسوية» إشارةً إلى «يهودي» و «ديانة يهودية» ـ كما يتكرّر في

---

(١) قدّم الرسالة ونشرها : محمد أحمد الشامي ، مطبعة الفجّالة الجديدة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) وهو (صموئيل بن يهوذا بن عبّاس المغربي) وبعد اعتناقه الإسلام عُرف باسم (السموأل بن يحي بن عبّاس المغربي) . كان طبيباً واشتهر بعلم الرياضيات بالإضافة إلى تبحره في علوم الدين اليهودي والمسيحي والاسلامي .

(٣) المعروف بـ « عزرا الكاتب » ، لانعلم الكثير عن سيرته إلا ما نسجته الأساطير اللاحقة. لعب دوراً في عودة اليهود من بابل إلى فلسطين على أيام الملك الفارسي كورش حوالي (٤٦٠ ق.م) عمل على التفريق بين اليهود وغيرهم من الأمم ، قال عنه بعض المعاصرين «عزرا هو أول عنصري فاشي في التاريخ» وإليه يشير القرآن الكريم في (سورة التوبة، ٣٠) باستنكار : « وقالت اليهود عزير ابن الله... قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون » .

الكتاب ـ أمر غير ملائم ، بل ويتناقض كلياً مع نتائج مختلف الدراسات التوراتية المقارنة ، التي أقرّها الباحثون ، طبعاً باستثناء الصهاينة منهم والمتصهينين . ولذلك ، كم يبدو مضحكاً قول مناحيم بيغن لرئيس الولايات المتحدة جيمي كارتر ، وهو يهديه التوراة ، بعد التوقيع مع السادات على معاهدة (كامب دفيد) عام ١٩٧٩ : «سيدي الرئيس ، إن كنت مؤمناً حقاً فيجب أن تسلّم بكل حرف جاء في هذا الكتاب .»

نستميح القارىء عذراً لاسهابنا في التعليق على هذه النقطة أو تلك ... فعندما شرعنا في إنشاء هذه المقدمة ، كان علينا تفضيل إحدى الطريقتين : فإما أن نغني المقدمة بالملاحظات التاريخية ، لتتحول ، إذا صحّ القول ، إلى نورٍ كشّاف يوضّح بعض الجوانب والنقاط الغريبة على القارىء العادي (من مواقع وأسماء ومؤسسات الخ ...) ، أو أن نجعل في نهاية الكتاب ملاحق ملائمة ، يقلّبها القارىء ، إذا لزم الحال... وفي نهاية المطاف اخترنا النهج الأول ، مع اضافة شروحٍ هامشية في المتن ، والحالة هذه نتحمّل وحدنا مسؤولية الهوامش المرقّمة في متن الكتاب .

ثم نأتي إلى «جمعية الاتحاد والترقي» المعروفة أيضاً باسم «تركية الفتاة» التي يتردد ذكرها في الكتاب مع أبرز زعمائها : أنور، طلعت وجمال ، الذين ألقوا بلادهم في ورطة الحرب العالمية الأولى وأوقعوها في ما لا خلاص لها منه . وعندما يبدي أكدوغان رأيه في هؤلاء الرجال وفي أعمالهم ، نراه متردداً في الحكم عليهم ويحاول التماس الأعذار لهم ، معللاً سلوكهم تارةً بالجهل وعدم اليقظة أو بحسن النيّة والعفوية ، علماً أننا أمام جماعة لعبت دوراً خطيراً في هدم أسس الدولة العثمانية . لاندري! قد يكون لأكدوغان أسبابه المتعلقة بالأوضاع العامة في بلاده ومن المحتمل أنه تحاشى الاصطدام مع بعض الأوساط المتنفذة والمتحدّرة من زعماء الاتحاد والترقي .

في الواقع ، ماهي حقيقة «جمعية الاتحاد والترقي» ؟ ! وماهي أصولها وأهدافها ؟ ! وكيف ساست البلاد والعباد بعد أن أزاحت السلطان عبد الحميد

الثاني عن العرش عام ١٩٠٩ ، لصالح محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ ـ ١٩١٨) ؟ !

سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة باختصار ، موضّحين للقارئ نقاط استدلال أساسية ، انطلاقاً من الأقدم إلى الأحدث :

١ ـ بعد سقوط الأندلس وخروج العرب منها عام ١٤٩٢ ، هاجر يهود اسبانية ، فراراً من اضطهاد محاكم التفتيش، وحلوا الشمال الافريقي ، لاسيما المغرب الأقصى ، مما يعلّل وجود جالية يهودية كبيرة فيه حتى يومنا هذا ، كما توجّه البعض الآخر شرقاً للاستقرار في الدولة العثمانية ، فنقل السلاطين القسم الأكبر منهم إلى مرفأ سلانيك المقدوني ، شمالي غرب بلاد اليونان ، الخاضع للعثمانيين.

٢ ـ في عصر السلطان العثماني (محمد الرابع ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧) ظهر في مدينة أزمير التركية شاب يهودي مغامر ، زعم أنه المسيح المنتظر ، وهو (شبتاي زيوي)[١] ـ الذي أطلق عليه مريدوه : (شبتاي بن لاوي) وكان أبوه من التامودديين[٢] المتزمتين ، فعاث فساداً في الدولة .

وبعد أن أمرت السلطات بالقاء القبض على المشعوذ الدّجال وراحت

---

(١) حول حركة شبتاي زيوي انظر كتاب الكاتب التامودي الانكليزي :

Cecil Ruth , A Short History of the Jewish People , 1600 -- 1935, Macmillan , London 1936 ,

سيسيل روث ، موجز تاريخ الشعب اليهودي من عام ١٦٠٠ لعام ١٩٣٥ . وحتى عام ١٩٥٥ ، كانت معلوماتنا حول هذا الموضوع محصورة بهذا المرجع ، إلى أن ظهرت الترجمة العربية عن التركية لكتاب « الخطر المحيط بالإسلام أو الصهيونية وبروتوكولاتها » للجنرال التركي المتقاعد (جواد رفعت اتلفان)، ضابط الاستخبارات العثماني في جبهة فلسطين في الحرب العالمية الأولى .

(٢) تعني كلمة تلمود « التعليم » وخلّف لنا أحبار اليهود تلمودين : البابلي والأورشليمي . ويتألف كل منها من قسمين : « المِشْنا » و« الجِمارا » والمشنا « المثال الثاني » هي أحكام متعلقة بالشريعة والأحوال المدنية وتعتمد على التقاليد المتوارثة ، أما « الجمارا » فهي اجتهادات الربانيين عبر العصور . ويعطي المتزمتون اليهود دوراً كبيراً للتلمود مهملين بذلك التوراة .

تحاكمه ، أعلن اسلامه وتبعه مريدوه في ذلك ، علماً أنه استمرّ في نهجه القديم وراح يحرّض أتباعه على التوغل في المجتمع العثماني الإسلامي ، لتوهين عراه ، وفك روابطه وغزوه باليهودية المتسترّة العامة والجبة ، وانتبه إلى ذلك اليقظون من الأتراك فأطلقوا على أتباع شبتاي زيوي كلمة (دونمة) وهي كلمة تركية تعني (كاذباً في ما يزعم اعتقاده) . وراح الدونمة يعيشون بوجهين: يصلّون ويصومون ويحجون كالمسلمين ويقرأون التوراة والتلمود ويقيمون الطقوس اليهودية ، وأسماؤهم في الخفاء عزرا وحاييم واستير ودبورة، أما في المجتمع والوظيفة فأحمد ومحمد وحسين وخديجة وعائشة ...

٣ ـ يرى البعض أن أغلبية أعضاء «حزب الاتحاد والترقي» تعود بأصول أفرادها إلى الدونمة . ولكن كيف يمكننا أن نفرز الأتراك الاتحاديين «الدونمة» عن غيرهم ؟! وهنا نتذكر القول المأثور «تعرفهم من ثمارهم» و «إن غاب عنك أصله دَلّك عليه فعله» .فـي مجال السياسية الخارجية واعتباراً من عام ١٩٠٨ ، حيث استلم الاتحاديون مقاليد الأمور ، بعد الانقلاب على عبد الحميد الثاني قبل خلعه نهائياً عام ١٩٠٩ ـ وحتى عام ١٩١٤، اندلعت الحرب العالمية الأولى ـ فقدت الدولة العثمانية البوسنة والهرسك وطرابلس الغرب (ليبية) ، قبل توريطها في الحرب البلقانية فالحرب العالمية الأولى . كما أن الكلمة العليا في شؤون الدولة أصبحت لألمانيا وخبرائها ومستشاريها .

أما في مجال السياسة الداخلية فقد تميّز حكم الاتحاديين بما يلي :

١ ـ ازدياد نفوذ الدونمة الخفي والصهيوني العلني إلى درجة أن اليهود حصلوا في وزارة الانقلاب سنة ١٩١٣ على ثلاث حقائب وزارية ، اضافة إلى حقيبة جاويد «الدونمة» الذي أصبح وزيراً للمالية ، وهذه الوزارات هي :

أ ـ وزارة النافعة (الأشغال العامة) التي كانت من حصة (بساريا أفندي)، رئيس تحرير جريدة «جُون تُرك الشباب الأتراك»، التي كانت تصدر في باريس تحت رعاية (مجلس الشرق الماسوني الفرنسي) ، قبل انتقال مجلس ادارتها إلى استنبول ، بعد عام ١٩٠٩ . وبساريا أفندي يهودي روماني

(الافلاق والبغدان)[1] ظلّ ـ للمضي بمهامه الصهيونية ـ من رعايا الدولة العثمانية ، على الرغم من انسلاخ بلاده عن جسم الدولة العثمانية .

ب ـ واستلم وزارة التجارة والزراعة (نسيم مازلياح) ، نائب أزمير، في البرلمان العثماني سابقاً ، وهو من الصهاينة المرموقين .

ج ـ وكانت وزارة البوستة والتلغراف (البريد والبرق) من حصة (أوسقان أفندي) ، من الدونمة ، فمن موظف متواضع أصبح بقدرة قادر وزيراً .

وهكذا ، فمن أصل ثلاث عشرة حقيبة وزارية نال اليهود مع الدونمة أربع حقائب ، في حين أن العرب لم ينالوا أية حقيبة ، علماً أن اليهود في الدولة العثمانية قلّة ضئيلة بينما العرب يشكلون نصف السكان العثمانيين وبلدانهم في المساحة أكبر من الأناضول ذاتها أضعافاً مضاعفة.

وكان الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) في وزارة عام ١٩١٣، (الأمير سعيد حليم باشا) من أسرة محمد علي، حكّام مصر ، وامتاز بضعف الشخصية وأمره طرداً وعكساً بيد العصبة التركية الطورانية ، فريسة الإمبريالية الألمانية والصهيونية العالمية .

٢ ـ بعد خلع عبد الحميد ، تفاءل رعايا الدولة العثمانية بعهدٍ من الحرية والمساواة ، ولكن سرعان ما خاب أملهم عندما راح الاتحاديون يمارسون سياستهم المشؤومة (البطش ، والتتريك) ، فراح الناس يحنّون للماضي وقال أحد شعرائهم :

كان عبد الحميد في الأمس فرداً
فغدا اليوم ألف عبد الحميـــد

---

(١) كما ذكرت في الوثائق العثمانية وهي من الولايات الرومانية واسم رومانيا القديم (داقية) حكمها العثمانيون ابتداء من القرن الخامس عشر بواسطة ولاة يونانيين من أتباع الفنار (وهو حي في استنبول يقيم فيه البطريرك المسكوني الارثوذكسي) ، ثم استقلت هذه الولايات وشكلت مع مولدافيا دولة رومانيا الحديثة اعتباراً من عام ١٨٥٦ م بمعاهدة باريس .

وهنا ، لابدّ لنا من طرح السؤال التالي : ما هي حقيقة سياسة عبد الحميد الثاني الداخلية والخارجية ؟! وبخاصة ما له علاقة بفلسطين ؟!

من المعروف أن أعداء عبد الحميد قد ندّدوا بسياسته وأطلقوا عليه ألقاب : «الطاغية» «السلطان الأحمر» «المستبد» الخ ...

نحن لسنا في مجال الدفاع عن عبد الحميد والنيل من (جماعة الاتحاد والترقي) ـ وقد أطلق عليها بعض العرب بعد انفضاح أمرها ـ (جمعية الإلحاد والتدنّي) ... نحن طلاب تاريخ ونحاول فقط وضع النقاط على الحروف. ولذلك ـ كما سيلاحظ القارئ الكريم ـ قد نتّفق مع الكاتب أكدوغان على بعض ما أورده في كتابه ونختلف معه في أمورٍ أخرى .

من المسلم به ، إن الزعيم الصهيوني هرتسل قد أجرى ثلاث مقابلات مباشرة مع السلطان عبد الحميد إضافة لعلاقات غير مباشرة بواسطة عملائه وعلى رأسهم (نفلنسكي) ، كل ذلك لأخذ وعد من السلطان يسمح لليهود بالاستيطان في فلسطين، ولكن عبد الحميد رفض طلبهم من أول وهلة ففي ردّه على العميل الصهيوني نفلنسكي ، قال السلطان : « إذا كان هرتسل صديقك فانصحه بأن لايسير أبداً في هذا الموضوع ، إني لاأستطيع أن أبيع ولو قدماً واحداً من أراضي الإمبراطورية، لأنها ليست ملكي ، بل ملك شعبي ، دع اليهود يحتفظون ببلايينهم ، فإذا ما جرى بعدي تقسيم الإمبراطورية ، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل ، لكن ما يجري تقسيمه آنذاك إنما هو جثتنا ، لأننا لن نسمح بتشريح جسدنا ونحن أحياء لأي غرض كان ». (يوميات هرتسل ، المجلد الأول ، صفحة ٣٧٨) فراح هرتسل يراوغ، فكتب رسالة إلى الصحفي الانكليزي الصهيوني (سيدني هوتيان) ليسلمها إلى عبد الحميد بواسطة (أحمد مدحت أفندي) ، أحد المقربين من السلطان ، وجاء فيها :

بادئ ذي بدء ، يجب أن لايؤخذ كتابي « دولة اليهود »[1] على أنه

---

(١) أصدر هرتسل كتاب (دولة اليهود) عام ١٨٩٦ ، أي قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل (سويسرة) بعامٍ واحد فقط .

التحديد الرسمي للمشروع . أنا أوّل من يعترف بأن فيه الكثير من النظريات... أما الآن فإننا نراعي ظروف الواقع ، ونرغب في أن نحسن التصرف سياسياً ... وإذا منحنا جلالة السلطان الشروط الضرورية لإسكان شعبنا في فلسطين ، فإننا نوفّر للاقتصاد التركي التنظيم والازدهار بالتدريج ، وحالما يقبل الطرفان بهذا المبدأ ، فإنهما ينصرفان إلى النظر في تفاصيله . ومن السهل أن نرى أن الراغبين في إضعاف الإمبراطورية العثمانية وتفتيتها هم أعداء خطتنا ، وأعداؤنا أيضاً هم الذين يريدون امتصاص دماء تركية بقروضهم الشرهة : ذلك أن الحكومة العثمانية سوف تستعيد سيطرتها بواسطتنا على موارد البلاد وسوف تبعث البلاد من جديد . » (يوميات هرتسل ، المجلد الثاني ، صفحة ٥٠٩) .

رغم جميع هذه الاغراءات ظلّ عبد الحميد يرفض مطالب هرتسل ويرفض كذلك مقابلته لعدة سنوات ، فراح يستعمل أسلوبه المفضّل ـ الرشوة ـ يبذلها بسخاء للوسطاء والعملاء من أتراكٍ وغيرهم ، كيما تفلح محاولاته في مقابلة السلطان وإقناعه . وأخيراً حظي بعد ثلاث سنوات من الجهود المستمرة بالمقابلة لابصفته رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية وإنما بصفته يهودياً لامعاً وصحافياً متنفذاً، ورتّب المقابلة الأولى (فامبري) وهو مستشرق يهودي مجري وحذر هرتسل قائلاً : « إياك أن تحدّث السلطان عن الصهيونية ... القدس مقدَّسة لدى هؤلاء الناس مثل مكة .. » (يوميات هرتسل ، المجلد الثالث ، ص١٠٦٣) . ولكن لا هذه المقابلة ، ولا المقابلتين اللتين أجراهما من بعد (عام ١٩٠٠ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٢)، مع السلطان أسفرت عن أي نجاح ، فالسلطان عبد الحميد رفض منح حقوق غير محددة بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ، مقابل سداد المنظمة الصهيونية العالمية للدين العام للدولة العثمانية .

وقد نُقِل إلى هرتسل جواب السلطان النهائي على مشروع (تهجير اليهود إلى فلسطين) في شهر آب ١٩٠٢ وجاء فيه : « يمكن لليهود أن يُقْبَلوا ويستقرّوا في الإمبراطورية العثمانية شرط أن لايكونوا جميعاً في مكان واحد ،

بل يُفَرِّقوا في أماكن تعينها لهم الحكومة ، وشرط أن يُحَدَّد عددهم مسبقاً من الحكومة ، وسيعطون الجنسية العثمانية ، ويُطالَبون بجميع الضرائب المدنيَّة ، بما فيها الخدمة العسكرية ، كما سيكونون خاضعين لجميع قوانين البلاد ، كباقي رعايا الدولة العثمانية» (يوميات هرتسل ، المجلد الرابع ، صفحة ١٣٤٠) .

مات هرتسل عام ١٩٠٤ أي قبل أن يخلع رجال (الاتحاد والترقي) السلطان عبد الحميد الثاني بخمس سنوات .

مع استلام الاتحاديين مقاليد السلطة تغيّر الموقف الرسمي من الهجرة اليهودية ، بسبب الدور الذي لعبه الأتراك «الدونمة» في الانقلاب واستغلت الحركة الصهيونية التطور الجديد فأوفدت خيرة قادتها ومنهم (داود بن غوريون) و (اسحاق ليفي) إلى استنبول لتدعيم النشاط الصهيوني فيها . وبالفعل نجحت الصهيونية العالمية في زيادة عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين بدعم من الجهات الرسمية التركية ، مما دفع العرب إلى اتهام (جماعة تركية الفتاة) بأنهم على ارتباط مع اليهود والحركة الماسونية ، الذين يخططون لاقامة مملكة يهودية في فلسطين .

يُستنتج من أقوال أكدوغان أن جمال باشا وغيره من رجال الاتحاد والترقي كانوا رجال دولة لامعين كما أنهم كانوا يجهلون خفايا بعض الاتحاديين «الدونمة» ، وهنا نتذكر قول شاعرنا :

إن كنتَ لاتدري ، فتلك مصيبة

أو كنت تدري فالمصيبة أعظمُ

ومن العجيب بل والمذهل في الأمر أن نجد بين أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي) شخصيات يهودية صهيونية بارزة كالنائب في مجلس المبعوثان (عمانوئيل قره صو) وحاخام استنبول (حاييم نعوم) اللذين لعبا دوراً بارزاً في خلع السلطان عبد الحميد ، وراحا بعد ذلك يعلنان ماسونيتهما ، بل إن الحاخام (حاييم نعوم) كان الرئيس الفعلي لـ « مجلس الشرق الأكبر العثماني »

ومركزه استنبول ، وهو من المحافل الماسونية الكبرى في الشرق، ولعب ومازال ـ بشعارات مختلفة ـ دوراً خطيراً في تاريخ تركية المعاصر . نقول من الغريب أن لاينتبه اتحاديون ـ يبرّر أكدوغان تصرفاتهم ـ إلى أشخاص كهؤلاء إلى أن فوجيء الجميع بوجودهما في الوفد الانكليزي المفاوض مع الأتراك عام ١٩١٩ (معاهدة موندروس) ، في الوقت الذي كان لورانس يوقع بفيصل بن الحسين للتفاوض مع وايزمان في باريس ، علماً أن بعض المفكرين العرب (كرشيد رضا) [1] وغيره راحوا يفضحون مؤامرات الدونمة ، التي تجسدت بالاتحاد والترقي . فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد رشيد رضا يُعَدّد في مجلته (المنار ، عدد آب ١٩١٦) أقطاب الاتحاديين الدونمة أمثال : جاويد وعمانوئيل قره صو وحاييم نعوم وجمال باشا وخالدة أديب والشاعر فاروق نافذ الخ ... لقد أدرك رشيد رضا وأقرانه خطر مؤامرات الدونمة التي تجسّدت في (جمعية الاتحاد والترقي) ، وأخذوا يقيمون الدليل تلو الآخر على ازدواجيتهم : التركية الإسلامية / اليهودية الصهيونية .

نكرّر قائلين : نحن لا ندافع عن عبد الحميد وطريقة حكمه ولا نجازف بالصاق التهم برجال « تركية الفتاة » و «الاتحاد والترقي» يقول بعضهم : يجب أن لاننسى بأن عبد الحميد رغم رفضه لمطالب هرتسل ، قد سمح بنشوء أولى المستعمرات الصهيونية في فلسطين... هذا صحيح ، ولم تنشأ هذه المستعمرات على أراضٍ أميرية ، ولانودّ أن نفتح ملفّ الاقطاعيين السوريين واللبنانيين ، الذين باعوا هذه الأراضي للصهاينة وعملائهم . (الفولة قرب العفولة في مرج ابن عامر الخ ...) وهل علينا أن نذكر أسماء (آل سرسق ، وآل تويني، وآل بطرس الخ ...) على رأس أولئك الذين لم يكترثوا بمصالح الفلاحين وأهل الأرض الحقيقيين ، بل قدّموا مصالحهم الأنانية الجشعة على كل شيءٍ آخر . ونأتي الآن إلى قضية الشهداء ، الذين أعدمهم جمال باشا

---

(١) رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) ، صحافي لبناني ولد في قلمون طرابلس ، صاحب مجلة المنار . تلميذ الامام محمد عبده . واصل نشر تفسير القرآن الذي بدأه أستاذه .

والثورة العربية الكبرى .

فمن المعروف أن جمال باشا قد أعدّ الجيش الرابع للهجوم على قناة السويس (شباط ١٩١٥)، معتمداً على نشوب ثورة في مصر حيث مشاعر الناس عامةً نحو الانكليز غير ودية، ولكن كما نعرف، فشل الهجوم وظلّت مصر ساكنة ، فسحب جمال باشا القسم الأكبر من جيشه عائداً إلى دمشق . وقد لعبت شبكة التجسس الصهيونية والشهيرة باسم «نيلي» ـ وعلى رأسها سارة آرونسون ـ عشيقة جمال باشا بحسب رواية أكدوغان ـ ومركزها مستعمرة عتليت ، جنوبي حيفا ، نقول لعبت هذه الشبكة دوراً كبيراً في فشل حملة السويس ، وذلك بتسريب خطط وأسرار الهجوم التركي للسلطات الإنكليزية في القاهرة . كانت الشبكة الصهيونية للتجسس على علاقة وثيقة بالانكليز وعملائهم في مصر والحجاز ، وعلى رأسهم « لورانس » ـ صديق العرب المزعوم ـ، لورانس هذا الذي لعب دوراً كبيراً في ثورة العرب على الأتراك ، هو نفسه الذي أهدى كتابه إلى شخصيةٍ غامضة لم تكن معروفة ، قبل معرفة بعض الوثائق السرية المتعلقة بالحرب العالمية الأولى ونتائجها : (تفكك الدولة العثمانية ، سايكس ـ بيكو ، وعد بلفور ، الخ...). يبدأ لورانس اهداء كتابه« أعمدة الحكمة السبعة » كالتالي :

« إلى س . آ .

لقد أحَبَبْتُكِ ، ولذلك جذبتُ بيدي هذه الجموع من الناس مسطرّاً إرادتي بالنجوم عبر السماء ، كي استحصل لك على الحرية ، المنزل الجدير بكِ ، منزل الأعمدة السبعة ، لعلّ عينيك تشعّان من أجلي عندما أجيء ... لقد بدا لي الموت خادماً في الطريق إلى أن اقتربت ورأيت من تنتظرين . لقد تبسمت حين سبقني إليك مدفوعاً بغيرته الحزينة ، ليحملك ويلقي بك في سكينته... »

لم نكن نعرف الشخص المُشَار إليه بحرفي س ، آ قبل فترة من الزمان ـ قبل إفشاء الأسرار ـ وهنا نعود إلى عنوان كتاب لطفي أكدوغان :

س (سارة)

آ (آرونسون)

فمن له آذان فليسمع ! ومن له عيون فليشهد !

قبل فوات الأوان ... لورانس هذا هو صهيوني قبل أن يكون انكليزياً... هو وجميع من كانوا على شاكلته ... نعم جذب «بيده هذه الجموع من الناس» (العرب من قلب الجزيرة العربية) «كي استحصل لك على الحرية» (وعد بلفور) ، المنزل الجدير بكِ منزل الأعمدة السبعة (الوطن القومي الصهيوني فدولة إسرائيل) ولا ندري حقاً ! من هو الأحمق من بني يعرب الذي أطلق عليه لقب (لورانس العرب)؟ هكذا ! ...

نعم ! هنا نلتقي مع أكدوغان ... الجميع كانوا عميان البصر والبصيرة... لقد وعدونا ... لقد وعدوا العرب بالاستقلال والحرية... فكانت المشانق والضحايا ... لقد صعد شهداؤنا سلالم المشنقة غير آبهين بالموت، في سبيل أمتهم ... وثارت ثورة العرب وهُزِمَت القوات العثمانية ... فجاءت المكافأة :

سايكس ـ بيكو ، وعد بلفور ، انذار غورو وميسلون وكما يقولون : « والحبل على الجرّار » ... في قراءة كتاب لطفي أكدوغان عبرة لمن يعتبر... وأملنا الأوحد ورجاؤنا الأكبر هو أن « لايعيد التاريخ نفسه » ...

الدكتور محمد محفّل

دمشق في ٦ تشرين الثاني ١٩٩٤

عبرة من التاريخ القريب

يقول مونتسكيو الكاتب الفرنسي الشهير ، في كتابه «رسائل ايران»[1] :
«كم هو سعيد ذلك الإنسان الذي يعتبر الحديث عن براعته ضرباً من الغرور» .

إلا أننا ، رغم ذلك ، نجد أنفسنا ملزمين بالحديث عن أحد المبدعين في الفكر ، لطفي اكدوغان ، الذي يطوي وراءه خمساً وثلاثين عاماً من الشهرة ، في مجالات الصحافة والفكر والأدب ، ولانعتقد أن ذلك ضرباً من الغرور، بل على العكس ، فإن من واجبنا أن نعرّف الأمة عليه .

لو أننا تساءلنا عن اسم صحيفة عاصرت أعوام الخمسينات وحتى الثمانينات من القرن العشرين، لكان الجواب بلا شك ولا تردد «أخبار الشرق الأوسط» .

أجل ، ففي بداية الخمسينات ، كان هذا الصحفي الناشيء يلعب دوراً مهماً بتغطية الأحداث البارزة في لندن والدول العربية المجاورة ، رغم التقنية المتواضعة التي كانت عليها الصحافة التركية .

ولفترة ليست ببعيدة ، لم تكن الأمور والأحداث والتطورات التي وقعت في فترة الحرب العالمية الأولى ، واضحة للأذهان . وكانت أشبه بعلبة محكمة الاغلاق لايعلم أحد ما في داخلها ، خصوصاً بعد توسع النفوذ العثماني، وقبضه على زمام التاريخ في المنطقة ، وبعد أن أصبحت الأمة التركية ، صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة مع بداية القرن العشرين .

---

(١) كاتب فرنسي (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) له عدة مؤلفات منها « رسائل فارسية » وكلمة ايران جاءت بعد اسم « بلاد فارس » بعد الحرب العالمية الأولى . والكتاب هو عبارة عن تبادل رسائل وهي بين فارسيين زارا أوروبة وباريس وفيها نقد لعادات وطبائع المجتمع الفرنسي . ومونتسكيو هو من رواد الثورة .

خلال خمسة وثلاثين عاماً ، طاف اكدوغان ، معظم الدول في منطقة الشرق الأوسط زد على ذلك أنه أمعن البحث والتقصي إلى أبعد الحدود فيها ، حيث قام في بادىء الأمر برحلة استطلاعية بهدف التعرف على تلك المناطق والدول، ثم أفرغ كل ما تعلمه وجلبه معه في جعبته وقدمه إلى المجتمع التركي .

ولقد آن الأوان ، وبعد كل هذه المدة ، أن نقدم هذه الأمانة التاريخية إلى أهل الفكر والتاريخ ، تلك الأمانة التي عاشها لطفي أكدوغان في أوج الأعوام الساخنة من هذه الحقبة من تاريخ المنطقة .

والكتاب الذي بين أيديكم ، هو أحد أعمال لطفي اكدوغان الرائعة ذات الأمانة الصادقة ، إنه باختصار قصة وتاريخ الإمبراطورية العثمانية على الجبهة الجنوبية الشرقية .

اقرؤوا هذا الكتاب ، وإننا على يقين من أنه سينال إعجابكم ، ولسوف تشعرون بالحزن وبقليل من الأسى ، عند قراءتكم لهذه الوثيقة الدقيقة للكاتب لطفي أكدوغان ، لكنكم سوف تشكرونه من أعماقكم على أمانته وصدق كلمته .

مع تحياتنا

مؤسسة أ . ب . ث للنشر

CEMAL PASA KIMDIR ? من هو جمال باشا ؟

ولد جمال باشا ، المعروف بجمال باشا الكبير ، عام ألف وثمانمئة وواحد وسبعون . كان له الدور الرئيسي والفعال في ولادة حركة «الاتحاد والترقي» وكان أحد الباشوات الثلاثة في عهد الانقلاب الثاني حيث قدّم لهم وللتاريخ خدمات جلّى وكبيرة ومهمة .

كان الباشا الأول هو طلعت باشا وقد حصل على منصب الصدر الأعظم . أما أنور باشا فكان وزيراً للحربية ووكيل قائد الجيش للامبراطورية العثمانية . أما جمال باشا فعلاوة على توليه منصب وزير البحرية وقيادة الجيش الرابع فقد تولى زمام أمور الدولة العثمانية في المناطق الممتدة من جبال طوروس وحتى اليمن بصفته حاكماً عسكرياً مطلقاً لها .



الفصل الأول

الوضع في الشام وبيروت خلال الحرب العالمية الأولى

مع إطلالة ربيع عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ، كانت بيروت كعادتها في أيامها الخوالي ، تبدو رائعة الجمال ، جذابة ومميزة .

إننا في مطلع ليلة شاعرية وهادئة ، تحط رحالها على أطراف الجبال الكثيفة المطلة على شاطىء البحر ملؤها أريج الصنوبر وعطر السهول .

السماء الصافية يتوسطها قمر ناصع البياض ليضيىء هذه الطبيعة الخلابة . أضواء خافتة تارة ومتلألئة تارة أخرى تظهر وتختفي في أرجاء السهل الأخضر ، وفي أسفل السهل ، حيث يبدأ الشاطىء ، سفن صغيرة وكبيرة كانت ترتاح على الشاطىء وتتمايل مع موج البحر .

وفي الأفق تتمازج أنغام المواويل والليالي وتحضن الواحدة الأخرى في تناغم رائع وتختفي رويداً رويداً في العمق السحيق للسهول مبتعدة عنا ، ثم تعاود ذلك كأمواج البحر .

ولاية عثمانية

في تلك الأيام كان لبنان ولاية عثمانية مركزها بيروت وكانت الدولة العثمانية منذ عام خلا تتخبط في الدماء والنار وتعيش أهوال الحرب العالمية الأولى . وكان الحديث عن الحرب قد بدأ في أرجاء الولاية والإمبراطورية، في حين أن بيروت ، بعيداً عن كل هذه الأجواء ، كانت تعيش في سلام ورخاء

ورغد ومرح وسرور .

كانت بيروت ، براً وبحراً ، في غمرة الأضواء المتلألئة . تزداد إشعاعاً وحياةً . وها نحن في إحدى تلك الليالي العامرة ، الأكثر جمالاً وسحراً ولألأةً .

أما المكان ، أو بالأحرى ، مسرح الأحداث التاريخية التي سنشهدها فهو مجلس عثماني نيابي مصغّر ، هو منزل النائب اللبناني ميشيل سرسق الخاص ، المحاط بأنواع رائعة ومختلفة الألوان من الورود والأزهار الجميلة ، حيث الأشجار المتناسقة والمرج الأخضر يغطيه من كل جانب ويضفي عليه سحراً وجمالاً ويزيد رونق وجمال المنزل المؤلف من طابقين ريفيين .

ضيف رفيع المستوى

وكانت هذه الليلة التي يحييها ميشيل سرسق مميزة ، إذ تأتي ميزتها وأهميتها من سبب إقامتها . فالليلة يقيم السيد ميشيل حفلة عشاء ساهرة على شرف ضيفه الكبير جمال باشا .

نعم ، جمال باشا ذاته .. وزير بحرية الإمبراطورية العثمانية وقائد جيشها الرابع ، جمال باشا .. هذه الشخصية العثمانية التي لمعت وظهرت على الساحة السياسية في فترة وجيزة لما تحمله من صفات الجرأة والوطنية والشرف والاستقامة ، ناهيك عن أن جمال باشا كان له دور كبير وفعال في حل العديد من المشاكل التي اعترضت الإمبراطورية العثمانية .

ورغم أن جمال باشا من أنصار حاملي أفكار السلم وليس الحرب ، إلا أنه مع ذلك مستعد لإحراز النصر للإمبراطورية ، ولديه العزيمة والتصميم على إخراج وطرد الانكليز من مصر ، فهو قائد الجيش الرابع ووالي سوريا العمومية ، هذا المنصب الذي انتزعه من حيدر باشا بكل ثقة وسهولة ، كما لو أنه يركب القطار في رحلة استجمام .

كان ضيوف ميشيل سرسق قد قدموا منذ وقت طويل . والكل

ينتظر بفارغ الصبر قدوم هذه الضيف الكبير وفي مقدمتهم ميشيل سرسق وعقيلته ليندا ، ونظراتهم ملؤها الشوق والترقب بفارغ الصبر لقدوم ضيفهم الكبير .

وبينما هم كذلك ، سمعت أصوات غريبة أشبه بأصوات محرك سيارة عند مدخل الحديقة لفتت انتباه المدعوين وأصحاب البيت والخدم وحركتهم من أماكنهم بشكل عفوي . حيث في تلك الأوقات والأزمنة لم يكن هناك سوى ثلاثة أو خمسة يملكون سيارات ، وجمال باشا واحد منهم ، مما أثار فضول وشغف المدعوين لرؤيته ورؤية السيارة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان سماع الضيوف لصوت محرك السيارة دليل ومؤشر واضح على قدوم ضيفهم .

لقد كانت التخمينات في محلها ، نعم .. القادم هو قائد الجيش الرابع والي سوريا العمومية ، وزير البحرية جمال باشا .

نزل الضيوف إلى الحديقة وهم في شوق لرؤية هذا الرجل ، رغم أن البعض منهم قد رأى طلعت باشا وأنور باشا فيما سبق .

اقتربت السيارة رويداً رويداً وتوقفت عند منتصف مدخل المنزل ونزل منها الحاكم الأنيق بلباقة تجمع بين قوته التي مكنته من السيطرة على المنطقة بأقل من ستة أشهر ، وبين هيبة الحاكم الصارم ذي القوة المطلقة فأثار مشاعر الناظرين جميعاً .

لقد كان لباسه العسكري ولحيته السوداء تعطي للناظرين انطباعاً عن شخصية بالغة وكبيرة في السن على صغر سنه، رغم أن وجهه لم يكن يحمل أي أثر للارهاق أو التعب نظراً للمناصب والمسؤوليات التي كان يشغلها .

بحركة هادئة مع ابتسامة ، حيا الضيوف والناظرين ، وتقدم محاطاً بالمدعوين بخطى هادئة نحو الدرج حيث كان يقف في مقدمته صاحب الدعوة، وزوجته السيد ليندا التي سارعت بابتسامات مرحبة

بالتوجه إلى الضيف الكبير مستقبلة إياه قائلةً :

ـ أهلاً وسهلاً بك ، لقد أتيت إلينا بالسرور والصفا بقدومك يا سعادة الباشا،مادةً ذراعها له وتقدما معاً نحو الصالون ، وتابعت تقول : إنني واثقة من أنكم سوف تسعدون جداً هذه الليلة وسوف تكونون ضيفنا العزيز ، وأرجو أن ينال بيتنا المتواضع إعجابكم وأن يليق بمقامكم .

ورد عليها جمال باشا بابتسامة رضى وسرور وشكرها على كلامها .

يعيش جمال باشا !

وهكذا تقدم الجميع إلى الصالون ، وفجأة تعالت الأصوات تلا ذلك دويّ تصفيق حار مرحب بقدومه وترددت هتافات عالية تقول بالعربية والتركية :

يعيش جمال باشا !

يحيا جمال باشا !

كان بعض المدعوين مازالوا في الحديقة ، مما جعل الكثير منهم يحاول وسط زحمة المتواجدين في الصالون ، الوصول إلى أقرب مسافة من الضيف الكبير لمشاهدته عن كثب ورؤيته عن قرب . ومن بين هؤلاء المدعوين ، فتيات ونسوة أحْسَنَّ التزيّن ، حاولن جاهدات الوصول إلى مكان الضيف الكبير لمشاهدته والتعرف عليه . وكانت غالبيتهن تنتمي إلى عائلات مرموقة بيروتية ، لذلك كنا نلحظ لباسهن الرفيع المستوى وعطورهن المميزة التي تلفت الانتباه ، وكان مزيج هذه العطورات الغالية الثمن الذي يفوح وسط حشد السيدات والفتيات بفساتينهن النصف عارية ، يجلب الانتعاش إلى القلوب ويبهجها .

كان الضيوف ، وكل حسب تقاليده وعاداته ، أوروبية منها وتركية وعربية ، يتقدم أمام الضيف الكبير ويحييه ، وكان جمال باشا يرد عليهم

التحية ويبادلهم نظراتهم الهادئة المليئة بالاعجاب عند تحية إحدى تلك الحسناوات اللواتي هاج قلبهن لرؤيته وودن التقرب منه ورؤيته عن قرب .

لقد كانت الثُّرَيَّات المتدلية من السقف تعيد إلى الذاكرة ليالي فيينا الحالمة في حين أن تنوع هوية المدعوين في منزل ميشيل سرسق كان يضفي على الأجواء حساً غريباً وجميلاً ، فلقد كان قسم منهم تركياً وقسم آخر عربياً ، وبعضهم يتبادل أطراف الحديث بالفرنسية ، أما جمال باشا فكان يستعين ببعض العبارات الفرنسية ليسهل مهمة التفاهم والحديث مع المدعوين ، خاصة وأنه يتكلم لغة تركية فصحى ، ذات لكنة استنبولية .

ووسط هذا الفرح والهرج ، انتهزت السيدة ليندا الفرصة وقدمت لجمال باشا كأساً من الكريستال النادر مملوءة بخمر فرنسي فاخر ، فأخذها جمال باشا وشكرها بلطف واحترام، وقبل أن يرتشف منها جرعة ألقى على الحضور كلمة صغيرة قال فيها :

سيداتي المحترمات ، سادتي ، أتقدم بالشكر للسيدة ليندا وزوجها اللذين أتاحا لي حضور هذه الأمسية الرائعة .

انكم تعلمون أن دولتنا قد دخلت الحرب منذ عام تقريباً ، وأود أن أؤكد لكم بأن النصر بإذن الله هو حليف دولتنا . إن أنباء انتصار جيشنا على كافة جبهات القتال ترد إلينا كل يوم ، إن دولتنا تتطلع إلى النصر النهائي والحاسم ، واتفاقنا مع الالمان اليوم له أهميتان عظيمتان :

فعلاوة على الكفاءة والتقنية الحربية الالمانية ، تأتي جرأة وشجاعة الجيش التركي لتكون مكملة لعوامل النصر . وقريباً ستظهر نتائج هذه الاتفاقية إلى العالم كله ، وإحدى نتائج هذه الاتفاقية تقويم العالم ، لأننا بعد أن نفوز بهذه الحرب ، سوف نقوم بإعداد منهج جديد في كل الولايات ، وسوف تكون هناك سياسة جديدة لإمبراطوريتنا ، على أساس الحرية والمدنية، والتقنية والرفاه وسوف تعمل الإمبراطورية كل ما يلزم لتنفيذ هذه

السياسة الجديدة في كافة أرجائها . فبعض الولايات التي خضعت لإمبراطوريتنا بحاجة لاصلاح داخلي وسوف تتم هذه الاصلاحات في فترة وجيزة بالتعاون مع القوى الوطنية في تلك الولايات .

كما أخذت الإمبراطورية بعين الاعتبار، حرية القوميات والأمم الواقعة تحت سيطرتها ، وستقوم بوضع نظام فيدرالي فيما بينها لتضمن لهم عيشاً سالماً وهنيئاً .

وكلي ثقة بأنكم سوف تؤمنون بما أقوله لكم ، ومطلبي منكم أن تؤمنوا بصدق ما أقول .

لقد كان لهذ الخطاب القصير ، صدى طيباً على كل الحضور المتواجدين في الصالون ، إضافة إلى ما بدا على وجوههم من علامات الرضى والسرور، فعلت الهتافات والتصفيق على أشدها ، كما شارك النواب الشبان الذين كانوا على مقربة منه ، والضباط الألمان الذين يشاركونه طاولة العشاء ذاتها ، في التعبير عن سرورهم ورضاهم مع المدعوين وعن امتنانهم وإعجابهم بكلمته القصيرة تلك ، المليئة بالرجولة والثقة بالنفس اللتين يتحلى بهما جمال باشا .

العشاء جاهز ياسعادة الباشا

بعد إلقائه لهذه الكلمة القصيرة ، ارتشف جمال باشا بعض الجرعات من كأسه ، ثم توجه إلى مجلسه المخصص له وسط الصالون على أريكة ضخمة يتأمل المدعوين ، لم يكن يلتفت يمنة ويسرة بل كان يكتفي بالإجابة بصوت خافت على تساؤلات بعض المدعوين محافظاً على هدوئه ووقاره في كل تصرفاته وحديثه .

مرت عشر دقائق على هذه الحال ، كانت النظرات كلها متجهة إليه مملوءة بالحب والإعجاب حيث حاول تجاهلها . إلا أنه شعر بعرقه يتصبب تحت سترته العسكرية ، وفجأة وبحركة هادئة ، ضرب بكلتا يديه على طرفي الأريكة

التي كان يجلس عليها ونهض واقفاً وقال بنكهة مرحة للسيدة ليندا :
أعتقد أننا جمعنا كلنا ، متى ستقدمون لنا الأكل .؟
في حقيقة الأمر ، كانت السيدة ليندا تنتظر هذا السؤال . فقالت :
« العشاء جاهز ياسعادة الباشا ، رهن اشارتكم » .
وهكذا توجه الجميع إلى غرفة الطعام .

زعيم مفكّر

في الحقيقة ، كانت مائدة العشاء معدة بشكل يلفت النظر بالعناية الواضحة بها . فبالإضافة إلى المأكولات على الطريقة الفرنسية ، كانت هناك أطباق عربية مليئة بالتوابل تملأ المائدة . وكانت أغطية المائدة القماشية ناصعة البياض أشبه بلون الثلج ، والكؤوس تلمع ببريق شديد ، ناهيك عن الملاعق والشوك البراقة التي كانت تزين المائدة . وعشرات الخدم والخادمات يطوفون حول المائدة لتأمين متطلبات المدعوين ، والمشروبات الفاخرة على مختلف أنواعها موزعة على المائدة بشكل ملفت للنظر . وكان عطر الورد القادم من الحديقة إلى الصالون عبر النوافذ والأبواب المفتوحة ينعش القلوب.

وأثناء الطعام ، قام الباشا بتناول بعض العرق المشهور في لبنان «عرق زحلة» ومع مرور الوقت ، شعر قائد الجيش الرابع بنشوة الخمر ، ووقع تحت تأثير العرق الذي ارتشفه ، وشعر حامل الرأس المفكر ، المليء بالأمور العظيمة ، بشيء من الدوار ، فنهض وخرج إلى الشرفة ملتمساً الهواء النقي علاجاً لرأسه.

كانت أغصان شجرة المانوليا تغطي الشرفة ، فأخذ الباشا ، عاقداً يديه خلفه ، يتجول في أرجاء الشرفة بمفرده ، دون أن يشاركه أحد من المدعوين بناءً على توصية من صاحب المنزل .

كانت النسمات القادمة من جهة البحر قد ازدادت حرارة ، بينما كان الباشا يتجول ويعيد إلى ذاكرته أحداث اليوم التالي وبرامجه ، فهو مسافر غداً إلى الشام ، ثم إلى القدس ، ثم يعود بعد أن يجري بعض الأمور في المدينتين . فجمال باشا لم يكن مجرد والٍ فحسب ، بل كان مسؤولاً في الدولة والحكم .

وكان اهتمامه ، علاوة على الأمور العسكرية ، يشمل أمور الناس والشعوب التي تعيش على أراضي الإمبراطورية ، وينصب على أمنهم الغذائي والحياتي والمعيشي .

وبينما هو منهمك في كل تلك الأفكار والاهتمامات ، صدر فجأة من الحديقة أسفل الشرفة ، صوت نغمات لطيفة ، نغمات موسيقى عربية تعزف في الحديقة . فاقترب الباشا من حاجز الشرفة الأمامي ونظر إلى الأسفل .

لقد كان هناك ساحة رقص صغيرة ، التم حولها المدعوون برفقة فرقة محترفة من العازفين ، الذين اتخذوا بجانب ساحة الرقص مكاناً لهم .

التفت جمال باشا إلى السيدة ليندا التي اقتربت منه وقال : « أتسمحين » ثم تابع يقول « لست أرغب في النزول إلى الحديقة ولكن إن أمكن أن ترسلي لي إلى هنا مقعداً فأكون لكِ شاكراً » .

وعلى الفور ، أسرع الخدم وحملوا أريكة ثقيلة من تلك التي كانت في الصالون وأحضروها إلى الشرفة . وجلس الباشا عليها ، وراح يسحب أنفاس سيجارته متأملاً البحر الذي شغله عن الحفل وعن الاحتفال الذي أقيم في الحديقة عند أسفل الشرفة ، وكان القمر موشحاً ببعض الغيوم البيضاء التي كانت تزيده روعة وجمالاً ، وعلىَ جانبه الجبل المليء بأشجار الصنوبر يمتد على مد النظر والبحر كالمرآة يعكس ضوء القمر المتلألىء وكأنّ ملايين المصابيح قد أضيئت على سطحه .

لقد كان سحر هذه الطبيعة التي أحاطت بجمال باشا وروعة منظرها قد

أنساه أصوات العازفين الذين تجمعوا تحت الشرفة . فتساءل بينه وبين نفسه ، متأملاً ومردداً : ألا تستحق الحياة أن يعيشها الانسان خاصة عندما تكون بهذه الروعة ولكن هل كل الناس محظوظون مثله وهو في هذا المكان الرائع بالجمال والطبيعة ؟ تلك مسألة أخرى ، فالأسباب كثيرة والظروف مختلفة وكل فئة من الناس لها نصيب في هذه الدنيا.

لكل شيء مشكلته

لعل حياة الباشا لاتخلو من مشكلة من تلك المشكلات . فحياته كلها غنية بالعمل والنشاط ، أما على الصعيد المادي فلقد أُتيحت له كل الامكانيات والفرص دون أية مصاعب ، غير أن المشكلة تكمن في العمر والسنين التي تمر دون حسبان . والمشكلة هي تلك المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقه وتنغص عليه حياته رغم كل الامكانيات المتوفرة له ، إلا أن الأعباء الثقيلة التي حملها على كاهله أنسته نفسه وقرر التضحية بكل شيء من أجل بلوغ أهدافه السامية .

لو أن هذه الحرب تنتهي

تحت تأثير هذا السحر الجمالي الذي أحاط بالباشا ، بدأ يتمتم بينه وبين نفسه ويقول : آه، لو تنتهي هذه الحرب على خير وسلام ! لو أنها تنتهي بنصر مشرّف لدولتنا ! عندها أشرب مع أصدقائي كأساً ننسى به هذه الايديولوجيات التي تعشش في رؤوسنا !

بعد أن ينتهي كل شيء ، أنا أيضاً ، مثل بقية المواطنين ، مثل أي إنسان عادي ، سوف أتمكن من أن أعيش حياتي ببساطة وسعادة ...

الحرب ، وبإذن الله ، سوف تنتهي ولابد ، أما أن يكون النصر حليفنا فهذا شيء معقول ومنطقي ، ولم يكن ما يشغل بال جمال باشا ، بل

كان هناك ثمة أمر آخر يشغله ويقلقه .

في الحقيقة لم يكن هناك ما يقلق الباشا ويشغله فعلاً منذ عدة أشهر ، ويغلي ويشتعل كالجمر في داخله سوى « اهانة العرب له » وخشيته منهم .

كان الباشا قلق جداً من خيانة العرب له ، ومعالجته هذا الأمر في غاية الدقة والحساسية ، فليس من عادة الباشا أن يصارح عدوه بمخاوفه وفي الوقت نفسه ، لابد للباشا من انتظار نهاية ا لحرب بحذر شديد ، وإلى أن يحين ذلك ، كان الباشا يدعو إلى الله من أعماقه ، بأن يحفظه من أن يطعنه العرب في ظهره .

لاخوف من العدو المكشوف

لم تكن مخاوف الباشا كبيرة في مواجهة أعدائه الفرنسيين والانكليز ، لأنه كان قد كشفهم ويعرف كيف يتصرف معهم . أما الخوف الأكبر فكان من تلك الحركة القومية التي أصبحت تموج في سوريا ولبنان والعراق والحجاز ، وتحركات لشخصيات عربية تثير الشبهات والمخاوف ، وتعاون البعض مع أعدائه الانكليز والفرنسيين .

غير أن هذه الأمسية الرائعة التي لاتعوض ، جعلت الباشا يحاول ابعاد هذه الأفكار من رأسه ، لكي لايفسد متعة هذه الليلة الصافية وسط هذه الطبيعة الخلابة .

« فلتكن هذه الليلة ، ليلة متعة لي » ، قال في نفسه ، ثم انحنى من الشرفة ونظر إلى الحديقة من جديد . كانت هناك حسناء جميلة ، شابة ذات عينين ساحرتين ترقص وسط الساحة في منتصف الحديقة . وكان جمالها ساحراً وملفتاً ، ومما زادها فتنة حركة يديها وسيقانها الرشيقتين .

لم تكن هذه الشابة الراقصة تشبه أياً من الراقصات اللواتي رآهن

الباشا في سوريا منذ توليه حكمها ، ومنذ زمن بعيد ، ورغم أنها كانت ترقص على الموسيقى العربية غير أنها لم تكن تشبههنّ قط .

كانت التفاتته ومراقبته الشغوفة للراقصة قد أثارت انتباه السيدة ليندا التي لم تكف عن مراقبته طوال الوقت ، فاقتربت منه ، وفي داخلها شيء من التوتر وقالت له : كيف وجدت ضيفتنا يا سعادة الباشا ؟

ـ من هي هذه الراقصة ؟

ـ إنها ليست راقصة ياسعادة الباشا ، لو جاز التعبير ، فإنها عالمة فضحك جمال باشا .

أنا لم أسمع ولم أعرف في حياتي أن الرقص والعلم يمكن أن يجتمعا في شخص واحد ولكن إذا تلاقيا يمكن أن يمنحا المرأة جمالاً أمتع .

ـ لو أذنت لي يا سعادة الباشا ، بتقديمها إليكم .

ـ أكون شاكراً لكِ .

وعلى الفور ابتعدت السيدة ليندا لتنفذ ما طلبه الباشا وبينما كانت تتجه نحو مكان سارة كان الباشا يلاحق الفتاة الجميلة بنظراته التي استقرت عليها . لقد شاهد الباشا السيدة ليندا وهي تشير إلى الحسناء الراقصة بالقدوم إليها ، كما رأى استجابة الحسناء لها بكل سرور وعن طيب خاطر، ولم تمض دقائق حتى وصلت صاحبة المنزل وبصحبتها الفتاة الحسناء إلى الباشا وقدمتها له .

وحيت الفتاة القائد التركي تحية ملؤها الخوف والخجل حتى كادت نظراتها لاتفارق الأرض الفاصلة بين مكان وقوفها ومكان جلوس الباشا .

« إن قبول سعادة الباشا صحبتي شرف كبير لي ، وإني لسعيدة جداً بذلك » .

فتابعت السيدة ليندا تقول :

سعادة الباشا ، اسمها سارة وهمّت بقول بعض الجمل البروتوكولية ،

حين قاطعها الباشا ، الذي لم يجد في ذلك ضرورة وقال :

« هلا أحضرت للسيدة مقعداً » والعالمة الراقصة واقفة وقفة كلها تهذيب ووقار واحترام .

« لو سمحتم يا سعادة الباشا وصححت لكم » إنها آنسة وليست سيدة، انها الآنسة سارة آرونسون . وأضافت سارة تقول :

لو سمحتم يا سعادة الباشا ، لأكون شاكرة للمعروف ، ولحظي السعيد، أن أقدم لكم نفسي « خادمتك سارة آرونسون » .

لقد سر الباشا من حسن لباقة الشابة الحسناء وطيب لسانها ، علاوة على جمالها الفتّان ، فردد على الفور بصوت منخفض « استغفر الله ... » مضيفاً إليها بعض الكلمات غير المفهومة .

عندها جلست سارة على المقعد الذي أحضروه لها ، جلست جلسة ملاكٍ رقيق لم يسبق للباشا أن رأى لها مثيلاً .

وتركت ليندا الضيفين على الشرفة وابتعدت بصمت إلى الحديقة ، حيث أحد المطربين ، بطربوشه الطويل على رأسه ، يغني موالاً من مواويل « يا ليل » .

لم تكن سارة تشبه أياً من الفتيات المدعوات ، من أهل المنطقة فلقد كانت تصرفاتها ولباقتها تدل على أنها ليست واحدة منهن .

ودون أن تنتظر «رفع الكلفة» بينها وبين الباشا ، اقتربت سارة من كتف الباشا كالقطة الوديعة قائلةً بصوت خافت وناعم :

آه يا سعادة الجنرال ، لم أكن أتوقع أو أحلم بأن أكون قريبة منك إلى هذا الحد ، يا ليتك تعلم قدر سعادتي بهذا . مؤكد أنك لست قائداً فحسب ، ولكنك حاكم سوريا ولبنان ومؤسسها الحقيقي بل ، إن لم أغضبكم ، فأنتم صاحبها ومالكها .

ليس المهم استحسان الباشا لكلمات سارة هذه أو عدمه ، فالأمر أعمق بكثير من ذلك . كانت نظرات سارة الثاقبة والساحرة قد هيمنت على الباشا ، فلم ينبس ببنت شفة ، ونظره ثابت على الفتاة الحسناء والتقت النظرات ، لقد كان الاثنان من ذوي الخبرة في المعارك وميادينها ، فبقي على هذه الحال مدة طويلة . وظلت سارة تنظر إلى الباشا بعيون ملؤها الثقة . وبعد ذلك نلحظ وبوضوح خسارة الشاب المرموق في هذه الجولة الأولى . جمال باشا كان قد استسلم لهذه النظرات الثاقبة الساحرة وأعلن خسارته للجولة الأولى .

ولم تكن سارة تعتمد على جاذبية نظراتها وعيونها فقط بل على قدها المكتنز وشفاهها الحمراء وبشرتها الطرية التي طغت عليها رائحة عطرها الخاص ، كانت سارة تمتلك كل تلك القدرات الجذابة .

وهكذا وقع جمال باشا ، أحد أكبر ثلاثة قواد للإمبراطورية العثمانية ، بكل تلك القدرات التي يملكها ، والعقل المفكر الذي يملكه ، أسيراً تحت رحمة جمال وروعة سارة ، التي سلبته كل تلك القوى وكل تلك القدرات بنظراتها . لقد كان الباشا يسأل نفسه ، من أين لتلك القدرات أن تسلب إرادته وعقله بالشكل الذي فعلته به .

إن رجلاً مثله ، يعيش الحرب ومشاكلها ، لايمكن أن يكون حساساً لموقف كهذا وفي ليلة كهذه ، وللخروج من المأزق الذي وضعته فيه ، واظهار عدم تأثره بها وبمفاتنها ، حاول الباشا التحدث مع سارة ، لكسر طوق الحصار عنه فسألها قائلاً : من أين أنتِ يا آنسة سارة ؟

ـ أنا ... أوه لاتسأل عن ذلك ياسعادة الباشا ؟

الحقيقة ، إن كان لابد من الإجابة ، فأنا إنسانة بلا مأوى ، ولا مكان، إنسانة تعيسة الحظ لاتصلح لشيء ، كل الناس والأبناء هم من

يعتني بهم ويدللهم . أما أنا . فأنا ابنة عائلة رماها الدهر من جانب إلى آخر ، ومن وادٍ إلى واد .

فليمد الله بالخير إمبراطوريتنا ويطول أعمار الجنرالات أمثالكم ، الذين هم من الأصالة والانسانية بقدر كبير .

أما نحن البؤساء المساكين ، فلقد حظينا في عهدكم ، ببقعة صغيرة من أرض فلسطين وكان لنا الشرف في ذلك .

ـ حسناً ، ولكن قبل الآن أين كنتم ، ومن أين قدمتم إلى هنا ؟

فردت سارة كمن يلقي خطاباً وقالت :

ياسعادة الباشا لانقاش ولااعتراض على القدر في أننا ولدنا موسويين . لقد عشنا بادىء الأمر في روسيا ، ثم تعرضت ملتنا هناك إلى العديد من الاضطهادات فرحلنا إلى رومانيا ثم أُرسلنا من جديد إلى انكلترا وبعدها بفترة ، وعندما سنحت لنا الفرصة ، أتينا إلى فلسطين .

الشكر أولاً لله ثم لكم ، لقد كنا سعداء الحظ بأن كتبت لنا الحياة على هذه البقعة من الأرض ، واننا ندعو دائماً بأن تخرج الإمبراطورية العثمانية مظفرة من هذه الحرب .

انشراح صدر

لقد كان جمال باشا مسروراً لسماع أن سارة من أصل يهودي ، رغم أن كونها يهودية قد أثار لديه بعض الانقباض ولكنه كان في نهاية الأمر راضياً في قرارة نفسه عن هويتها . وكونها من أسرة أوروبية تقطن في منطقة عربية زاد نفسه انشراحاً واطمئناناً .

إذ ليس من السهل أن يتعرف على مثل هذه الحسناء التي تملك كل هذه القدرات وهذا النسب وهذه العائلة في زمن الحرب بهذه المنطقة . ومن ناحية أخرى ، كان لديه احساس بقرب حدوث سوء ما له ، من معرفته

هذه، ولكنه كان يخفف من شكوكه وتفكيره في هذا الاتجاه ، بتذكره أنها من أصل يهودي ولم يكن يجد أي احتمال للسوء من هذا التعارف .

لقد سبق أن واجه الباشا اعداءً للإمبراطورية من مختلف الجنسيات والملل الخفية منها والعلنية ، بما فيها الحركات المعادية للإمبراطورية ، ولكنه لم يسبق له ولا في أي زمن أن سمع أو واجه عدواً موسوياً . لقد بدأت الحركة الموسوية مع بداية حركة الاتحاد والترقي ، غير أن جل اهتمامها انصب على الأمور المالية فحسب .

فالقادمون ، الموسويون اليهود ، كان اهتمامهم بالأمور المالية حصراً، وقدموا دعماً واضحاً للإمبراطورية على هذا الصعيد ، علاوة على ذلك فأكثر الشخصيات في الدولة نفوذاً ، طلعت باشا ، الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية ، كان من أصل ماسوني عريق .

وفجأة ، أيقظ الباشا من سهوته هذه ، صوت الحسناء الرقيق وهي تقول : لقد سهوتم كثيراً يا سعادة الباشا ، من يدري بأي أمور الحرب والدولة كنتم تفكرون ؟

لم يعطِ الباشا اجابة لسؤالها هذا ، ولكنه بادلها سؤالاً بسؤال قائلاً: حسناً قولي لي . ما هو عملكِ يا آنسة سارة ؟ هل هناك مشكلات في عملكِ وحياتكِ ؟

ـ أنا أحب الطبيعة كثيراً يا سيدي ، ومنذ قدومي إلى فلسطين ، انشغلت كثيراً بالطبيعة ، إن شغفي بعلوم الطبيعة كبير . لعلك تستغرب إن قلت لك أن النباتات الموجودة في شواطىء فلسطين لاتشبه أبداً نباتات شواطىء روسيا . إنها مختلفة جداً عنها ، وأغنى منها بكثير وفيها حياة متنوعة . إني أعمل مع استاذي أهارون . وهو عالم طبيعة كبير وله دراسات ومؤلفات في هذا الموضوع ، حتى أن بعض دور النشر قد استعانت بمؤلفاته وأدرجتها في صفحات موسوعاتها . مثلاً ، لقد كان استاذي أهارون أول من

اكتشف اللوز البريّ وعمل على زراعته في مختلف أرجاء العالم وإني حالياً بصدد اعداد دراسة جديدة حول هذا الموضوع وهذا سيحسن من أنواع النباتات المزروعة . وإذا توصلنا إلى نتائج حسنة فإن مردود ذلك سينعكس على الزراعة ووفرتها في وطننا أيضاً .

قدر العلم

بهدف الاطالة في هذا الموضوع وجعل أسباب للحديث ، أفاضت الحسناء وبصوت رقيق ومميز بالحديث عن أمور كثيرة تتعلق بدراستها ، مما أثار مشاعر الباشا وأفقده سيطرته على تفكيره ، فظل مشدوداً لحديثها يراقبها ويمعن النظر إليها ... إلا أن هناك أمراً مازال يشغل باله : فمنذ قرابة عشرة دقائق كانت هذه العالمة ترقص في الحديقة وما من أحد يشك بكونها راقصة محترفة ، فهل يُعقل أن تكون صاحبة هذا الرقص الرائع ، عالمة بهذا القدر من الثقافة والمعرفة ؟

ولكي يبدد شكوكه ويعيد الاتزان إلى نفسه ، وجه الباشا سؤالاً آخر لسارة ، قائلاً :

الحق يقال ، إنه إلى جانب جمالك المادي جمال روحي باهر قد أعجبني.. قولي لي إذاً ، إلى جانب معرفتك العلمية هذه ، هل توصلت مع أخيك العالم إلى اكتشاف شيء جديد ما ؟

سارة تزداد تألقاً (تتنفس الصعداء)

مع استمرار هذه المحادثة ، استطاعت سارة أن تتنفس الصعداء بل تأخذ راحتها على أكمل وجه ، فأجابت عن سؤاله، وهي تمسح بلسانها شفاهها الحمراء وبحركة غنج ودلال قالت :

سوف أحدثك عن اكتشافي ، على ألا تغضب منّي .

ـ أغضب منكِ ؟ لم أغضب ؟ هيا قولي لي ، لقد أثرت فضولي ، فأجابت الصبية قائلةً :

يا سعادة الباشا ، أنا اكتشفتكم ، ألا يكفي هذا ؟ وهل هذا بشرف قليل لي ؟ حتى إنكم لستم كتلك المكتشفات التي تدرج في الموسوعات ، إنكم احدى المكتشفات التاريخية ، ولا يمكن للفات التاريخ أن تضمكم بين صفحاتها لعظمة وعلو شأنكم . أنتم لستم مجرد وزير بحرية الإمبراطورية العثمانية ، ولا حاكم الأراضي العربية ، ولا قائد الجيش الرابع إنكم أصحاب ذوق معنوي ومادي ، ووقت ما تشاؤون أنتم قادرون على بسط إمبراطورية عظيمة على كافة هذه المنطقة كما فعل في مصر محمد علي باشا . وسوف يرحب العالم بأسره بهذه الإمبراطورية العظيمة . وإني واثقة مثل كل الآخرين ، من أن باستطاعتكم تحقيق ذلك . إن الله قد أعطاكم أشكالاً عديدة من المزايا والصفات ، ولقد اكتشفت فيكم القائد الجبار والمتمكن ، وفي الوقت نفسه ، الانسان المليء بالرحمة والرقة والانسانية قولوا لي أرجوكم هل نال شرف مثل الاكتشاف إنسان غيري يا سعادة الباشا .

دولة مستقلة

إثر سماع حديث سارة هذا ، كان جمال باشا قد امتلأ قلبه انتعاشاً وسروراً ، غير أن شيئاً مجهولاً ظل يغص في قلبه وينغص عليه سروره ، حزن دون مبرر ولاسبب . الحقيقة أن عبارات سارة وحديثها عن محمد علي باشا وتأسيس إمبراطورية مستقلة على الأراضي العربية ليست بعبارات عادية ، إن هذه العبارات والأفكار الصادرة عن فتاة مثل سارة ، تثير العجب لما فيها من الغرابة .

كما أن للموضوع طرفاً آخر ، إن المسؤوليات الحربية الكبيرة كان يقررها ويتحملها مناصفة أنور باشا وطلعت باشا ، دون الرجوع إلى جمال

باشا الذي لم يكن يكترث حتى الآن لدور هذين الباشايين . وكانت مشاعر الحقد والحيرة منهما تموج في داخله طوال الوقت. وهذا الأمر لايعرفه إلا المقربين من جمال باشا . علاوة على أن معظم المعارك على الجبهات المختلفة ، رغم أنها كانت تحقق انتصارات عديدة ، ولكن دون الوصول إلى النصر النهائي .

كان أنور باشا ، حليف الالمان الأول ، يتصرف ويتخذ القرارت الحربية بمفرده دون استشارة من حوله ، مما يؤدي به إلى ارتكاب أخطاء متكررة ، وكان طلعت باشا من جهة أخرى مغموراً بالترف همه دائماً التذمر من جمال باشا ونقد سياسته وقراراته .

أما السلطان محمد رشاد ، ذو القلب الطيب المحب لوطنه من الصميم، الذي فقد كل الأحاسيس الانسانية نتيجة قضائه في السجون عدة سنين طويلة ، هذا السلطان العجوز مازال يترأس حركة (الاتحاد والترقي) منذ أن ترك سريره الخشبي في السجن ، لذا لاأمل من هذا العجوز في أن يقوم بحركة جديدة ، ولاجدوى من انتظار مثل هذا الأمر منه .

أما جمال باشا ، ذلك القائد المحب لوطنه ، فلقد كان بعيداً عن كل هذا ، بل كان على العكس ، كثير التذمر من أوضاع هؤلاء الباشوات والسلطان العجوز . وكان جمال باشا يشكو هذا الأمر مراراً للمقربين إليه ، الذين لم يتورعوا عن نصحه باستلام زمام الأمور بمفرده ، وترأس حزب الترقي بنفسه ، حتى أنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيوصونه بتولي الحكم بمفرده .

فبعد أن تولى جمال باشا منصب الوالي على سوريا ، قام بعض أصدقائه والمقربين إليه بنصحه لاستلام الحكم بمفرده ، غير أنه لم يكن يكترث لهذه النصائح من أصدقائه ولم يكن يعطيها الأهمية الكافية .

ولكن إقامة الدولة المستقلة في شبه الجزيرة العربية كانت فكرة جديدة عندما طرحت عليه من قبل سارة ! .

حادثة غير متوقعة

لم يكن هذا التفكير غريباً من نوعه . فاقتطاع جزء من الوطن لإنقاذه يعتبر ضرباً من الوطنية والمحافظة على مصلحة الوطن . وهذه الفكرة بالذات كانت تجول في مخيلة جمال باشا منذ زمن بعيد . إنه ، وحسب تصوره، الرجل المثالي والمخوّل بإنجاز مثل هذه المهمة الوطنية لإنقاذ البلاد ، غير أنه كان يعتبر نفسه مثالياً فقط وليس رجل الحدث . لقد كان يعتبر هذه الأحداث ، لامكان لها ولا يضعها في الحسبان ، لذلك لم يكن يعطيها الأهمية الكافية في حياته العملية . إن مهمته الأساسية هي انقاذ الوطن من هذه الورطة ، والمهمة الملقاة على عاتقه حالياً إعادة البلاد إلى استقرارها .

هكذا كان يرى الحقائق ، ولم يكن يعتبر ماعداها سوى أشياء تثير غروره لاأكثر . وهذا ما كان يجعله يسكت على كل هذه المسائل ولايتدخل بها. إن كلمات هذه الفتاة الموسوية الجميلة في هذه الأمسية الساحرة من ليالي لبنان الهادئة في ربوع بيروت الرائعة تجعل النفس تنشرح وتشعر بنشوة من السعادة لامثيل لها .

فمنذ قليل ، وكانت نشوة عرق زحلة مازالت تتغلغل في عروقه ودماغه ، ورغبة منه في عدم أخذ كلام هذه الحسناء على محمل الجد ، أدار الباشا الحديث مرحاً وهزلاً فأخذ وجه الفتاة بين يديه ولكنه ما لبث أن تراجع قائلاً : ما أنت إلا ساحرة يا سارة .

عند سماعها هذا السؤال بدت كمن أصابته صاعقة فأجابته قائلة :

ولماذا أكون ساحرة ياسعادة الباشا ؟ هل تعديت حدودي من خلال محادثتي معكم أم ارتكبت خطأ بحقكم ؟

أول رعشة حب جميلة

فطيّب جمال باشا خاطرها وقال لها :

ـ كلا ، كلا ، أي خطأ تقولين عنه ؟ على العكس إن حديثك هذا جعلني مسروراً جداً بل أنا محظوظ لسماع مثل هذا الحديث .

ـ آه ، أشكرك كثيراً يا سيدي الجنرال .

ـ أين تقيمين في بيروت ، هذه الليلة مثلاً أين ستكونين ؟

وكان رد الفتاة محيراً إذ قالت له :

ـ حيثما يأمرني سعادة الباشا بالبقاء، أبقى، وكما قلت لكم منذ قليل، في أول لقائنا ، إن كنتم تقبلوني خادمة متواضعة لكم .

كان لهذا الرد أثر عميق في نفس الباشا ، حرك في عروقه نشوة عميقة، حتى أن قلبه الذي تملؤه العظمة والقوة، أصبح قلب عاشق مليء بالأحاسيس والمشاعر الرقيقة .

لم تكن الفتاة وهي تقول كلمتها تحملها على محمل الجد ، ولكنها كانت تقصد أن تجعله يشعر بأحاسيس مرهفة .

فنظر إليها الباشا نظرات ملؤها الرغبة والحب . وكانت السيدة ليندا بعيدة عنهما ولكنها لم تغفل عن سماع محادثة ضيفها ومدعوتها . فناداها جمال باشا ، وتقدمت السيدة ليندا على رؤوس أصابع قدميها ووقفت أمامه.

رقيقة برقة الوردة

ـ سيدة ليندا ، أشكرك جداً ، لقد حملتك عناء ومشقة استضافتي ، فتكرمت وأقمت هذه الحفلة بشكل رائع ، وفوق ذلك عرفتني بالآنسة سارة الرقيقة برقة الوردة ، وإني جداً شاكراً لك هذا ، كانت سارة في تلك الأثناء ، وكأنها لم تكن تسمع ما يدور من حديث بين جمال باشا والسيدة ليندا ، ترقب بريق موج البحر الذي يتلألأ تحت ضوء القمر .

فانحنى جمال باشا واقترب من أذن السيدة ليندا صاحبة المنزل وقال لها :

ـ قولي لي بحق الله ، أين وجدتِ هذه الوردة الرقيقة .

ـ لقد تعرفت على ابن أختي ألفريد ، وهو الذي أحضرها إلى هذا الحفل .

ـ ألفريد ... ؟ آه من ألفريد هذا ؟ ... هل هو هنا ؟ هلا ناديته لي من فضلك ؟

فرافق الباشا السيدة ليندا متبادلاً معها حديثاً طريفاً . وبقيت سارة في الشرفة مستسلمة لأحلامها ، كان الجنرال يريد معرفة المزيد عن سارة، وهذا ما دعاه لمرافقة السيدة ليندا إلى صالون المنزل حيث يسهر المدعوون .

احمرت وجنتا الشاب

ولم تمض دقيقتان حتى تم إحضار الشاب الفريد إلى جمال باشا ، والذي كان يتمتع بهذه الليلة الجميلة وسط الحديقة ، فعندما بلغوه بأن الباشا يود رؤيته ، أسرع يصعد الدرج أربعاً أربعاً ، حتى وصل أمام الباشا وقال له :

ـ لقد طلبت رؤيتي يا سعادة الباشا .

فابتسم الباشا له ، ثم مسح حاجبيه ولحيته وقال له :

ـ ألفريد ، متى ستتخلى عن هذه الحركات الصبيانية ، قل لي .

واحمرّت وجنتا الشاب ، الذي ازداد خجلاً وحرجاً .

ـ أنا آسف يا سعادة الباشا وأرجو أن لاأكون قد ارتكبت حماقة ما .

ـ كلا يا عزيزي ، لاتوجد حماقة ولا غيرها ، أصلاً أنت لست الذي يرتكب حماقات ، إنك شاب وسيم وهذا ما يجعل الفتيات يتهافتون عليك ويتشوقون للتعرف عليك ، ولكنهنّ رغم ملاحقتهن لك ، لايستطعن ادراكك والحصول عليك .

ـ رعاك الله يا سعادة الباشا ، لو أنني جدلاً وافقت على ما ذكرته

بحق الفتيات بشأني ، فإنني أقبل منك وصفي بالشاب الذكي .

ـ كلا ، لقد كنت ذكياً فعلاً يا ألفريد . ولكن لا أهمية لذلك ، قل لي الآن ... هذه الفتاة الجميلة سارة ، أين وجدتها ؟

استعراض المفاتن

وتبيّن للشاب كل شيء ، وعرف سبب استدعاء الباشا له ، فالأمريتعلق بسارة التي يبدو أنها استطاعت أن تأسره هو الآخر . قال في نفسه : عل كل حال ما من انسان، عند رؤيته لهذه الفتاة ، التي هي عبارة عن كتلة من المفاتن والجمال ، إلا ووقع في هواها وليس من السهل عليه بعد ذلك ، أن يبتعد عنها . فقال للباشا :

ـ سعادة الباشا ، بادىء الأمر أود قول هذا لكم ، لاتوجد أية علاقة جدية بيني وبين سارة ، فهي صديقة نور الدين بك .

ـ نور الدين بك ، حسناً ، من هو هذا النور الدين بك ؟

ـ نور الدين بك ، هو بك وباشا أيضاً ياسعادة الباشا .

ـ نعم ، تذكرت ، اشكرك على ذلك .

فصافحه الشاب ، وابتعد عنه بلباقة واحترام .

فاقترب الباشا من السيدة ليندا ، التي كانت بانتظار أوامره ، وقال لها : سيدتي ، رغم استمتاعي بروعة الطبيعة وهذه الليلة الساحرة فإنني أود التوجه إلى الكوخ الموجود في حديقتكم والنوم فيه ، ترى هل هذا ممكن .

ـ آه يا سعادة الباشا ، إنكم في غاية اللطف ، إنه لشرف عظيم لنا أن نلبي لكم طلبكم ، لو سمحتم ، سأذهب لتهيئة الكوخ وجعله لائقاً لمقامكم .

ـ أشكرك جداً .

الجنرال في ذروة النشوة

لقد سبق لجمال باشا أن مكث عدة مرات في كوخ السيد ميشيل سرسق . فلم يكن يأوي إلى أي فندق عند وصوله إلى بيروت قادماً من الشام، وكان ينتقل منه أحياناً إلى منزل عزمي بك مدير شرطة استنبول المشهور ومناصر الاتحاديين .

وبعد أن توارت السيدة ليندا عن الأنظار ، عاد جمال باشا إلى الشرفة ، ووقفت سارة على قدميها احتراماً ، عندما شاهدته قادماً .

ـ آنسة سارة ، هل تقبلين دعوتي لكِ بأن تكوني ضيفتي الليلة في كوخ الحديقة .

ـ إنه لشرف عظيم أن ألبي طلبكم هذا يا سعادة الباشا .

كان شعر الباشا منكوشاً والتوتر واضحاً عليه وهو يهمس بصوت خافت :

ـ إني ذاهب الآن ، سوف يرافقك الخدم إلى هناك .

تسارع المسرات

نزل قائد الجيش الرابع الدرج برفقة حاشيته ، فتكلم معهم وأعطاهم أوامره . كانت الحديقة تعج بالمدعوين المستمتعين بليلتهم والكل قد بلغ نشوة الخمر ، فركب الباشا سيارته وابتعد عن المنزل وسط هتاف الضيوف وصيحاتهم :

يعيش جمال باشا ...

يعيش جمال باشا ...

يحيا جمال باشا ...

فرفع الباشا يده الحاملة لعصاه وحيا الحضور ، واتجه نحو الكوخ الذي لايبعد كثيراً عن المنزل .

كانت السيدة ليندا كعادتها دائماً ، قد أعدت الكوخ وجعلته في أحسن مظهر . فدخل الباشا إلى غرفة النوم ، وألقى نظرة عليها ثم خرج إلى الشرفة الصغيرة وأشار للخدم بيده أن يحضروا له كأساً من الخمر . كانت روحه تائهة وشبه مخدرة ، ومضى وهو يحتسي شرابه يرتب أفكاره : غداً سيجتمع مع أحد كبار الشخصيات الالمانية لبحث موضوع هام وضروري ، فالمساعي الأولية بشأن قناة السويس لم تكن قد أسفرت عن نتائج مرضية ولابد من إعداد أمثل للمساعي القادمة ، إلى جانب كل هذه الاهتمامات ثمة أمور عديدة كانت تنتظر منه دراستها واقرارها ...

عند استعراضه لكل هذه المواضيع ، شعر أنها أصبحت من الماضي ، واعادته بذلك إلى الأيام الأولى للحرب والانتصارات التي تحققت ، ثم توالت أمامه الأحداث بخطى سريعة ، بدءاً من اندلاع الحرب العالمية، مروراً بتورط ومشاركة الإمبراطورية العثمانية في هذه الحرب واعلان التمرد ، وكأنها شريط سينمائي يعرض أمامه ، ثم تداخلت أفكاره وذكرياته ، فتذكر طلعت باشا وأنور باشا اللذين ورطا الإمبراطورية في هذه الحرب دون اعلامه فاشتعلت نار الغيظ في نفسه .

ودارت في رأسه عدة تساؤلات دون أن يجد لها جواباً مقنعاً . ولكن ما حدث قد حدث وسوف أستمر في تمثيل دور المثالي وأحتفظ بصداقتي لهما حتى النهاية ، قالها في نفسه ، وقرر أن يضحي بمشاعره هذه لخدمة وانقاذ وطنه لفرط محبته له .

الكأس الفارغة

دفع الباشا كأسه الفارغ جانباً ، ووقف وقفة رجل مؤمن عند مقدمة الشرفة رافعاً كفيه إلى السماء وقال :

اللهم ، يا كريم ويا جبار ، احم وطننا من أعدائه ، وأخرجه سالماً

منتصراً من هذه الحرب ، الجهاد منا والنصر منك ...

وتوقف قليلاً ثم تابع يقول :

امنح يارب العالمين قليلاً من العقل لأنور وطلعت ...

الجهاد علينا والنصر من عندك ... فتردد في اكال دعائه لها ، حيث لم يجد ضرورة لذلك ، وتابع بصوت منخفض دعاءه حتى انتهى منه .

كان الليل قد انتصف ، فدخل الغرفة وخلع سترته العسكرية وأعطاها للخدم ، متسائلاً

ـ من المفروض أن يأتي ضيفي ، هل قدم ضيفي ؟

ـ لقد حضر يا سعادة الباشا ودخل غرفة النوم .

عادة الخدم الصغار

لقد جرت العادة في مثل هذه الظروف ، في سوريا ولبنان أن يقول الخادم الصغير للرجل الزبون ، « الماء جاهز » فيصبح مفهوماً لدى الرجل السائل أن مضيفته جاهزة لاستقباله.استعاد جمال باشا هيبته ومشى بضعة خطوات باتجاه غرفة النوم وفتح الباب . لقد كانت سارة متمددة ، شبه عارية، فوق السرير المزخرف والمغطى بغطاء مزين ناعم ، مستعدة كما وعدت لتلبية كل أوامر سيدها الباشا .

لقد كان التوتر واضحاً على شفاه الشابة الجميلة ، أما القائد الرابط الجأش ، فرغم قوته ، كان يشعر بشيء من الرجفة في يديه ، فأوى إلى الفراش وأمضيا تلك الليلة سوياً .

في ذلك اليوم ، نهض الباشا باكراً ، وجلس مع سارة وجهاً لوجه يتناولان القهوة الصباحية ، كانت سارة حزينة بعض الشيء ، تريد النظر في عيون الباشا ، وكأنها تستجديه الشفقة والرحمة .

وبعد أن تأملها الباشا لفترة من الوقت سألها قائلاً :

ـ كم يوماً ستبقين في بيروت ؟
ـ المدة التي يسمح بها سعادة الباشا .
ـ سأعود إلى هنا في غضون ثلاثة أيام ...

سارة كانت تبكي

كانت سارة صامتة ، غير أنها لم تستطع أن تمنع دمعها من أن يسيل على وجنتيها ثم يسقط على غطاء الطاولة الأبيض .

ـ لمَ تبكين يا سارة ؟ سأل الباشا

فرفعت سارة رأسها قليلاً وأجابته قائلةً :

ـ لاشيء ، إني أبكي من شدة الفرح يا سعادة الباشا كنت أسمعهم يقولون إن الفرح الشديد يدفع إلى البكاء ، لكني لم أصدقهم ، أما اليوم فأجد رغبة شديدة في البكاء من شدة الفرح ومن فرط سعادتي .

يوه ! قال الباشا ، أنا لاأحب البكاء أبداً ، ربما لأنني رجل قاسٍ ، لاأعرف للبكاء معنى .

ـ كلا ، أجابت سارة معارضة كلامه ، أنت قاس ؟ كلا ... كلا ... أنت أرق انسان في هذه الدنيا ، إن لديك أحنّ قلب يحمله إنسان . إنك رجل يحب وطنه كثيراً إنك رجل عسكري ممتاز .

لقد شنقت العديد من الرجال

تأملها الباشا قليلاً ثم قال لها بعد أن أخذ نفساً عميقاً ، وأمعن النظر بعينيه في زاوية الغرفة دون أن يحركها :

« سارة ، لقد شنقت العديد من الرجال » .

فقاطعته سارة قائلةً :

إن من خانوك ، هم خونة الوطن ، ولابد من شنقهم ، وهذا ليس

قسوة ولا عدم رحمة ، إنه وطنية بحد ذاته .

عند سماعه هذه الأقوال من سارة، أبدى الباشا ارتياحه وطمأنينته. لقد تعرض مؤخراً لانتقادات عديدة ، بعد أن شنق في بيروت والشام بعض الرجال من الخونة .

ولكن لا ... لا ... لقد كان محقاً في شنقهم . إنهم يستحقون ذلك لأنهم كانوا خونة . وليس ما يدعوه للقلق بهذا الشأن هكذا كان يفكر الباشا في نفسه . لقد كانوا عرباً ، ولكنهم كانوا مسلمين وما كان يجب عليهم أن يخونوا الدولة العثمانية .

هل يمكن البقاء هنا ثلاثة أيام ؟

ونهض جمال باشا فجأة قائلاً :

ـ سوف نتحدث في هذا الموضوع لاحقاً ، إني ذاهب ولن أعود حتى المساء إن كنتِ ترغبين الذهاب إلى أي مكان ، فيمكنك استخدام سيارتي لإيصالك إلى المكان الذي ترغبين الذهاب إليه .

وكانت سارة قد نهضت أيضاً ، وسألته قائلة :

ـ إن كنت لاأسبب ازعاجاً لسعادة الباشا ، هل يمكنني البقاء هنا ثلاثة أيام ؟

ـ طبعاً ـ أجاب الباشا ـ إن كان لايضايقك ، يمكنك البقاء ثم تابع يقول سائلاً اياها :

لكن ، ألا ترغبين بالذهاب إلى أي مكان ؟

فأجابته قائلةً : كلا ... يا سعادة الباشا . سوف أنتظرك وسط هذه الجدران الأربعة .

ـ حسناً يا سارة ، أجاب الباشا ، إن كانت تلك هي رغبتك فأنتِ في بيتك ، تصرفي كما تشائين . وقبّل الباشا سارة من وجنتيها ثم ركب سيارته

ومضى مبتعداً عن الكوخ .

توجه جمال باشا مباشرة لحضور اجتماعه مع الشخصية الالمانية المهمة، في محادثات استمرت حتى المساء . ثم قام بإعداد برنامج رحلته إلى قناة السويس ووضع الخطط اللازمة للإمداد والتموين أثناء غزو بور سعيد وغزة وسيناء مع مطالعة الوثائق المتعلقة بكيفية إصدار الأوامر للقيادات المشتركة التركية والالمانية الموجودة في القدس وحيفا .

لقد كان ضرورياً دراسة وضع قناة السويس على ضوء الاتفاق الثلاثي الالماني ـ النمساوي ـ الايطالي مع القادة في هذه البلاد وخاصة مع رئيس القادة الجنرال سيليندوف .

وكان أنور باشا ، يبحث الأمر نفسه مع المارشال الالماني ليمان فون ساندرز والمارشال فالكن .

وكان قد سبق للمارشال فان دير جولش أن بحث هذا الموضوع مع رئيس المجلس العثماني فوزي تشاقماق . ومع بداية هذه المباحثات كانت بلغاريا ورومانيا ، بناءً على الاتفاق المشترك المعقود بينهما ، تعدان لانزال ضربة مؤلمة للروس في أوكرانيا ، محققة خسائر فادحة بالأرواح والعتاد .

وفي هذه الأثناء ، كان جمال باشا يعمل ، بالتنسيق مع المجلس العثماني، على تحقيق تنفيذ هذه الخطة وهذه الضربة على أرض الواقع .

فبعد ثلاثة أيام من اللقاءات والمباحثات المكثفة ، تم اتخاذ قرار بذهاب جمال باشا إلى القدس ، وطلب من كافة قواد الجيوش العودة إلى رأس أعمالهم ، وملازمة جيوشهم كل حسب منطقته .

خلال هذه الأيام الثلاثة كان جمال باشا يتردد ليلاً إلى الكوخ في حديقة منزل السيد سرسق ويقضي ليلته فيه بصحبة سارة التي كانت تنتظره بفارغ الصبر . وفي إحدى الليالي جلس جمال باشا وجهاً لوجه مع سارة يحتسي كأسه المليء بالشراب ، وبدون أن يعير انتباهاً لكلامه لفظ . عبارة

« هؤلاء الحمقى » وهو يتحدث عن الالمان وكأنه يريد التعبير عن استيائه من ورود كلمة الالمان على لسانه .

جرأة سارة

كانت لهذه الكلمة معانٍ كثيرة عند سارة ، إذ أنها كانت تعرف مسبقاً عدم ارتياح جمال باشا للالمان واشمئزازه منهم . ولكن لفظ هذه الكلمة صراحة من قبل الباشا ، أعطى لسارة الجرأة في الحديث معه حول هذه النقطة بالذات فقالت له :

ـ سيدي الباشا ، لقد تجولتُ في كل أرجاء أوروبا . في انكلترا ، وفرنسا ، ومكثت مدة طويلة في ألمانيا . ولما كنت أتكلم الفرنسية والالمانية والايطالية والعبرية والعربية بشكل جيد جداً . فقد استطعت التعرف على هذه الشعوب عن كثب بفضل معرفتي التحدث بلغتهم . ولكنني ، والحق يقال، لم أرَ أحمق وأقبح وأكثر فظاظة من الشعب الالماني .

وأنكم بلا شك أعلم مني بذلك ، وتعرفونهم أكثر مني ، فلقد مكثتُ مدة لابأس بها في مدينة برلين بالجامعة ، تعرفت وعملت مع عدد من الاساتذة والبروفسورية الالمان ، ولاحظت أن حتى علمهم غليظ وسمج فهم يؤمنون بأنه لايوجد شعب على وجه الأرض ، سوى الشعب الالماني .

جمال باشا يضحك بأسى وحرقة

فهز جمال باشا رأسه وقال : صدقتِ يا سارة .

فتابعت سارة قائلة :

سعادة الباشا ، رغم علمي بأنني أتجاوز حدودي ولكني سأقول لك شيئاً أرجو سماعه مني :

هل تعتقد بأنه ، بعد فوز الالمان في هذه الحرب ، ستسلم

الإمبراطورية العثمانية من شرهم ؟

إن قناعتي هي أن الالمان ، بمجرد أن تلوح لهم بوادر الانتصار ، فسيضربون الدولة العثمانية أول ما يضربون .

إن حلم الالمان هو إقامة إمبراطورية المانية من بحر الشمال وحتى المحيط الهندي، ولما كانت الإمبراطورية العثمانية موجودة في بعض أجزاء هذه المنطقة فسيعاملها الالمان وكأنها إحدى مستعمراتهم .

ضحك جمال باشا ضحكة ملؤها الأسى والحُرقة :

ـ من أين لكِ كل هذه المعلومات يا سارة ، هل هذه المعلومات هي جزء من علم النبات الذي تدرسينه ؟

فاحمر وجه سارة وقالت في نفسها ، هل يمكن أن يكون الباشا قد شك في أمر ما منّي ، أم أنني تعديت حدودي وتماديت في كلامي ؟

لقد كانت لنابليون أيضاً أحلامه

وجاء صوت جمال باشا ليهدىء من توتر أعصاب سارة ، حين قال لها :

سارة يا صغيرتي ... إن جميع الشعوب وجميع القادة يعيشون في أحلام كبيرة . فنابليون أيضاً كانت له أحلامه ، فلا عجب في الأمر . وفي أيامنا هذه، أتعتقدين أن الالمان وحدهم يحلمون ؟ أليست لنا أحلامنا أيضاً ؟ إن حلم والينا أنور باشا يبدأ من بلاد البلقان وحتى أسيا الوسطى ، وحلمه يغطي حتى الأراضي الالمانية .

فما بالك بالأحلام الانكليزية ؟ انكلترا التي لا تكاد ترى نور الشمس تطمع وتحلم في أن تصل إلى بلاد الهند . أما حلم فرنسا فليس أقل من حلم الانكليز. وكأنهم لم يكتفوا بأفريقيا والهند الصينية ، فهم الآن يحلمون بموطىء قدم لهم في الشرق الأوسط ، في سوريا ولبنان تحديداً .

إنني أحاول جاهداً إفهام هؤلاء الحمقى العرب ، هؤلاء الجُهَّلُ ، أن لاينخدعوا بمخططات الفرنسيين والانكليز ، فهؤلاء لايعملون من أجل استقلالهم بل يريدون استعمارهم واستغلالهم وجعلهم دمى لهم .

كلهم وطنيون ، كلهم اصلاحيون والكل لا يفهمني .

لقد وعدتهم ، بأن أجري بعد انتهاء هذه الحرب ، اصلاحاً كبيراً لهم ، وسوف أمنحهم السلطات ولكن للأسف كل يوم أكتشف خيانة جديدة منهم ضد الإمبراطورية .

يجب عليهم أن يفهموني

قامت سارة بملء كأس جمال باشا ثم قالت له :

ـ لاتقلق يا سعادة الباشا ، فهذه أمور تزول بإذن الله المهم ، أنكم قائد ممتاز ، والعرب يرتعشون منكم ، حتى في غيابكم . فقال الباشا :

إن خوفهم منّي ليس كافياً ، عليهم أن يطيعوني ويفهموني .

فأجابت سارة : سعادة الباشا ، أليس ممكناً أن يكون لأمير مكة الشريف حسين الذي يتمتع بطاعة العرب له ، ضلعٌ في موضوع خيانة العرب هذه ؟

ـ لاأعتقد ذلك ، أجاب الباشا ، إذ أن التقدير الذي تمنحه الدولة العثمانية لمدينة مقدسة مثل مكة وأميرها ، يستبعد مثل هذا الاحتمال . فالشريف حسين يبدي لنا دائماً الحب والاحترام .

كا أن ابنه فيصل موجود حالياً بالشام في ضيافتي . لاأعتقد بأن يأتينا ضرر من جهتهم .

ما رأيكم بنا ؟

ـ ما رأيكم بالموسويين ـ يا سعادة الباشا ؟ سألت سارة .

ـ بعد اليوم عندما أذكر الموسويين، فلن يأتي إلى ذهني سوى سارة.
ـ أشكرك يا سعادة الباشا ، لابد انكم تقدرون وتوقنون مدى شوق واجتهاد الموسويين لكسب صداقة وثقة الإمبراطورية العثمانية .
ـ حقاً ، أجاب الباشا ، إنكم شعب تحبون العيش بمفردكم دون التدخل بأمور غيركم . ولكن لايمكنني أن أنكر ان هناك من يدفعكم للتحرك . فحركتكم الصهيونية ورغبتها في انشاء دولة يهودية على أراضي الإمبراطورية العثمانية أمر يقلقني ، هل تعتقدين بأن هذا أمر مقبول ؟

ثم تمتم قائلاً : أناس يعيشون منذ آلاف السنين بدون وطن ولا دولة يريدون أن يأتوا ويقيموا دولة يهودية ! أليس هذا أيضاً حلماً بحد ذاته ، ... إن اليهود اليوم يقيمون في الأراضي العثمانية الشاسعة ويعيشون في كنفها ويعملون في التجارة ويكسبون أموالاً طائلة !

هل تعتقدين أنهم مستعدون للقدوم إلى فلسطين لبناء دولة لهم وترك تجارتهم هذه ؟ اليهودي ليس رجل حرب ، إنه رجل تجارة .
ـ إنك تقول الحق يا سعادة الباشا .

قاطع صبي محادثتها في هذه الليلة الصافية والجميلة ، برسالة يحملها للباشا مفادها أن القائد كنعان بك يودّ مقابلته .

نزل الباشا إلى الطابق السفلي ، فحياه كنعان بك الذي كان بانتظاره .
ـ خيراً إن شاء الله يا يوزباشي ، قال الباشا .

فأجابه : سيدي الباشا ، لقد جلبت لكم تقريراً عن سارة، بناءً على أوامركم :

قبل يوم ، كان الباشا قد طلب من كنعان بك ، معلومات حول سارة . وبما أن التحقيقات قد انتهت ، فقد قام كنعان بك بإعداد التقرير خطياً للباشا .

هل هناك شيء مهم فيه ، يا يوزباشي ؟

ـ كلا يا سعادة الباشا ، ولكني أود أن ألفت نظركم إلى نقطتين فقط .
ـ وما هما ، سأل الباشا
ـ لقد كتبت لكم ذلك في تقريري ، يا سيدي الباشا .
فأخذ الباشا المغلف المختوم من كنعان بك ، ثم قال له :
ـ حسناً يا كنعان بك ، أشكرك كثيراً .
فحيّا كنعان بك الباشا ، ثم خرج بخطى موزونة إلى خارج الكوخ .
وتوجه جمال باشا مباشرة إلى مكتبه وهناك فتح المغلق .

التقرير لصالح سارة

كان التقرير عن سارة بالشكل التالي :
سعادة جمال باشا
قائد الجيش الرابع

بناءً على أوامركم الشفهية ، فلقد أجرينا التحريات اللازمة عن سارة أرونسون وعائلتها ، والمعلومات المذكورة أدناه مأخوذة من دائرة الأحوال الشخصية والمدنية الحكومية .

والد سارة السيد جاك أرونسون قدم إلى منطقة زمارين في فلسطين واستقر فيها عام ١٨٨٩ .

للسيد جاك أرونسون خمسة أولاد يستحقون كل دعم وتقدير من الدولة العثمانية وهم : آهارون أرونسون ولد عام ١٨٨٦ و الكسي أرونسون ١٨٨٨ وسام أرونسون ١٨٩١ وسارة أرونسون ١٨٩٣ وريبيكا أرونسون ١٨٩٧ .

أكبرهم سناً ، الشاب أهارون أرونسون ، هو عالم نبات ، ليس في فلسطين فحسب بل على الصعيد العالمي أيضاً . فهو أول مكتشف لوسائل زيادة انتاج الحبوب على اختلاف أنواعها . ويملك مختبراً واسعاً وكبيراً في منطقة عتليت في فلسطين .

إن عائلة أرونسون تتمتع باحترام وحب الكثير من العائلات ، مسلمة

كانت أو مسيحية أو يهودية . وحتى الساعة، لم تسجل لهم أية نقطة سيئة في سلوكهم العام ، سوى أنه مع اندلاع الحرب اختفى آهارون والكسي من البلاد، والأغلب أنهما رحلا إلى انكلترا ، حسب المعلومات التي بحوزتنا .

وظيفة في الجيش الانكليزي

قرأ جمال باشا التقرير في لحظات ولم يجد شيئاً ملفتاً للنظر أو مثيراً للريبة ، فاطمأن إلى أنه يمكنه الاعتماد على سارة ، ولايمكن أن يصيبه أي ضرر منها . أصلاً هي لاتشبه فتاة مؤذية ، فهي آية الطيب ، آية الجمال ، آية البراءة .

وتذكر جمال باشا ما قاله كنعان بك، بأن هناك نقطتين أشار إليهما في تقريره ، لابد أنه كان يقصد موضوع أخوي سارة آهارون والكسي ، اللذين انضما للعمل في الجيش الانكليزي . لكن الأمر ليس بتلك الخطورة التي أعتقدها فالعديد من الشبان المسلمين انضموا للعمل في صفوف الجيش الانكليزي ، وليس دخول شابين موسويين إلى الجيش الانكليزي موضع اهتمام وجدل .

لدي سؤال لكِ

رمى جمال باشا التقرير على طاولة مكتبه ، ثم ذهب إلى غرفة الطعام حيث كانت سارة جالسة فقال لها :

« أرجو أن تعذريني ، لقد تركتكِ وحدكِ قليلاً .

ـ أرجوك يا سيدي الباشا ، فأنا لاأريد أن أكون مانعاً في طريق عملكم . أجابت سارة .

فقال الباشا : سارة ، لدي سؤال لكِ .

ـ تفضلوا يا سعادة الباشا ، أنا رهن اشارتكم .

ـ إن لكِ أخوين الكسي وأهارون ، أين هما الآن ؟

- إنهما في انكلترا يا سعادة الباشا ، بالتحديد في مدينة لندن ، فأهارون يتابع دراسته في الجامعة أما الكسي ، فهو مدرّس ويقوم حالياً بدراسات وأبحاث حول الكتاب المقدس وحول الموسوية .

- هل ذهبا قبل الحرب ؟

- كلا يا سعادة الباشا ، فما أن اندلعت الحرب ، حتى رحلا من البلاد . فلم يكن هناك أفضل من أن يتابعا دراستهما هناك . فهنا ، وبأية حال ، بلاد حرب .

- حسناً ، لَمَ لم ترافقيهما يا سارة ؟

- لقد قررت أن أستمر بأبحاثي هنا .

- حسناً جداً ، وهل أنتِ مرتاحة في أبحاثك هنا ؟

- الحقيقة أنني أتدبر أمري في المختبر الذي تركه أهارون في عتليت ولكنني لاأستطيع الادعاء بأنني مرتاحة في أبحاثي .

- لماذا ؟ هل هناك عوائق مالية ؟

- لا ، لا ، أجابت سارة ، بالعكس ، إن الأموال اللازمة لاجراء أبحاثي موجودة بوفرة ، ولكن الأمر يتعلق بموضوع تحصيلي العلمي .

- وهل هناك ما نستطيع أن نفعله بهذا الصدد .

- سيدي الباشا ، لو تكرمتم بمنحي تصريحاً بالتجول في مناطق محظورة ، لضرورة استمرار أبحاثي ، كالسواحل والمناطق المهجورة ، لكي أتمكن من إتمام دراستي وإقامة تجاربي ، أكون معترفة لكم بالجميل مدى العمر .

سوف تسخر كل التسهيلات

فأجاب الباشا بجدية واضحة :

- طبعاً يا سارة طبعاً ...

يجب أن يعلم الناس الذين يعيشون على هذه الأراضي أن لهم مطلق الحرية في التجول فيها ، سوف أعمل على إزالة كل العقبات التي تعترض بحثك العلمي .

ـ سلمت يا سيدي الباشا . وأنا بدوري سأقوم بتحويل هذه الأراضي الجرداء إلى ساحة خضراء . وسيجني الناس محصولاً وافراً ويدعون لكم .

ـ حسناً يا سارة ، قبل سفري غداً إلى القدس ، سأقوم بترتيب ما يلزم لكِ ، وسأعد لكِ كل الأوراق اللازمة لتسهيل عملكِ واستمرار أبحاثك .

ـ أشكرك يا سعادة الباشا .

جمال باشا مسرور

وأمضينا تلك الليلة سوية . فلقد مضت ثلاث ليالٍ وجمال باشا برفقة سارة مسروراً وسعيداً . وكانت سارة تشاركه هذه السعادة . فبجانب سارة ، كان جمال باشا ينسى مآسي ومضايقات الحرب ، وحماقة الألمان ، وخيانة العرب ، وانتقادات طلعت له وملاحقة وتدخل أنور في شؤونه .

فكيف يشكر سارة على كل ذلك ؟

فعلاوة على كل ما وجده فيها ، فهي لاتشبه أياً من الفتيات اللواتي تعرف عليهنّ . فهي ذكية وشابة وجميلة وغير مؤذية إطلاقاً .

لقد كرّست نفسها للعلم ، إنها إنسانة معصومة .

لو أمكنه لاصطحبها معه غداً صباحاً إلى القدس ، ولكن للأسف ، ففي مدينة القدس أمور كثيرة يجب القيام بها ، ومن المحتمل أن يقضي ليلته على الجبهة . فلقد كان عليه أن يزور جبهة سيناء وحيفا وغزة ، وأن يتفقدها بكل دقة شبراً شبراً كما كان عليه أن يدرس كل الخطط العسكرية مع قواد القوات في تلك الجبهات .

ـ سارة ، قال لها ، سوف يحضر كنعان بك لك كل الأوراق اللازمة والضرورية لعملكِ . وأرجوكِ إذا لزمك أي أمر أن تعلميني بذلك . فيمكنك مراجعة أي مركز عسكري وتطلعيني على أية عقبات تعترضك ، ويمكنك العمل بحرية على كافة الأراضي العثمانية دون استثناء .

ـ سلمت يا سعادة الباشا ، سوف أرحل غداً إلى الشام .

ـ حسناً ، أجاب الباشا ، يمكنك مقابلة علي فؤاد باشا قائد المنطقة،

وسوف أعلمه بقدومك ليقوم بمساعدتك وتقديم كافة التسهيلات لكِ.

الحظ حليف سارة

انحنت سارة أمام عظمة عطاء الباشا ، وشعرت بأنها صغيرة جداً أمامه ، فترقرقت عيناها ، وقبلت يدي الباشا قائلة :

ـ سلمتَ يا سعادة الباشا ، سلمتَ ...

فمسّد الباشا شعر سارة للمرة الأخيرة وقبلها من خديها ، ثم رحل .

لقد كانت سارة في أيدٍ أمينة وساهرة . فقبل أن يركب قطاره متجهاً إلى مدينة القدس ، أصدر قائد الجيش الرابع ، أوامره بإعطاء سارة تصريحاً بالتجول في كافة الأراضي العثمانية ، أي سوريا ولبنان وفلسطين بكامل الحرية اللازمة، فجهزت الأوراق اللازمة لذلك ومن ناحية أخرى قام الباشا بالاتصال مع علي فؤاد باشا وأعطاه التعليمات اللازمة للاستعداد لمقابلة سارة بشكل لائق ومفيد ووضع كل إمكانياته تحت تصرفها .

وفعلاً ، مع حلول ظهر ذلك اليوم ، قدم كنعان بك لزيارة سارة في منزلها حاملاً حقيبته وبداخلهالأوراق اللازمة فقابلها قائلاً :

ـ آنسة ، بناءً على أوامر سعادة الباشا ، أحضرت لكِ الأوراق والتصاريح التي طلبتها . غير أنه لم يُذكر فيها أسماء مرافقيك ومساعديك في تجوالكِ . لذلك أرجو التكرم بإملائها .

حب ورعاية أكبر من حب ورعاية الام

حظيت سارة برعاية من كنعان بك تفوق رعاية والدتها التي ولدتها ، فقالت في نفسها :

كم هم أصفياء وأنقياء هؤلاء الأتراك ، هل يمكن للمرء أن يحصل على كل هذه المساعدة منهم ؟

ودون أن تظهر انفعالها هذا ، ابتسمت لليوزباشي وقالت : اشكرك يا سيد يوزباشي ...

وبعد أن غادر كنعان باشا الكوخ ، وكما اعتادت عند قدومها إلى مدينة بيروت ، توجهت إلى فندق دوتشهيرهوف ، فلقد كانت نزيلة فيه قبل قدومها إلى سهرة السيد سرسق لتنزل في ضيافته .

كانت بعض حاجياتها ما زالت موجودة في الفندق الذي كان مقراً للنزلاء الالمان .

ففي كل مساء ، يأتي العديد منهم إليه ، لاحتساء البيرة ، والشامبانيا والويسكي . ويجتمع الفقراء طويلاً أمام هذا الفندق ليلتقطوا بقايا ما يرميه الالمان من مأكولات عند خروجهم منه .

ففي هذه الأيام كانت المجاعات تسود البلاد . حتى في الجبهات العسكرية كان بعض الجنود يبحثون عما يأكلونه في كثير من الأحيان . حتى انهم كانوا يتقاسمون أحياناً لحم قط وكأنهم يتقاسمون لحم خروف .

الجوع للاتراك

كان الضباط الالمان ، في فندق دوتشهيرهوف ، ينعمون بوفرة الخبز والمأكولات بقدر ما ينعمون بالمشروبات من ويسكي وغيره ، ولم يكونوا يشعرون بأية ضائقة من فقدانها ، وفوق ذلك ، فإنهم كانوا ينعمون حتى الصباح بصحبة الحسناوات بليالٍ حالمة ، وبموسيقى ساحرة ، ورقصات ممتعة.

وكأن الالمان لم يكونوا في حالة حرب ، فهم يأتون من مختلف الأرجاء، يملؤون الفندق كل ليلة ويقيمون الحفلات والليالي الملاح بلا رقيب ولا حسيب .

لقد كان لسارة ، العديد من الضباط المعارف ، الذين تلتقي بهم في الفندق ، وتصاحبهم وتتسلى معهم .

فبعد أن جمعت حاجياتها من فندق دوتشهيرهوف ، بمساعدة أحد أفراد الشرطة الذي خصصه كنعان بك لخدمتها ، توجهت إلى محطة القطار واشترت تذكرة إلى الشام .

كان في القطار العديد من المدنيين والعسكريين ، وتمكنت سارة من خلال هذا التجمّع وخلال رحلتها هذه ، من الوقوف على الأوضاع العسكرية

والمدنية في شرق وغرب البلاد ، كما استطاعت أن تكشف معنويات الجنود وتحركاتهم على امتداد الأراضي العثمانية .

حارة اليهود

نزلت سارة في فندق فيكتوريا عند وصولها إلى الشام ، وكان الفندق مليئاً بأجمل الفتيات اليهوديات في العالم ، اللواتي كن يتسلين مع الضباط الأتراك والالمان ، وكأنهن يساهمن في رفع معنوياتهم بعد عودتهم من جبهات القتال .

وحقيقة الأمر أن هذا التجمع اليهودي لم يكن لولا توافد هؤلاء الضباط الالمان والأتراك إلى هذا الفندق .

من بين الحسناوات اليهوديات العاملات في هذا الفندق ، حسناء ، كانت الألسن تتحدث عن جمالها الفتّان اسمها سيمون ، لم تكد تسمع بقدوم سارة ، حتى أسرعت بزيارتها .

تبادلت الحسناوتان حديثاً مطولاً ثم درستا الخطط التي تفكران في تنفيذها .

كان عشيق الآنسة سيمون ، ضابط شاب ، من المقربين لقائد الجيش الرابع ، جمال باشا .

المخططات بحوزتها

أطلعت سارة ، الآنسة سيمون ، على الوضع في بيروت ، وعلى كل ما علمت به في طريقها إلى الشام وهي في القطار ، من أحداث وتطورات . ثم سلمتها خطط حملة قناة السويس التي استطاعت بحذاقة ومهارة فائقتين أن تحصل على نسخ منها والتي ينوي جمال باشا اقتراحها وتنفيذها بعد أخذ موافقة حكومته ، وعلى الفور ، أخذت سيمون هذه الخطط وأرسلتها إلى متجر المصور كامبياس ، في أول سوق الحميدية .

وفي اليوم نفسه ، كانت التقارير حول تحركات وخطط القوات الأتراك

وتحوي مسائل موت أو حياة ، قد وصلت إلى مركز حيفا في فلسطين ومنه إلى الانكليز .

في هذه الأثناء ، كان جمال باشا يجتمع مع كافة القواد في مدينة القدس، ويتدارسون خطط حملة السويس بكل دقة وتفصيل ، في حين كانت قيادة الأركان الالمانية مجتمعة مع الضباط النمساويين ، يجرون محادثات مطولة. لقد كان جمال باشا يعتقد أنه بحملة عسكرية واحدة سيتمكن من قذف القوات الفرنسية والانكليزية بعيداً عن قناة السويس ، حتى أنه ذهب إلى أبعد من ذلك في تطلعاته ، فلقد كان يفكر في احتلال مصر في وقت قريب بعد هذه الحملة . ذلك لأن سلطان الإمبراطورية العثمانية ، خليفة الاسلام والمسلمين السلطان محمد رشاد ، كان قد أعلن الجهاد للمسلمين . وكان جمال باشا يعتقد بأن المسلمين جميعاً سيلبون نداء الجهاد هذا .

وفي الوقت نفسه ، كان جمال باشا ، مثله مثل أنور وطلعت باشا ، ينتظر بفارغ الصبر قدوم اليوم الذي يهب فيه المسلمون من المشرق والمغرب من مصر ، ضد الانكليز والفرنسيين .

فبتحرك القوات العثمانية نحو قناة السويس وبقيام المسلمين بتلبية نداء الجهاد الذي أعلنه الخليفة محمد رشاد ، تصبح باعتقاد جمال باشا في مهب الريح ، وينتهي أمرها في هذه البلاد .

كان جمال باشا يعيش هذا الأمل ويؤمن به ، ويدور به في عقله طوال اليوم ، في السر والعلن ، لذلك كان دائماً ملازماً للجندي التركي المحارب ومتابعاً لأموره عن كثب .

أما القوات المتواجدة على الجبهة الفلسطينية والقوات المتواجدة على الأطراف ، فقد تم اصدار الأوامر إليها بالتحرك نحو قناة السويس . لم تكن هناك أية قوة معادية في طريقهم إلى القناة ، وكأن العدو قد أزيل من الوجود أو اختفى ، إلى أن أشرق صباح اليوم التالي حيث بدأ القصف المدفعي يستهدفهم من حيث لايدرون وكأنه سيل من مطر لاينقطع . وقد أحاط بهم شبح الموت من كل جانب .

جمال باشا تعرض للخيانة

خلال ساعات قليلة ، تحولت كل تلك القوات والتكتلات العسكرية إلى رماد ، وزالت تماماً من الوجود .

لقد كانت القوات محاصرة وسط دائرة من اللهيب والنيران الحارقة . ووقف قائد الجيش الرابع ، والضباط القادة الالمان ، مذهولين أمام ما شاهدوه ، لايدرون ما يفعلون .

والقوات التركية التي كانت البارحة تحلم بالنصر، باتت اليوم مهزومة ومندحرة . فالبارحة كانت بيروت والشام تحتفل بظفر القوات التركية، واليوم مع وصول أنباء المعارك في الصباح الباكر أصابت خيبة الأمل ليس فقط القادة في الجبهات ، في بيروت والشام والقدس بل في كل أرجاء الإمبراطورية، وأزيلت معالم النصر والاستعدادات التي كانت قد أقيمت لها .

لقد كانت الضربة التي تلقَّتها قوات جمال باشا قاسية . فهؤلاء الذين كانوا يخططون لاجلاء المستعمرين عن القناة ، لم يضعوا في حسبانهم خطط هذه القوات المعادية واحتالات تحركاتها كا يجب .

لقد كانت سارة ، وراء هذه الضربة العسكرية القاسية التي تلقتها قوات الإمبراطورية العثمانية والتي راح ضحيتها الآلاف من الجنود اضافة إلى الخسارة الفادحة التي تكبدتها القوات الالمانية .

فقد تمكن قائد القوات الانكليزية ، الجنرال اللنبي بفضل الخطط التي أرسلتها له سارة ، من وضع خطة أدت إلى تلك الكارثة العسكرية في صفوف الجيوش العثمانية والالمانية ووقوع هذه القوات في فخِّ القوات الانكليزية .

سارة جسدت الهزيمة

لقد أمر الجنرال اللنبي بالانسحاب أولاً لجر القوات التركية، ثم قام بهجوم منسق بحري وجوي وبري استطاع به أن يقصم ظهر هذه القوات .

أجل ، لقد كان جمال باشا قد أعد جيداً لسفره إلى القناة ، ولكنه لم يأخذ بالحسبان شبكة التجسس الانكليزية السرية ، فقد كان واثقاً من قذف

الانكليز من القناة ، ولقد أتى إلى القدس بهذا الهدف وكان النصر يتجسد أمامه بكل وضوح وجلاء . وقام آنذاك باجراء ترتيباته العسكرية بكل ثقة وايمان بالنصر الأكيد .

حدث مستحيل

في حقيقة الأمر ، لم يتخذ جمال باشا ترتيبات واجراءات عسكرية متكاملة مع الالمان ولم تكن الأمور منسقة معهم تماماً ، وكانت الجبهة الداخلية تعيش تحت وطأة الجوع والقهر ، فلم يكن بالامكان تهيئة جبهة داخلية قوية في مثل هذه الظروف .

ومع ذلك كان جمال باشا واثقاً من النصر حسب اعتقاده في سلامة وجاهزية قواته والقوات الالمانية ، كما كان واثقاً بأنه سيأتي على نهاية الإمبراطورية الانكليزية .

محملاً بكل هذه المشاعر وهذه الأفكار ، عاد جمال باشا إلى مقره في الشام .

الفصل الثاني

قوى خفية
أثناء الحرب العالمية الأولى

قبل بدء الحرب العالمية الأولى بكثير ، كانت الإمبراطورية العثمانية تديرها قوى خفية ، تملي عليها ما يجب عليها أن تفعله وتتخذ عنها القرارات الحاسمة . غير أن هذه القوى مع الأسف ، لم تكن تحقق تطوراً ولاتقدماً للإمبراطورية . بل بالعكس ، فلقد تعالت في أرجاء الإمبراطورية ، الدعوات إلى انقاذها ، بعد أن انكشفت هذه القوى ولم تعد سراً على الناس .

احدى تلك القوى الخفية ، التي كانت سبباً في هلاك الإمبراطورية هي الصهيونية .

فمنذ المؤتمر الصهيوني الأول ، أي منذ عام ١٨٩١[1] وفي شهر آب بالذات، تم تأسيس هذه القوى . ومنذ هذا التاريخ بدأت الصهيونية تظهر على الساحة السياسية وتظهر معها نتائج تحركاتها .

من تلك النتائج ، مساندتها للدول الأوروبية في اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، ذلك الرجل المريض ، وتسخير امكانياتها لهذا الهدف . بغية تحقيق هذا الهدف ، فكر الموسويون في امكانية إنشاء دولة لهم في مدينة القدس ، وكان لابد من هدم الإمبراطورية العثمانية ، لكي يتمكنوا من تحقيق هذا الحلم.

---

(١) التاريخ ليس كما جاء أعلاه . فالمؤتمر الصهيوني الأول عُقِدَ في مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧ .

وهكذا تضامن أغنياء العالم من كل جهة وبلد وبينهم اليهود واتحدوا لكي يبسطوا نفوذهم على الدولة العثمانية ، وليحقّقوا حلمهم الذي كان يراودهم منذ فترة لاتقل عن قرنين .

وهكذا اتفقت الصهيونية والماسونية على هدم أركان الإمبراطورية من الداخل لتجسيد حلم اليهود الأزلي ـ فبادىء ذي بدء ، لعبت الصهيونية دوراً مهماً في تشكيل حركة الاتحاد والترقي أيام السلطان عبد الحميد ، وقدمت مساعدات مادية كبيرة للحركة . لاشك أن الهدف كان جلياً وراء دعم الصهيونية لهذه الحركة ، ألا وهو تحقيق إنشاء دولة موسوية في القدس بمساعدتهم .

ومع الأسف ، لم ينتبه مؤسسو حركة الاتحاد والترقي آنذاك إلى الخطر الكامن وراء مساعدة الصهاينة لهم ، ودعمهم المادي المستمر لحركتهم ، ولم يعلموا بهدفهم إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن باتوا دمى بين أيديهم .

لقد بدأ استيطان اليهود في فلسطين مع بداية عام ١٨٤٢ إثر فرمان أصدره السلطان عبد المجيد[1] أعطى لليهود الصلاحية بتسمية رئيسهم المتواجد في القدس بلقب رئيس الحاخامات ، بذلك استطاع اليهود ، وفي ظل الإمبراطورية ، أن يبدأوا بتحقيق الخطوة الأولى نحو بناء كيان يهودي لهم في فلسطين .

جمع الذهب

بعد صدور هذا الفرمان ، قام أحد الموسويين المدعو السيد موسيس مونتيفيوري ، بحثّ اليهود على امتلاك الأراضي والتشبث بها ، فقام بإقناع

---

(١) وهو السلطان عبد المجيد الأول (١٨٢٣ ـ ١٨٦١) أعلن « الخط الشريف كولخانة » ، نص المساواة بين أفراد الرعية. تعاون مع الدول الأوروبية على محمد علي عندما اجتاحت قواته بلاد الشام .

العديد من أصحاب الملايين خارج فلسطين لدعوته . وبذلك استطاع أن يجمع ملايين القطع الذهبية لتحقيق هذا الهدف . فبدأ بالترويج والدعوة لحب الوطن في كافة أرجاء العالم طالباً من أغنياء العالم اليهود أن يظهروا حبهم للوطن هذا ، بشرائهم للأراضي والتمسك بها في القدس وفلسطين .

وطرح عام ١٨٥٥ فكرة انشاء مدارس ومشافٍ في سفح جبل داوود. وهكذا ومنذ ذلك التاريخ بدأت عدة منشآت ترى النور في تلك المنطقة ، سجّل عليها اسم مونتيفيوري .

لقد شجع قيام هذه المنشآت والأبنية تحت اسم مونتيفيوري يهود العالم، خاصة الأغنياء منهم، على القدوم، واستثار أموالهم في انشاء واعمار مناطق ومحلات تجارية في هذا المشروع .

وفي وقت قصير ، قامت عائلة روتشيلد المشهورة بإدارة البنوك بالمساهمة بهذه الحركة العمرانية القائمة في مدينة القدس ، وبعد ذلك بفترة ، قام البارون روتشيلد بدراسة أوضاع الموسويين الاقتصادية والسياسية على ضوء الواقع ، وبدأ بالمشاركة الفعلية لحل مشكلاتهم . فقد قدم للموسويين أفضل الشروط الممكنة للاستثار لدعم تواجدهم ودعم حركتهم العمرانية في هذه المنطقة .

ولذا أصبح شغل التجار اليهود الشاغل في القدس وحيفا ويافا وصفد شراء الأراضي في هذه المدن وفي المناطق الزراعية كزمارين والبطاح وتقوى والحديرة لإقامة مستوطنات عليها .

في خدمة الدعوة

وهكذا رأت المستوطنة الصهيونية الأولى النور في فلسطين ، حيث بدأ سكانها يهتمون بالتجارة والزراعة ، وألفوا فيا بينهم جماعة استطاعت بفضل التعاون فيا بينها ، التغلب عى الأزمات المادية والمعنوية التي كانت

تعترضهم.

بدأ الموسويون بعد عام ١٨٨٢ ، يتجمعون في مناطق خاصة بهم ، نخص بالذكر الموسويين القادمين من روسيا ورومانيا .

ومن ناحية أخرى ، بدأت تظهر في الأفق أسماء شخصيات موسويّة روسية لم نكن قد سمعنا بها مثل ليفونتين[1] وفاينبرغ ووايزمان ، حيث قام هؤلاء الثلاثة بتشكيل جمعية موسوية ، هدفها لم شمل الموسويين في كافة أنحاء العالم وانشاء وطن لهم في فلسطين .

وهكذا ، وبعد فترة ، تم توطين عشرة أسر قادمة من رومانيا في منطقة السامرة في فلسطين ، تمشياً مع قرار الجمعية الموسوية ، في بادىء الأمر كان الاستيطان شاقاً ويتعرض لمشاكل عديدة ، أهمها أن الأراضي التي تم منحها للمستوطنين تفتقر للماء وتقع في مناطق حارة جداً . غير أنه ، يوماً بعد يوم زادت المساعدات التي ترسلها الجمعيات والمؤسسات الموسوية لهم ، مما جعلهم يتغلبون على هذه الصعاب بسهولة .

وكان والد سارة آرونسون ، السيد جاك آرونسون من بين هؤلاء المستوطنين ، حيث قدم إلى فلسطين عام ١٨٨٩ واستوطن في مدينة زمّارين بمساعدة ومؤازرة هذه المؤسسات الموسوية وخاصة بمساعدة عائلة البارون روتشيلد .

وفي حين كان الموسويون يدعون ملّتهم إلى القدوم والاستيطان في فلسطين كانت هناك فئة موسوية أخرى تقوم بمحاولات سياسية مع الدولة العثمانية .

فلقد تجرأ بعضهم ، بما أن الساحة خالية لهم ، على التقرب من السلطان عبد

---

(١) هو سلمان داود ليفونتين ، جاء إلى فلسطين عام ١٨٨٢ ، مرسلاً من قبل الصهاينة الروس، أشرف على تنسيق عمليات الاستيطان الأولى .

الحميد وطلب حمايته .

وفعلاً ، قام مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتسل[1] بزيارة السلطان عبد الحميد ، برفقة عضو المجلس النيابي العثماني عمانوئيل قره صو مستفيداً من الوضع الاقتصادي والمادي السيىء الذي تعيش فيه الإمبراطورية ، ومستغلاً إياه ، فقال للسطان[2] :

« لو أن السلطان يتكرم ويمنحنا فلسطين ، فإننا على استعداد لدعم الوضع المادي للإمبراطورية ، ونكون صلة وصل بينكم وبين المدنية القائمة في أوروبا ونكون محافظين عليها ، كل ذلك تحت حمايتكم وكنفكم » .

الوطن لايباع بالمال

وألقى السلطان عبد الحميد ، نظرة جافة على ضيفه ومرافقه كبير النواب عمانوئيل ثم توجه إلى مترجمه الذي كان يقف بجانبه وقال له :

« قل له أن الوطن لايباع بالمال » .

ثم تابع قوله غاضباً :

« أيها الكلاب، أمن أجل هذا التخريف قدمتم إلى هنا ؟ ألاتعرفون أن وطننا لايباع بالمال ؟

---

(١) يمكننا الاطلاع على بعض مجريات المحادثات بين هرتسل والسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) بالرجوع إلى « يوميات » هرتسل ، المجلد الأول، ص ٣٧٨ ـ ٣٨٥ والمجلد الثاني ص ٥٠٩ ـ ٥٥٢ والمجلد الثالث ص ١٠٦٣ وكذلك المجلد الرابع ص ١٣٤٠) .

(٢) صدرت اليوميات الكاملة لهرتسل باللغة الانكليزية عن الأصل الألماني ، بخمسة مجلدات ، في نيويورك ، عام ١٩٦٠ ، وتعتبر أول طبعة كاملة لليوميات بأية لغة على الاطلاق . وكانت قد نُشِرت عام ١٩٢٣ ، لأول مرة بلغتها الأصلية ، الألمانية ، وقد حذف الناشرون الصهاينة بعض محتوياتها لأسباب تتعلق بأمن حركتهم .

اللعنة عليكم وعلى أموالكم ، اخرجوا من هنا أيها الكلاب ، ولاتدعوني أراكم ثانية » .

وذُهش الرجلان لكلام السلطان ولما سمعاه منه ، غير أن الخدم لم يتأخروا من طردهما خارجاً .

بعد هذه الحادثة ، لم يعد هرتزل يفكر بمقابلة السلطان ثانية مطلقاً ، في حين أن النائب عمانوئيل ساورته شكوك بأنه عاجلاً أم آجلاً سيفقد رأسه، أو سيُشنق .

وهكذا بدأت المؤسسات والجمعيات الصهيونية في كافة أرجاء العالم ، بشن حرب اعلامية عدوانية ضد السلطان عبد الحميد .

السلطان الاحمر

السلطان الأحمر ، السلطان القاتل ، السلطان المستبد السلطان المتخلّف ، بهذه الألقاب شرعت الحركة الصهيونية بشن معركتها الاعلامية ضد السلطان عبد الحميد وقامت بترويج إشاعات بحق السلطان وبحق حكومته.

وقد ذهبت الحركة الصهيونية إلى أبعد من ذلك ، فبعد أن اعتبرته عدوها الأكبر ، قررت الحركة الصهيونية خلع السلطان عن كرسيه .

والأمر الأكثر سخرية هو أن مجلس النواب أوكل للنائب عمانوئيل مهمة نقل قرار الحركة الصهيونية إلى السلطان عبد الحميد بنفسه .

لقد كان السلطان عبد الحميد حزيناً متأثراً لما حدث ، حتى أنه كان يفكر بالتخلي عن السلطنة ، ولكن ذلك يحقق مآرب الصهاينة . كما أنه من ناحية أخرى ، وبعد اتهام النائب عمانوئيل بالخيانة ، لم يكن سهلاً أن يرضى السلطان عبد الحميد بأن يغدو خائناً مثل النائب عمانوئيل سبباً في سقوطه من منصبه ، فلن يغفر التاريخ له ذلك ، بل سيبقى وصمة عار على جبين

التاريخ العثماني لو تحقق .

وفي كلمته أمام هيئة النواب ، قال السلطان عبد الحميد :

« ليس أمامي سوى المثول لارادة الشعب ، ولكن ماذا يفعل الموسوي بيننا أو ما شأنه بيننا ؟ فمنذ عهد محمد (ﷺ) لم تشهد الخلافة إلى يومنا هذا ، حقارة من هذا النوع .

إن من أنزلني عن عرشي هو أنتم ، وإحضاركم لهذا الرجل إلى هذا المكان هو الحقارة بعينها . فليسامحكم الله » .

وبانتهاء كلمته هذه ، كان كل أعضاء الهيئة قد انتابهم شعور بالخجل لفعلتهم ، وتمنّوا لو انشقت الأرض وابتلعتهم ورغم ذلك ، فقد تم بعد ذلك ، ازاحة السلطان عبد الحميد عن منصبه وتعيين السلطان محمد رشاد بدلاً عنه.

الضحية الاولى

أجل ، لقد كان السلطان عبد الحميد أول ضحية تقرر الصهاينة اختيارها. فلقد جعلوا الناس يعيشون ويؤمنون بفكرة أن السلطان عبد الحميد كان مستبداً لابد من الإطاحة به .

لقد استطاعت الحركة الصهيونية إقناع أركان الدولة وإعلامها ببشاعة واستبداد حكم السلطان عبد الحميد ، وضرورة إبعاده عن الحكم ، غير أن الحقيقة كانت غير ذلك ، فاسقاطه من منصبه جاء عقاباً على طرده لرئيس الحاخامات ، هرتزل ، والنائب عمانوئيل ، غير أن هذا الأمر بقي سراً ولم يعرفه أحد ، وهكذا فإن الحركة الصهيونية استطاعت أن تسجل أول انتصار لها على الصعيد السياسي والأمني .

تحت شعارات الحرية والعدالة والمساواة والأخوة ، بدأ القادة الشبان المنتمين لحركة الاتحاد والترقي يدخلون باب السياسة من أبوابها الواسعة ، وبدأوا بشغل مناصب ومسؤوليات حكومية عديدة في ظل الأوضاع

ميراث الرجل المريض

أثناء ذلك ، اتخذت الحركة الصهيونية قرارات هامة بشأن بقية الأمم والشعوب ، «بروتوكولات حكماء صهيون» التي جاء فيها ما يلي :

١ ـ افساد قيم واخلاقيات الشباب .

٢ ـ تدمير الأواصر العائلية .

٣ ـ النظر إلى الناس على أنهم من المرتبة الأدنى ويجب السيطرة عليهم .

٤ ـ إضعاف الصناعة، وتهجين الأخلاق والقيم ونشر الأدب الرخيص.

٥ ـ تدمير كافة مظاهر الإيمان ، ومحاربة القائمين على أمور الإيمان ، وتلفيق التهم الرخيصة لرجال الدين والعلماء .

٦ ـ إيجاد تقليعات تخطف الألباب وزيادة الرفاهية المصطنعة ، والعمل على جعل الناس ينفقون بشكل جنوني .

٧ ـ العمل على أن تمضي الأمم أوقاتها في اللهو واللعب وإبعادهم عن التفكير قدر المستطاع وتفريغهم من محتواهم الإنساني .

٨ ـ تسميم واجهاض الأفكار التقدمية، ونشر اللامسؤولية والاتكالية والأحقاد والدسائس بين صفوف المواطنين .

٩ ـ العمل على تسميم الأفكار وجعل الفوضى والمظاهر غير اللائقة هي الأساس في التعامل وزرع الحقد والنفور بين الأخ وأخيه .

١٠ ـ تدمير العلاقة القائمة بين التجار وأصحاب الأموال . أوجدوا الاضرابات ، وقوموا بابتزازهم .

١١ ـ هدم الثقة المتبادلة بين الطبقات .

١٢ ـ خلق أزمات صناعية وزراعية ، وبذلك يُسحق الفلاح ويعطل الإنتاج .
١٣ ـ منع أية أفكار علمية وتجميد الأبحاث ووضع العراقيل في وجه الناس الذين يريدون تطبيقها في الحياة العلمية .
١٤ ـ دعم غلاء المعيشة ، وزيادة الأجور .
١٥ ـ العمل على إحداث الاضطرابات في العلاقات بين الشعوب وزرع الكراهية والعدوانية بينهم .
١٦ ـ ايقاف عجلة التقدم والتحصيل العلمي في البلاد ودعم الجهلة من القوم .
١٧ ـ تغيير أنظمة الحكم وإفشاء أسرارها .
١٨ ـ العمل على إعطاء كافة الحكومات صبغة المستبد .
١٩ ـ حجز وإلغاء حرية السياسيين والاقتصاديين وايجاد عوائق اقتصادية .
٢٠ ـ زعزعة الاستقرار المالي والعمل على الإكثار من الأزمات الاقتصادية .
٢١ ـ افتعال الحوادث ، وحصر الأموال في فئة قليلة من الناس وتعظيم الأنباء .
٢٢ ـ انتظار سقوط الحكومات وإلقاء الشعوب في الفقر والعوز والاغتراب .

وهكذا، انشغلت الإمبراطورية العثمانية، علاوة على استمرارها بالحرب، في مجابهة تطبيق هذه البنود الاثنين والعشرين التي أقرتها الحركة الصهيونية[١] .

---

(١) حول « بروتوكولات حكماء صهيون » انظر دراسة الأستاذ عجاج نويهض ، الصادرة عن دار طلاس بجزئين ، دمشق ، ١٩٨٤ .

لقد أثارت هذه القرارات المتخذة سراً من قبل الحركة الصهيونية بلبلة واضطراباً في العالم كله ، خاصة في رومانيا وروسيا ، وعلى إثر ذلك قررت الدول والحكومات قتل التجمعات اليهودية أو طردها من بلادها .

الصهيونية في المهد

لم تكن الإمبراطورية العثمانية ، عند بدئها الحرب ، قد أعطت أية أهمية لهذه الأقلية الموسوية ولا حتى لأعضائها الذين انتسبوا إلى حزب الاتحاد والترقي ، بل بالعكس فقد أقامت معهم علاقات على أرفع المستويات .

غير أن القائمين على قيادة المراكز الإدارية الهامة في البلاد ، كانوا في الحقيقة شرفاء محبين لأوطانهم ، ولكنهم كانوا واقعين تحت سيطرة الخطط الماسونية والصهيونية لاتخاذ قرارات تضر بمصلحة الإمبراطورية والوطن .

فلم يكن يهم القيادة العثمانية شيء من تلك الأمور ، إلا أنها كانت تشكو من بعض المشاكل والخلافات مع العرب والأرمن في موضوع مطاليبهم الإصلاحية، أما الصهيونية التي كانت ترقد في المهد فلم تكن تشكل خطراً على الإمبراطورية بفضل قناعها المحكم . وبعد أن تمكنت الصهيونية من بسط نفوذها داخل الإمبراطورية العثمانية . تحالفت مع انكلترا .

انكلترا ، التي كانت قبل الحرب العالمية تخطط لمنح الموسويين مزايا ونفوذ على الأراضي العربية الإسلامية ، وخاصة المقدسة منها ، ففي حين أوكلت مهمة إغراء العرب إلى فرنسا ، لحملهم على العصيان وطرد الأتراك من بلادهم ، كانت انكلترا تحيك شبكة تجسس موسوية داخل الإمبراطورية .

مسكن ومقر قيادة

بعيداً عن كل هذه الحقائق التي كانت غير معروفة من قبله ، كان

جمال باشا يخطط لحملة ثانية، بعد فشله الذريع في حملته الأولى على قناة السويس .

فبعد رحلته تلك ، وعند عودته إلى الشام ، اصطحب جمال باشا فتاته سارة أرونسون من فندق فيكتوريا إلى حيث يقيم في فندق قصر الشام.

كان جمال باشا يشغل القسم الأكبر من الفندق ، حيث اتخذه سكناً ومقراً لمتابعة أعماله ولقاءاته .

وشغل عدة صالات من الفندق للّقاءات والاجتماعات مع القادة الألمان ، وفي الوقت نفسه ، كان قد شغل بعض الغرف أيضاً لحياته الخاصة اليومية .

وهكذا ، أحضر جمال باشا ، فتاته التي تعرف عليها في بيروت إلى مكان اقامته في فندق قصر الشام الذي اتخذه مسكنا ومقراً ومكتباً لادارة اجتماعاته وأعماله .

ازدياد حالات الفرار

كان جمال باشا متأثرا جدا بالهزيمة التي مُني بها . لجلس يمعن النظر ويدقق في كل أمر من أمور الإمبراطورية ويفكر في إيجاد حل لها .

فهناك مشكلة التمويل المالي ومسألة التعزيزات العسكرية التي لم تصل بعد ، ومن ناحية أخرى فهو مسؤول عن تأمين تموين الجيش بالعتاد والغذاء وهذه مسؤولية كبيرة بحد ذاتها .

وفي الواقع أن محصول الأراضي المزروعة ، لايكفي لتغطية مؤونة هذه القوات ، وكان لابد للباشا من الحصول على دعم وإمدادات غذائية من الدولة ومن خارج منطقة حكمه .

فمنذ اندلاع الحرب ، توقفت عمليات الاحتلال والاستيلاء على الأراضي ولم يبق له سوى التوجه إلى السوق السوداء ، وإلى المحتكرين والمرابين

لدعم استمراره في قيادة جيوشه ، لذلك ترى أمثال هؤلاء يحيطون بالباشا منتشرين حوله .

وكان الشعب في أسوأ أحواله ، يفتقد إلى لقمة الخبز ، زد على ذلك أنه بعد الحملة الأولى على القناة ، كثرت حالات الفرار من صفوف الجيش . فهناك مجموعات عسكرية عربية قد اختفت تماماً من الوجود .

كان الجوع ، والحرب ، وقلة المادة ، والحر الشديد ، أهم العوامل التي دفعت القوات إلى التخلي عن واجبها والفرار من أرض المعارك والجبهات . ولم يبق في الجبهات إلا فتيان الأناضول ، غير أن هؤلاء أيضاً ، كانوا يتعرضون لتحريض الجنود العرب من المناطق المجاورة على الهرب والفرار من الجبهات القتالية .

أما المسلمون القادمون من اردهان ، وكارستان ، وجناق قلعة[1] وباليكيسير وازمير وكل الأناضول ، فقد صمدوا يقاتلون العدو ، وأنباء استشهادهم تبعث السرور والرضا في قلوب القادة والشعب . وحقيقة الأمر ، أن هؤلاء الفتيان الأناضوليين ، هم الذين كانوا يرفعون من معنويات جمال باشا بقتالهم وإصرارهم على مواجهة العدو بإخلاص ووطنية .

فتيان الاناضول

ولكن فتيان الأناضول هؤلاء ، كانوا للأسف الشديد جياعاً وعراةً ، يتكدسون فوق بعضهم البعض من شهيدٍ ومصاب ، متحملين حر النهار الشديد ، وبرد الليل القارص ، والذين سلموا من رصاص العدو ، تعرضوا لأمراض عديدة ، مثل الديزانتيريا والتيفوئيد ، أودت بحياة العديد منهم .

---

(١) حصن على ضفة الدردنيل الشرقية (تركية) ، صمد لحصار الحلفاء البحري في الحرب العالمية الأولى (شباط ـ نيسان ١٩١٥) ، حيث لعب مصطفى كال دوراً كبيراً في ذلك .

عند تأمله هذا الوضع المحزن ، أخذ جمال باشا قلمه وكتب إلى رؤساء القبائل العربية رسائل يدعوهم فيها للحضور إلى الشام ، فوجّه دعوة للشريف حسين في مكة وابنه الأمير علي ، ولفيصل ، ولعبد الله ، ولابن رشيد السعودي .

كان جمال الباشا ينوي طلب المساعدة من رؤساء القبائل العرب هؤلاء ، لتامين الدواء والغذاء للجيوش التركية التي تترنح تحت وطأة الجوع والحاجة للامدادات السريعة ، في الوقت نفسه ، كان ينوي مساعدة ومؤازرة سليمان بك العسكري الذي ، يحارب الانكليز بشجاعة وقوة في البصرة، كما كان يود دعم الامام يحيى في اليمن حيث أمر القوات العثمانية بدعمه ومساندته .

والجدير بالذكر أن هؤلاء الرؤساء العرب كانوا قد وقفوا موقفاً ايجابياً بجانب الباشا في حملته الأولى على القناة .

المساعدة العربية

كان أول المستجيبين لنداء جمال باشا ، الشريف حسين من مكة ، الذي أبدى مساندته للباشا في حملته الثانية على القناة ، ووافق على ارسال جنود إلى القناة ، طالباً من الباشا تأمين المال والسلاح لهم .

على الفور ، قام الباشا بطلب تأمين مستلزمات جنود الشريف حسين من مال وسلاح ، فأرسل له ثمانين ألف قطعة ذهبية وخمسة عشر ألف قطعة سلاح . في حين أن الامام يحيى ، أبلغ جمال باشا أن انشغاله بأمور داخلية تمنعه من المشاركة في الحملة .

أما الأمير فيصل والأمير علي إبني الشريف حسين فقد قدما إلى الشام ونزلا بضيافة الباشا لمدة طويلة . كما قدم أبناء رشيد السعودي وأعربوا عن محبتهم وولائهم للباشا .

وهكذا احتل جمال باشا مكانة مرموقة ، وحاز على محبة العرب ، فوقفوا جميعاً في مواجهة الانكليز والفرنسيين .

فمن ناحية ، كان يقوي جبهات القتال في غزة وسيناء وفلسطين ومن

ناحية أخرى كان يوطد العلاقات بينه وبين العرب، ويشاركهم أفراحهم وأعراسهم ومناسباتهم واحتفالاتهم الدينية .

أصبح جمال باشا رجل الأمة ، وزاد احتكاكه بالطبقات الفقيرة من الشعب مما زاد محبتهم له وللإمبراطورية العثمانية، فحيثما وصل، كان جمال باشا يُستقبل بهتاف الشعب ، الذي كان ينتشر في الطرقات لرؤيته .

كان جمال باشا يحاول عدم اللجوء إلى الشدة أبداً، فرغم حاجة جيوشه إلى المؤونة ، كان يوزع الخبز والملبس على الشعب ، حتى أنه كان يقدم لهم المعونات المالية من أموال خزينة الدولة. ويعامل العرب بمنتهى اللطف والمحبة ويدفع قيمة المؤن التي يشتريها لجيوشه قطعاً نقدية ذهبية ، وكان يطبق هذا الأسلوب في التعامل في كل المناطق العربية بلا استثناء وليس فقط في سورية وفلسطين ولبنان مما ساعد على رفع شعبيته وعلى تحسين سمعة الإمبراطورية بين الناس بشكل كبير .

هناك من أقلقه هذا الاسلوب والمهمة المزدوجة

لقد أقلق حب العرب وولاؤهم للباشا سارة كثيراً . فكانت الجاسوسة الانكليزية ، تجلس كل مساء على رأس مائدة العشاء في فندق قصر الشام، التي تضم عدداً من النواب العرب المجتمعين مع الباشا ، وتصغي بإمعان وانتباه إلى كل ما كان يدور من حديث بينهم، وكان مما يزيد في قلقها أيضاً تلك الاتفاقيات والعهود التي كان الباشا يعقدها مع المتنفذين ورؤساء القبائل العربية والتي كانت بمثابة ضربة قاسية لأحلامها ، لذلك فقد كان همها إثارة الفرقة بين العرب والأتراك لنزع الثقة بينهم ولتحريض العرب على التفكير في إقامة دولتهم المستقلة من جهة ومن جهة أخرى نقل كل ما تسمعه وتراه إلى الجاسوسة سيمون التي تقوم بدورها بتسريب هذه الأنباء والمعلومات إلى الانكليز بالسرعة الممكنة وبالأخص ما

كان هاماً منها والذي كان لايستغرق زمن إيصاله إلى القيادة الانكليزية أكثر من ساعات قلائل .

الموسويون في خدمة الانكليز

ولوضع خدمات الموسويين بتصرف القوى المعادية للإمبراطورية ، قامت أجهزة المخابرات الانكليزية قبل الحرب العالمية بعام بتشكيل شبكة جاسوسية لتحقيق هذا الهدف ، فأنشأت شبكة من الجواسيس قوامها مئة امرأة وثلاثمئة رجل، وارسلتهم إلى فلسطين، كلهم من الموسويين .

والجدير بالذكر أنه، في تلك الحقبة من الزمن، كان هناك تقارب موسوي انكليزي على يد بعض الشخصيات الموسوية مثل ليشانتن وفافينبرغ ووايزمن البولوني الأصل الذين كانوا على اتصال دائم مع الحكومة الانكليزية .

إقناع الانكليز

وكانت المنظمة الصهيونية قد نجحت في عقد اجتماع مع رئيس الوزراء الانكليزي ، ثم مع وزير البحرية السير تشرشل في ذلك الوقت ، وأخيراً جرى لقاء مع وزير الدفاع طرح فيه موافقة الحكومة الانكليزية ، بإنشاء دولة موسوية على أراضي الإمبراطورية العثمانية .

وتم هذا التفاهم بحضور مدير الاستخبارات الانكليزية . وتقرر لتنفيذ إنشاء هذه الدولة ، إزالة الإمبراطورية العثمانية ، والسيطرة على مدينة القدس وفلسطين .

ومنذ ذلك الوقت ، ومنذ عهد الاتفاق ، بدأت الحكومة الانكليزية بتسخير ملايين القطع النقدية الذهبية ، لتوطيد وبناء شبكة جاسوسية على أراضي الإمبراطورية في فلسطين ، لتحقيق هدف الموسويين .

الآب أرونسون

كان الاتفاق على تشكيل الشبكة على النحو التالي :

بادىء الأمر ، تم البحث عن أناس يقيمون في فلسطين ، من أصل موسوي ، أرسلتهم الحركة الصهيونية وساعدتهم على العيش فيها ، والتفاهم معهم حول رغبتهم في مساعدة أجهزة الاستخبارات الانكليزية وإقناعهم بالانضمام إلى صفوفها .

وفي مقدمة هؤلاء عائلة آرونسون ، هذه العائلة التي تلقت الدعم والمساندة من قبل عائلة البارون (أدمون روتشيلد) ، وحازت على محبة وصداقة العرب والأتراك ، وعلى رأسها الأب آرونسون وأولاده الخمسة ، كانت خير خلية تبدأ منها الاستخبارات الانكليزية عملها في سبيل تحقيق انشاء دولة موسوية في فلسطين .

ففي بادىء الأمر ، تم انشاء مختبر للأبحاث النباتية في عتليت[1] ، للعالمة سارة آرونسون ، وفي الوقت نفسه ، كان مقراً لقيادة الاستخبارات الانكليزية .

أما شقيقها الأكبر آهارون (آرون) ، الذي تتلمذ على يد عدة أساتذة خبراء في مجال التجسس والتنظيم السريّ ، في لندن ولمدة طويلة ، منذ عُيّن

---

(١) في عام ١٩٠٣ ، أقام الصهاينة في ظاهر قرية عتليت العربية مستعمرةً دعوها بنفس الاسم. تقع المستعمرة على الساحل جنوبي حيفا ، بين رأس الكرمل والطنطورة ، على بعد (٢٠ كم) .

مساعداً خاصاً للآنسة سارة لإدارة هذه القيادة ، وكان في الوقت نفسه ، المعاون الأول لوالده .

غير أنه مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، ذهب آهارون إلى انكلترا ليعمل في قيادة جهاز الاستخبارات الانكليزية ، التي نُقلت فيما بعد إلى مصر.

أما شقيقها الكسي ، فلقد انضم هو أيضاً إلى جهاز الاستخبارات الانكليزية وعين فيها بصفة ضابط ، في حين رحل اخوهم ايزودور إلى النمسا ، حليفة الدولة العثمانية .

وهكذا ، بقيت كل المسؤوليات في فلسطين على عاتق سارة. فكانت الجاسوسة الرئيسية التي تعمل على الأراضي التركية والتي تقدم الخدمات الفعلية للمخابرات الانكليزية .

تجدر الاشارة إلى أنه عندما تم تنظيم أسرة أرونسون للعمل مع أجهزة الاستخبارات الانكليزية ، تقرر تسخير امكانيات سارة ، من جمال وذكاء واثارة، في فلسطين، لاعتقاد القيادة الانكليزية بفعاليتها هناك، كان جمال سارة قادراً على جذب أي ضابط الماني أو تركي . علاوة على ذلك ، اتقانها لعدة لغات ، مما مكنها أن تعمل في سوريا ولبنان وفلسطين دون عائق .

قامت سارة ، أول الأمر ، بتأمين أشخاص موثوقين ليساعدوها في وصول الرسائل والمعلومات إلى أهدافها ، ووقع اختيارها على ثلاثة أشخاص من جنسيات مختلفة لأداء هذه المهات ، فشكلت منهم شبكة مصغرة كانت ترأسها بنفسها .

وكما علمنا فإن قوام الشبكة كان مئة امرأة وثلاثمئة رجل ، إلا أنها اختارت ثلاثة من بينهم ليكونوا على اتصال مباشر معها ويساعدوها في مهمتها . هؤلاء كانوا الدكتور كوهين هانكن ، ابراهام اسرائيل ، وصاموئيل

سام ، وبالتالي قام هؤلاء الثلاثة بإنشاء شبكات خاصة بهم في القدس وسوريا ، والشام ، وبيروت ، وحلب ويافا وحيفا ، إلا أن هؤلاء العاملين في هذه الشبكة ، لم يكونوا يعرفون بعضهم البعض .

بعد عامين من اندلاع الحرب ، قدم إلى فلسطين الجاسوس الانكليزي الشهير لورانس ، واجتمع مطولاً مع سارة ، في مختبرها للأبحاث العلمية الزراعية (النباتية) وتحدثا في ذلك الاجتماع عن شخصية الباشا . وعن المعلومات التي توصلت إليها سارة من خلال تواجدها مع الباشا ، وبالتالي، قام لورانس بإرشادها ، وتزويدها بخبراته ، وأعطاها التعليمات اللازمة لمتابعة مهمتها .

وقد سبق لسارة أن قامت قبل الحرب بعام واحد ، بزيارة إلى لبنان لتأسيس شبكة تجسس فيها ، وفي بيروت تعرفت على نور الدين بيهم شقيق رئيس البلدية مختار بيهم .

كان نور الدين شاباً يافعاً ، مثقفاً وجذاباً ، ولاهتمامه بالمؤلفات التاريخية ، وقليلاً بالآثار القديمة ، ذهب لزيارة عتليت ، حيث قابل هناك السيد أهارون وتعرف عليه .

وقام أهارون، بدعوة السيد نور الدين إلى منزله حيث عرفه على اخته سارة ، فقامت علاقة وطيدة بينه وبينها وأعطاها عنوانه في بيروت لزيارته .

وهكذا ، عند قدومها إلى بيروت ، بهدف تشكيل شبكة جاسوسية لها ، قامت أول الأمر ، بالبحث عن السيد نور الدين على العنوان الذي أعطاها إياه .

ومن خلال نور الدين وعلاقاته بكبار شخصيات البلد ، استطاعت سارة أن تقيم علاقات مع شخصيات بارزة ، من علماء مسلمين ومسيحين على السواء، واستطاعت، وبفترة قصيرة ، التعرف على العديد من الأسر في

بيروت فكانت عائلة سرسق احدى تلك العائلات التي تعرفت عليها وبنت علاقات معها ، خاصة مع السيد الفريد والسيدة ليندا .

شكوك حول سارة

قدمت سارة، بصحبة السيد نور الدين إلى سوريا وزارت الشام وحماة وحمص وحوران وجبل الدروز وغيرها من المناطق شبراً شبراً ، متذرعة بأبحاث النباتات والزراعة ، وأثناء تجوالها كانت تدون الملاحظات حول تلك المناطق ، جبالاً وسهولاً ووديانـاً . وتتحدث إلى الفلاحين وتدوّن أسماء شيوخهم، وتتعرف على أفكارهم موجهة إليهم أسئلة سياسية ولبرهة ، شك نور الدين بتصرفات سارة ، فسألها قائلاً :

« أرى أن اهتمامكِ منصب على أمور غير أمور النباتات ، هل يمكنكِ أن تبرري لي ذلك ؟

ضحكت سارة ، وكقطة ملساء ، ارتمت على عنق نور الدين قائلة :

« حياتي ، إنني وبعد زيارتي لهذه المناطق قرية قرية ، إنما أرغب بتأليف كتاب حولها ، لذلك فأنا محتاجة لمعرفة كل شيء عن هذه المنطقة وغيرها ، وهذا هو قصدي من أسئلتي للفلاحين ». فصدقها مقتنعاً بجوابها.

اعتماد الباشا

بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٤ قامت سارة بتصوير معظم المناطق التي زارتها ، وتدوين معلومات عنها ، وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى توجهت سارة إلى رأس عملها ومهمتها الأساسية، وتعرفت على جمال باشا في منزل السيدة ليندا سرسق واستطاعت نيل ثقته وجعله يعتمد عليها .

إلا أن هذا التقارب العربي العثماني أقلقها كثيراً ، وهي في مكان اقامتها مع الباشا في فندق قصر الشام .

وبدأت مخاوف الانكليز والفرنسيين والموسويين تشتد أمام هذا التفاهم المسلم العربي التركي خصوصاً وأن اعلان الخليفة للجهاد الأكبر واحتمال انضمام مسلمي الهند وشمال افريقيا إليهم كان يزيد من قلق ومخاوف الانكليز وحلفائهم. فتلبية المسلمين في تلك البلاد لنداء الجهاد الأكبر كافية لهدم الكيان الانكليزي والفرنسي .

وانصب الاهتمام الأكبر على زرع الشقاق بين هاتين الجهتين ولو تمكن الخليفة العثماني من إعلان هذا الجهاد ، فماذا يفعل الانكليز والفرنسيون في مواجهته ؟

وبعد هدم الإمبراطورية العثمانية ماذا سيحل بشبكة التجسس هذه، وماذا سيحل بسارة ، وإلام ستنتهي كل هذه الأمور ؟

لقد خسر جمال باشا في حملته الأولى معركته أمام الانكليز والفرنسيين في قناة السويس ولكنه مازال يقاوم ويستعد للحرب ثانية ، والجندي التركي يقاوم رغم الشروط القاسية التي يمر بها .

ماذا صنع العرب ؟

مع قدوم حزب الاقتدار إلى الوجود وظهور حركة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ فقد أعلنت الدولة الثانية ، وباتت الحكومة تلبس ثياب الحرية الجديدة في ممارستها للحكم في البلاد .

لذلك بدأنا نشاهد ، على امتداد الأرض التركية في ظل الإمبراطورية العثمانية ، وعلى مختلف الأديان والشعوب التي تسكنها ، ظهور نداءات لنيل الحريات بشكل أو بآخر ، كما بدأنا نرى من يطالب بإجراء الإصلاحات في الحكومة والنظام .

وعلى ضوء ذلك ، ونتيجة له ، ظهرت عدة أحزاب وتجمعات في ساحة معركة الإصلاح هذه ، واحتدمت المناقشات بينها وقام العرب بعقد

مؤتمر بباريس في الثامن عشر من حزيران عام ١٩١٣ ، بحثوا فيه مواضيع الإصلاحات التي يجب أن تتم في البلاد ، وقرروا مناقشة الأمر مع أعضاء جمعية الاتحاد والترقي . واستبق النواب العرب في مجلس النواب التركي الأمر ، وقاموا بدفع المواطنين في سوريا ولبنان والحجاز وبيروت ، إلى مطالبة الحكومة العثمانية بهذه الإصلاحات .

مؤتمر باريس[١]

وفي هذه الأثناء، انضم الشريف حسين إلى هذه الحركة ، باعتباره نائباً للحجاز .

كانت الاصلاحات تطالب بتنظيم الإدارة في الولايات ، واصلاح المتصرفين ، وإنشاء الطرق ، وتأمين المستشفيات ، والماء وتأمين احتياجات المواطنين من خدمات .

غير أن عقد العرب لاجتماعهم هذا ، في مدينة باريس ، في بلد غريب عدو للإمبراطورية ، ومناقشتهم أمراً يتعلق بالحكومة التركية ، كان بنظر وزير الداخلية طلعت باشا ووزير الحربية أنور باشا ومحافظ استنبول جمال باشا ، أمراً خطيراً يجب معالجته ، لاسيما في احتمال وجود بان قوى خفية أجنبية تقف وراء تحرك العرب هذا .

وعلى أثر ذلك ، عقد وزير الداخلية طلعت باشا مع مدير الأمن في

---

(١) عُقِد المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣ ، وبحث المؤتمر حقوق العرب في الدولة العثمانية ، وقرّر عدة قرارت منها : حقوق العرب السياسية اعلان الإدارة المركزية ، اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، اشتراك العرب في الإدارة المركزية في استنبول الخ ... تظاهرت حكومة الاتحاد والترقي بالموافقة على مقرراته ، قبل أن يبطش جمال باشا بزعماء العرب ١٩١٥ ـ ١٩١٦ ، (المجلس العرفي في عاليه) .

استنبول ، عزمي بك ، اجتماعاً ، بحضور ممثلين عن الأمن وعن الحكومة .

شبكة الاستخبارات

تم في هذا الاجتماع اقرار إقامة شبكة استخبارات في قلب الدول العربية تكون مسؤولة أمام وزير الداخلية طلعت باشا . وجاء قرار وزير الداخلية حول انشاء هذه الشبكة، على النحو التالي:

١ ـ العمل على كشف تحركات العرب الفكرية والعملية .
٢ ـ التفاهم مع العرب الذين لهم علاقات مع عزيز علي وأصدقائه والاتفاق معهم على القيام بالتجسس على عزيز علي .
٣ ـ مراقبة الشخصيات التي تنادي بالإصلاحات خاصة اتصالاتهم مع السفارات الانكليزية والفرنسية .
٤ ـ مراقبة الشخصيات المنادية بالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية والحد من نشاطهم .
٥ ـ فتح ملفات بحق النواب والرؤساء في حزب الاتحاد والترقي الذين يقومون بأعمال مخالفة لقرارات الاتحاد .
٦ ـ تأسيس فرع للاستخبارات في كل من الدول العربية على حده وجعل مركزها تحت إمرة القائم مقام نوري .
٧ ـ نشر النواب والضباط المناصرين والمؤيدين للأتراك، في كافة أرجاء الأراضي التركية .

الاجراءات المتخذة

وهكذا قامت الحكومة التركية ، قبل قيام الحرب العالمية ، بتعزيز موقفها السياسي والعسكري بالتقرب من الألمان والحصول على دعمهم ، ثم قامت مع قيام حركة الإصلاح في البلاد ، باتخاذ هذه الإجراءات الأمنية في

وجه من تسوّل له نفسه تقسيم الإمبراطورية وهدمها .

وفي الوقت نفسه ، جرت محاولات جادة لتوحيد المسلمين بشتى الوسائل.

فقد قام أنور باشا بدعوة الرؤساء المسلمين إلى استنبول . كما قام بالاتصال مع مسلمي القفقاس ، وافغانستان ، والهند ، وشمال افريقيا ، مغدقاً عليهم الأموال والمساعدات الانسانية . وتم الأخذ بعين الاعتبار ، عند تعيين جمال باشا والياً على سوريا أن يقوم هذا الأخير بجمع العرب حوله وجعلهم تحت تصرفه بناءً على العلاقات الوطيدة التي يبنيها معهم .

لم تكن هناك أية احتمالات لقيام عصيان داخلي في البلاد ، فهذا أمر مفروغ منه ولاداعي لمناقشته لأنه لايمكن حصوله . غير أن الأمر المهم الذي أغفله أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا ، والعنصر الهام الذي لم يخطر ببالهم هو : النشاط الصهيوني .

الحركة الصهيونية

لم يكن هذا العدو الثالث ، بعد العرب في الداخل والانكليز والفرنسيين في الخارج ، في حسابات الأتراك ، ولا العالم كله .

حتى ذلك التاريخ ، لم يدرك الأتراك أن من يتخذ القرارت ويحدد الاتجاهات السياسية في حزب الاتحاد والترقي ، ويدفع بالشخصيات إلى قمة المناصب وينزل بها ، ويتحكم بأمور الحزب المادية والمعنوية هم الصهاينة ، فلم تكن تلك الشخصيات تظهر هذا التأثير الصهيوني عليها .

ولم يكن في حسبان الدولة التركية ، هذه القوى الصهيونية الخفية التي ستنزل بهم أكبر ضربة عسكرية عما قريب .

ومع دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى ، لم تأخذ الحكومة التركية أية أهمية للموسويين على أراضيها سواء في استنبول أو في

فلسطين ولم يدخل في حساباتها أنها ستلقى ضرراً كبيراً من تواجد هذه الفئة على أراضيها .

في احضان الجواسيس

وهكذا ، لم يكن جمال باشا يعلم أنه يحتضن كل ليلة ثعباناً قاتلاً ، حتى أن هذه الفكرة برمتها لم تكن لتخطر على باله .

ولو اقتصر الأمر على هذا الحد لكان مقبولاً ، فالضباط العائدون من الجبهة لقضاء اجازاتهم ، في بيروت أو الشام في فندق فيكتوريا أو الحي الموسوي ، يرتمون كل ليلة في أحضان الموسويات الجاسوسات ، لكي ينسوا ويزيحوا عنهم تعب الحرب وهمومها .

حقاً ، كم هو حزين ومرّ ، مع دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى، أن يرتمي قادة وضباط الإمبراطورية في أحضان العميلات الموسويات، اللواتي يعملن لحساب الحكومة الانكليزية، ودمار هذه الإمبراطورية .

سارة وفيصل

كان الأمير فيصل ، ابن الحسين ، ينوي بالفعل مساعدة جمال باشا فكان يتدارس مع جميع رؤساء القبائل العربية الملتفين حول جمال باشا أمور التحضيرات للحملة الثانية على قناة السويس . وكانت سارة تتعقب هذه الأمور ساعة بعد ساعة ، وتراقب قوة جمال باشا العسكرية التي تزداد يوماً بعد يوم .

فقررت توجيه ضربة داخلية له ، وكان هذا في الحقيقة هدف الاستخبارات الانكليزية المتعاونة مع الموسويين ، فلقد آن الأوان لأن تظهر سارة على الساحة ثانية . فقررت على الفور ، مقابلة الأمير فيصل بن

الحسين الموجود في الشام ، والذي مازال بضيافة جمال باشا منذ وقت طويل .

بالمختصر ، كان جمال باشا صديقاً مزدوجاً . فطلبت سارة من رئيس أركان الجيش الرابع الباشا علي فؤاد أن يتوسط لدى الأمير فيصل ليقبل بأن تتعرف عليه .

الذنب لسارة

لم يقبل الأمير فيصل بادىء الأمر بوساطة الباشا علي فؤاد فقال له الباشا : « يا سعادة الأمير ، إن الآنسة عالمة ، كما أنها صديقة قائد جيشنا جمال باشا ، ومن المقربين إليه ، فلا أرى ما يمنعكم من استقبالها .

فرد عليه فيصل : إني أتفهم الوضع يا سيد ولكنكم تعرفون أن مخالطة النساء محرمة علينا وعليكم تقدير ذلك .

فضحك علي فؤاد باشا قائلاً : يا سعادة الأمير ، دع هذا الذنب للآنسة سارة، فهي موسوية ، وليس على الفتيات الموسويات جناح من مخالطة الرجال. لقد اعلمتني الآنسة سارة أنكم ستسرون جداً لمعرفتها ، على كل حال أنا أدعوكما معاً لحضور حفلة تقيمها الحكومة ليلة غد .

كان الأمير في تلك الأيام يشك في كل من حوله ، فراح يفكر بما سيحصل من وراء هذا اللقاء ، وكانت المخاوف قد دخلت قلبه .

وفي مساء اليوم التالي ، ذهبت سارة إلى منزل علي فؤاد باشا ، وكان جمال باشا آنذاك موجوداً في بيروت ، فلم يحضر الوليمة في منزل علي فؤاد باشا.

كان يجلس على المائدة ، بالإضافة إلى رئيس هيئة التفتيش في الجيش الرابع عوني باشا ، وسليمان بك العسكري الذي قدم من بغداد إلى الشام ، بعض الضباط الشبان من هيئة الأركان .

في تلك الليلة ، لم تمس يد الأمير فيصل أي كأس من المشروبات ، رغم

أنه كان يحتسي بعضها سراً من وقت لآخر[1] كما لم يتكلم ، إلا حين كان يرد على الأسئلة الموجهة إليه باختصار وتواضع شديدين .

في حين كانت سارة ، وسط الضحكات العالية ، تسأل سليمان بك العسكري وعوني باشا ، أسئلة متعددة من بينها أسئلة ذات أهمية بالغة وطابع عسكري ، كان سليمان بك لايرفع نظره عنها وكانت لاتغيب بنظرها عن الأمير فيصل لتراقب باستمرار رد فعله إزاء الأسئلة التي تطرحها والأجوبة التي تتلقاها .

فخ سارة

خرج المدعوون بعد الغداء ، إلى حديقة المنزل واجتمعوا حول بركتها . التي نجدها عادة في معظم البيوت الدمشقية تتوسط الحدائق المترامية حولها وانزوت سارة مع الأمير فيصل في أحد أركانها ، وبدأت معه حديثاً ، بلغة عربية جميلة قائلة : « لقد احضرت لكم سلاماً من والدكم » .

وفوجىء الأمير بهذا الكلام ، ترى ماذا تقصد هذه الفتاة الجميلة .

فقال لها : لم أفهم ما قلتِه يا آنسة ،

فتابعت سارة تقول : يا سعادة الأمير ، لقد حمّلني والدكم سلاماً لكم ويأمركم أن تتركوا الشام على الفور وتعودوا إلى مكة .

لم يفهم الأمير فيصل ما قالته سارة ، وراح يتأمل صديقة جمال باشا هذه ويخشى الوقوع في شباكها. ويفكر : هل من المحتمل أن يكون جمال باشا هو الذي أعد هذا الفخ له ؟

«يا سعادة الأمير إن والدكم يأمركم بالعودة في الحال إلى مكة» .

قالت سارة مكررة .

---

(١) على ذمة الكاتب .

فسألها الأمير : « كيف استطعت مقابلة والدي يا آنسة ؟ » .
وكان يعرف أن الاتصالات مع مكة تأخذ مدة طويلة من الزمن ، فكيف لفتاة مثل سارة أن تقيم اتصالاً مع والده وبهذه السرعة .
وقالت سارة :
يا سعادة الأمير، إن كنت ترغب في إرسال أي نبأ لوالدك فأنا جاهزة لإرساله .

الانكليز اعداؤنا

صمت الأمير فيصل ، ثم قالت سارة فجأةً :
« ياسعادة الأمير لقد اتصل ، والدكم الشريف حسين بالانكليز واقام معهم علاقات ود وتفاهم . وسوف تصل إلى مكة في الأيام القليلة القادمة بعثة انكليزية للتفاوض مع والدكم ومعكم . وإن حضور هذه البعثة إلى مكة متوقف على جوابكم .
مرة أخرى لم يصدق الأمير فيصل ما يسمع : لاشك أنك تمزحين يا آنسة ، فأنا ووالدي موالين للحكومة العثمانية ، ونحن والمسلمون ملتفون حول خليفتنا ولقد تعاهدنا على ذلك . إن الانكليز أعداؤنا ، فماذا يمكننا أن ننتظر منهم ؟
فأجابت سارة : يا سعادة الأمير ، عليكم توقّع مالا يخطر ببالكم من الانكليز . ألا يسعى رؤساء القبائل العربية لتحقيق امبراطورية عربية على الأراضي العربية ؟ أليس حلم العرب انشاء امبراطورية تمتد من جبال طوروس وحتى بلاد اليمن ؟ إن الحكومة العثمانية آيلة للسقوط وهاهي الدول الأجنبية تحلم باقتسامها، فالروس يحلمون بالاستيلاء على البحر الأسود ومنافذه، وفرنسا تحلم بسوريا ولبنان، ألستم على علم بكل هذا ؟ فمنذ عدة سنوات قام تفاهم بينها وبين بعض السوريين واللبنانيين. والانكليز يريدون

الاستيلاء على كل المنطقة العربية، من فلسطين مروراً بالسعودية ومكة والمدينة وجدة. ألا ترغبون في أن تكون هذه الأراضي تحت سيطرة أمة واحدة! ألستم أولى الناس بسيادة هذه الأراضي باعتباركم أحفاد رسولكم محمد .

نحن موالون لجمال باشا

كان فيصل مندهشاً يكاد لايصدق ما تقوله ، وما لبث أن عادت إليه المخاوف والشكوك فقال :

« كلا يا آنسة، أنا سأدعم وسأساعد جمال باشا، وسوف نقوم بإرسال ما لدينا من الجيوش إلى فلسطين ، لمساعدة ودعم قوات الباشا .

فضحكت سارة بصوت عالٍ وقالت للأمير : « يا الهي أيها الأمير ، أنا فقط أعلمكم بقرار والدكم. وأقول بأن عليكم الرحيل إلى مكة فوراً. وإن لم يحصل هذا، فعلى الأغلب أنكم ستتأرجحون على أعواد المشانق التي يعدها جمال باشا . لاوقت لديكم ، أرجوكم عودوا إلى مكة ، أرجوكم .

فأجابها قائلاً : آنسة سارة ، لقد حيرتني ، كيف أتأكد من صحة كلامك وأنكِ فعلاً تحملين إلي رسالة من والدي ؟ أرجو المعذرة ولكن كيف لي أن أصدق كلامك هذا ؟ أليس محتملاً أنكِ تخدعيني ؟

فأجابته سارة : هذا أمر يسير جداً يا سعادة الأمير . لو سمحتم ، بإمكاني أن آتيكم برسالة عليها ختم والدكم .

ـ وهل هذا ممكن حقاً ؟ سألها الأمير فيصل .

ـ طبعاً يا سعادة الأمير . وبأقصى سرعة ممكنة ، حاولوا أن تكونوا على صلة مع جمال باشا ليكون أكثر ثقة بكم .

لاتهتمي ولا تقلقي بهذا الشأن يا آنسة !

عشيق أوديت

لم تشأ سارة إطالة الحديث مع الأمير ، فاصطحبته إلى جانب البركة حيث يقف سليمان بك ويتحدث بحرارة مع عوني باشا .

قالت سارة :

ـ ما الأمر أيها القائد ألْم تستطع اقناعه ؟

ـ إقناع مَن يا آنسة ؟ وبماذا ؟ قال سليمان بك .

ـ ألم تستطع إقناع الباشا بالتعرف على السيدة أوديت ولقائها ؟

فضحك الباشاوات الذين كانوا ملتفين حولها .

كانت أوديت معروفة في تلك الأزمنة ، فهي سيدة متزوجة ، هربت من بيروت ، والتجأت إلى عوني باشا ، وأمطرت له دموعاً سخية ، لتقنعه بحبها له ، بعد أن التقت به في إحدى الولائم التي أقامها جمال باشا .

كانت السيدة أوديت متيمة بالباشا ، تنتهز كل الفرص لتشرح له ذلك، حتى أنه بدأ يشعر بالانزعاج وهاهي سارة الآن تسخر منه .

كان عوني باشا إنساناً مستقيماً ، وشريفاً وصاحب فضيلة .

ورغم أن معظم الباشاوات أقاموا علاقات مع الفتيات الموسويات ، إلا أن عوني باشا لم يتقرب إلى أي منهنّ . وتحاول سارة بالحديث عن أوديت والباشا ، أن تلفت انتباه الحاضرين إلى تعصب الباشا ، وتأكيد هذا الأمر أمام المدعويين .

ذهبت سارة إلى بيروت بعد لقائها بالأمير فيصل حيث التقت في اليوم التالي مع جمال باشا. وكان الباشا في تلك الليلة محتداً . عاد الساعة ١٢ ليلاً إلى الكوخ وراح يجول في الصالون ذهاباً وإياباً ، وقد سيطر الغضب عليه . فتوجهت إليه سارة قائلة :

ـ ماالذي يزعجك إلى هذا الحد يا سعادة الباشا ، هل يمكنك أن تطلعني عليه ؟

فاجابها الباشا : إن السفن الفرنسية تجوب شواطئنا ، ذهاباً وإياباً وتجري اتصالات مع بعض اللبنانيين الحقيرين .

إنهم يقولون للفرنسيين « نحن هنا مضطهدون والأتراك يقتلوننا » . ويشتكون إلى الباب العالي علماً بأنني أساند المسيحيين في هذه البلاد أكثر من المسلمين وأحميهم .

إن المسيحيين هنا في رغد من العيش ، في حين أن المسلمين يموتون جوعاً ، طبعاً لا أحد يرى هذه الأمور . وعلاوة على ذلك فالصحافة في مصر تشن حملة دعائية مضادة بحقي ، سوف أسحق رؤوسهم كلهم .

ـ أنتم على حق يا سعادة الباشا ، يجب اعدام هؤلاء الاصلاحيين .

وبحركة ملؤها الغضب والثورة ضرب الباشا بعصاه على الطاولة وصرخ بصوت غليظ :

سوف أعدمهم يا سارة ، سوف أعدمهم ، لن أدع خونة الوطن يعيشون ، سوف أشنق هؤلاء الكلاب أذناب الفرنسيين والانكليز . لايمكن لمثل هذه الأمور أن تستمر في وطني بل أنا لا أسمح بحدوثها أصلاً .

جمال باشا ينفث اللهب

استيقظ الباشا في صباح تلك الليلة باكراً وأرسل إلى الضابط المسؤول بالأوامر التالية :

اجروا اتصالات فورية مع الالمان ، ليرسلوا إلى ساحل بيروت غواصة أو غواصتين . لم نعد نحتمل تجوال السفن الفرنسية والانكليزية على امتداد هذا الساحل . قدوم الغواصات إلى ساحل بيروت سوف يرفع من معنويات الشعب . أبلغوا أوامري هذه إلى القيادة الالمانية .

وأثناء تناوله فنجان قهوته الصباحية أطلع جمال باشا سارة على خططه : إن قدوم هذه الغواصات سوف يحسن من معنويات المواطنين ويزرع

الذعر في قلوب الخونة . ولن يستطيعوا بعد اليوم الاتصال بالسفن الفرنسية وسوف نسمع قريباً نبأ إعادة فتح خطوط الملاحة البحرية ، وتزول المجاعة من البلاد .

ـ إنها لفكرة رائعة ذكية يا سعادة الباشا ، لن تجرؤ السفن الفرنسية والانكليزية بعد اليوم على التجول قرب السواحل اللبنانية .

رفع المعنويات

لم يغادر جمال باشا الكوخ في ذلك اليوم ، وكان الضباط يأتون ويذهبون ويأخذون تعليماتهم من الباشا . وفي الوقت نفسه ، كان الباشا يجري اتصالاته مع القدس والمدينة والشام ويعطي أوامره للقائمين على قيادة تلك المدن .

وكان الضباط الالمان والنمساويون يحملون أوامر جمال باشا إلى قياداتهم ويعيدون إليه أجوبتهم واقتراحاتهم ومشورتهم .

لم يوافق الالمان بادىء الأمر ، على ارسال غواصة إلى ساحل بيروت ، ولكن بعد اصرار الباشا الشديد وافق الالمان على تنفيذ طلبه .

ومع دخول الغواصة الالمانية السواحل اللبنانية ، قامت القيادة التركية والالمانية بإعداد مراسم احتفال خاصة لها ، حيث كان المواطنون قد اندفعوا إلى الساحل لمشاهدتها .

كان وصول الغواصة إلى بيروت حدثاً هاماً حقاً ، من شأنه رفع معنويات المواطنين ، إذ أنهم ، وبدخول الغواصة إلى ساحلهم ، شعروا بارتياح كبير وانبعث أمل انفراج أزمتهم في قلوبهم فدخول الغواصة إلى ساحلهم يعني لهم اعادة فتح الملاحة في تلك المنطقة وزوال الجوع من مجتمعهم.

وهكذا لم نعد نسمع عن الخونة المتعاملين مع الفرنسيين ، وانقطعت صلاتهم وتوقفت الاتصالات التي كانوا يجرونها معهم .

لاشك، أن سارة ستكون من بين الذين سيزورون الغواصة البحرية حتماً، فرافقت مجموعة من الطلاب والمحبين للالمان وتوجهت إلى الغواصة، حيث تم استقبالها بحفل رفيع المستوى، وفتحت زجاجات الشمبانيا على شرفها .

سارة تجمع المعلومات

استطاعت سارة ، بزيارتها هذه للغواصة الالمانية ، أن تجمع أكبر قدر من المعلومات عنها ، حتى أن ما حصلت عليه من معلومات فاق ما كانت تتوقع ، كانت سعيدة جداً في جولتها ذلك اليوم . وكانت ، بمعاونة أفراد شبكتها التجسسية ، ترسل المعلومات التي تحصل عليها إلى السفن الانكليزية، فقد كان الاتصال مع السفن الجاثية على بعد بضعة أميال أمراً سهلاً في تلك الآونة .

كان ألكسي شقيق سارة من بين الضباط المسؤولين عن تلك السفن الانكليزية ، وكان ينقل بدوره هذه المعلومات الوافدة من سارة ، إلى القيادة العسكرية الانكليزية والجنرال اللنبي كما يمكننا أن نقول : إن سارة وشقيقها كانا يقومان بأسرع وأهم اتصالات في ذلك العصر .

رسالة بالشيفرة

بعد خمسة أيام ، وصلت رسالة إلى سارة طال انتظارها لها . كانت مرسلة من أمير مكة الشريف حسين ، مكتوبة بالشيفرة ، وموجهة لابنه الأمير فيصل ، ورسالة أخرى تحمل أخبار الحدث الثاني الذي كانت سارة بشوق لحدوثه إذ أبلغت بأن البحرية الانكليزية والفرنسية ، انطلاقاً من سواحل اسكندرون ، بدأت تمطر نيران مدفعيتها حتى سواحل فلسطين .

بعد أن كان وصول القوات الفرنسية والانكليزية إلى السواحل السورية واللبنانية متوقعاً بين ليلة وأخرى .

لقد كان جمال باشا في حيرة كبيرة من أمره ، لايعرف ما يفعل أو

كيف يتصرف . الجيش في الجبهة جائع ، ومقاومته ضعيفة ، والقصف المدفعي طال كل السواحل ، زد على ذلك البرقيات المتضاربة التي ترد إليه من استنبول ، كل ذلك جعله يتخذ قرارت متعاكسة وارتجالية ، وقام باجراء تعيينات سريعة لتفادي الموقف .

كان في قرارة نفسه يخشى من فقدان سلامة الوطن ففي كل مرة يصدر فيها أوامر وتعليمات لصالح الوطن ، يحصل على نتائج سلبية غير مرضية .

فقرر جمال باشا ، جمع المسؤولين عن حركة الإصلاح في سوريا ولبنان، والسياسيين والصحفيين منهم ودعوتهم إلى الجبهة في فلسطين .

ورغبة منه بإطلاع هؤلاء المسؤولين على واقع الأمور توجه إليهم بالخطاب التالي :

اخوتي المحترمين .

الحركات الإصلاحية حديثة العهد في بلادنا ، حتى في فترة ما قبل الحرب ، إن حزب الاتحاد والترقي ينادي بالحرية والمساواة والعدالة والتآخي ونحن أبناء الجمعية التي اسقطت المستبد السلطان عبد الحميد . غايتنا رفع راية الاسلام الواحدة ، وتجسيد الفكر الاسلامي الواحد على كافة الأراضي التركية .

إنكم اليوم تشاهدون أننا نقاتل العدو على كافة الجبهات . فلندع إلى الله عز وجل أن ينصر الدولة العثمانية في هذه الحرب ، وسوف تصلون إلى تحقيق اصلاحاتكم عبر هذا الطريق وهذا التفاهم . فكل من يثبت عليه تعاونه مع العدو سوف يقدم إلى المحكمة العرفية التي ستشكل في عاليه وسوف يحكم عليه بالإعدام دون تردد ، ودون هوادة .

سوء تفاهم

لم يكن لهذا الخطاب الذي ألقاه جمال باشا في الجبهة وقع طيب في صفوف مستحقيه من الاصلاحيين . فلقد قوبلت عباراته التهديدية ببرود وحذر شديدين .

وتوصل الاصلاحيون إلى القناعة التالية : « لقد دعانا جمال باشا لكي يهددنا »

وحقيقة الأمر ، أن جمال باشا ، كان يهدف من وراء زيارته ودعوته لهؤلاء المسؤولين والإصلاحيين ، إطلاعهم على قوته وواقع الجيش في الجبهة ليس إلاّ، وأما سبب التهديد الذي بدرمنه في نهاية الحديث فكان يقصد به من يقيمون اتصالات وعلاقات مع الانكليز والفرنسيين . وعلى أثر ذلك ، وجد الإصلاحيون ضرورة التفاهم السريع مع الانكليز والفرنسيين خوفاً من تهديداته المبطنة .

الدولة الموسوية

بعد أن قام جمال باشا بزيارته للجبهة الفلسطينية برفقة الإصلاحيين وإطلاعهم على واقع الأمور ، عاد إلى بيروت . كانت سارة بانتظاره هناك . وفي تلك الأثناء ، كانت السيدة الشابة قد أجرت اتصالات ومقابلات مع الإصلاحيين الدروز والمسلمين ، ورؤساء التجمع الأرمني ، واطلعت بمساعدة عملائها على الوضع الداخلي في لبنان . ولم تكن تتأخر عن إبلاغ الانكليز عبر تقاريرها عن الأوضاع الداخلية في البلاد وكل التحركات بعدأن أخذت دائرة الاحتجاج والغليان بالاتساع .

لقد كانت سارة تعمل لحساب الانكليز، ولكنها في حقيقة الأمر ، كانت تعمل على إزالة الإمبراطورية العثمانية من فلسطين ، وتأسيس دولة موسوية مركزها القدس .

وكانت التجمعات الموسوية تعمل ، لا لكي تحصل على امتيازات ومكاسب مادية أو مالية ، بمواجهتها للأتراك والالمان في القدس والشام ، بل هدفها الأول والأخير هو « الدولة الموسوية » وهذا هو السبب الرئيسي لتعاونها مع الاستخبارات الانكليزية .

خيبة أمل سارة

غير أن ثقة الموسويين بالانكليز لم تكن عميقة . لأن الانكليز كانوا يتفاهمون مع الدروز والعرب حول منحهم أراضٍ من الإمبراطورية العثمانية، لقاء مساعدتهم لهم .

وكان هذا يقلق الصهاينة وخاصة سارة التي كانت تعتبر الأمر مشكلة كبيرة وخيبة أمل بالنسبة لها ، فكانت تعتقد بأنه لايجوز ترك هذه الأراضي للعرب لذلك كانت تفكر في وسيلة للسيطرة على العرب واحتلالهم .

وتعتقد أن التقسيم على نحوه الأفضل ، يجب أن يكون باعطاء فلسطين وضواحيها للموسويين ، مكة والمدينة وأطرافها للشريف حسين ، سوريا ولبنان للفرنسيين .

ولايمكن تحقيق الحلم الذي يعيش في مخيلة الموسويين منذ ألفي سنة ، إلا بهذه الطريقة . كا تعتقد أنه يمكن التفاهم مع العرب على هذا التقسيم حيث أن هناك صلة قرابة بينهم وبين العرب .

وعلى كل حال ، ليس عند العرب ما يقتسمونه مع الموسويين . والملتان العربية والموسوية من أصل واحد ، فواحدهم قد اعتنق الاسلام والآخر بقي موسوياً .

المهم الآن العمل على إنشاء دولة موسوية . ولتحقيق ذلك ، لابد للموسويين من التعامل والتفاهم ، ليس فقط مع الانكليز ، بل مع العرب أيضاً .

هل فيصل رهينة ؟

بعد بقاء سارة بضعة أيام بصحبة جمال باشا في بيروت ، توجهت معه إلى الشام ، حيث كان الأمير فيصل ينتظر هناك .

وكانت سارة ترى بينها وبين نفسها ، أن الأمير فيصل ، ليس مجرد ضيف زائر عند جمال باشا ، بل هو رهينة لديه . فلقد كانت الأحداث المتتالية تبعد جمال باشا عن الأمير فيصل وتزيد الهوة بينهما . ومن ناحية أخرى ، كانت الاتصالات والمشاورات بين الشريف حسين وأنور باشا في أوجها .

إضافة إلى الاتصالات بين أنور باشا وجمال باشا التي كانت تهدف إلى التنسيق بينهما لزيادة وتعميق الارتباط مع الشريف حسين على الصعيد المعنوي على الأقل . وكان محتوى التقارير التي قدمها سليمان العسكري للباشا ، يدور حول هذه النقطة بالذات : التفاهم العربي التركي .

كما أن هناك تقارير أخرى مختلفة وتتلخص كلها في موضوع واحد يدل على أن ثورة الشريف حسين المسلحة باتت قريبة الوقوع وعلى أثر ذلك ، كان جمال باشا يتريث ويترقب ما سيفعله الشريف حسين وابنه الأمير فيصل، بصدد هذا التفاهم المرجو مع العرب .

سارة والاعتماد عليها

عند عودة سارة إلى الشام ، أقام عبد الرحمن باشا مأدبة غداء على شرف الأمير فيصل ، دعى إليها جمال باشا ، كما دعى أيضاً سارة . غير أن جمال باشا لانشغاله بأمور عديدة ، لم يتمكن من حضور هذه الحفلة .

فذهبت سارة بمفردها إلى الحفلة ، والتقت للمرة الثانية بالأمير فيصل في منزل عبد الرحمن باشا وبعد تناول الغداء ، انتهزت سارة الفرصة ، واقتربت من الأمير فيصل وأعطته الرسالة التي وصلتها من والده ، فسر بها

من ناحية ، وساورته من ناحية أخرى مخاوف وشكوك كبيرة ، وسط أفكار لاتجد لها رصيفاً ترسو فيه . حيث لم يكن يجرؤ على الاعتماد على سارة .

فهذه الفتاة اللعوب التي ترقص بين أيدي الباشا ، يمكنها أن تغدر به هو أيضاً وتخونه ... في هذا الصراع الداخلي ، أخذ الأمير فيصل الرسالة ووضعها في جيبه دون أن يقرأها فقالت له سارة : هذه الليلة لن أتحدث إليكم مطولاً ، كل ما أريده هو أن تكون جاهزاً للرحيل . بعد تأكدكم من أن هذه الرسالة فعلاً من والدكم ، يمكنكم الاعتماد علي .

أرسلوا أحداً من طرفكم لعند السيد كومباس ، صاحب محل التصوير في سوق الحميدية ، وختمت سارة كلامها بهذه الجملة .

وخرجت من منزل عبد الرحمن باشا وتوجهت مباشرة إلى فندق قصر الشام حيث كان جمال باشا بانتظارها هناك، وعند وصولها ، ابتعد الضباط الذين كانوا يحيطون بالباشا وقالت سارة للباشا : لقد قابلت الأمير فيصل في حفل غداء عبد الرحمن باشا ، وكان وجهه شاحباً ، ولم تكن ملامحه تشير إلى أنه صديق لكم ، أعتقد أنه يبحث عن أول فرصة للهرب .

فعقب جمال باشا على كلام سارة هذا قائلاً : أنا أيضاً ، في هذه الآونة الأخيرة بدأت أشك بكل شيء وبكل من حولي ، هناك أمور غريبة وعديدة تحدث في بيروت والشام والقدس ومكة ، ولاأعرف أيها صحيح وأيها زائف . فالكل يرمي بالتهم والافتراءات من حوله ، والكل يراقب غيره ويأتيني بمعلومات عنه ، ونحن الآن في مرحلة حياة أو موت.

هدفنا الأول هو سحق أعدائنا على الجبهة ، كا علينا بقناعتي لتحقيق ذلك ، عدم اثارة البلبلة بتوقيفنا لبعض الشخصيات واعدامهم علينا انتظار نتيجة هذه الحرب .

كان لابد من اعطاء الوثيقة

قررت سارة على ضوء موقف الباشا ، تزويده بمعلومات من شأنها أن تؤدي إلى توقيف بعض الشخصيات العربية .

ولكي توصل للباشا معلومات تدفعه للقيام بتوقيف وإعدام بعض الشخصيات العربية . فلابد من الاتصال بالقيادة الانكليزية وإطلاعهم على الأمر، والعمل على احداث تصدع بين العرب والأتراك لقصم ظهر هذا التفاهم القائم بينهما ، وكان عليها إيجاد حجج ومعلومات مقنعة بحق بعض الشخصيات العربية لدفع جمال باشا للتصرف إزاءها .

استيقظ جمال باشا باكراً ، في فندق قصر الشام الذي يقيم فيه ، وأثناء تناوله القهوة الصباحية، دخل شاب يحمل مصنفاً سلمه للباشا . أخذ جمال باشا المصنف وقدمه لسارة التي كانت تجلس أمامه . وقال لها :

ـ اقرئي لنا يا سارة . كانت سارة بمثابة السكرتيرة ومديرة أعمال الباشا. وكانت مسرورة جداً لهذه الثقة المطلقة التي يعطيها الباشا لها . فانحنت نحو الباشا مبتسمة وقالت :كما تأمرون يا سعادة الباشا .

أخذت سارة الملف المروّس بعبارة سري للغاية وشرعت بقراءة الأوراق الواحدة تلو الأخرى . ويا لهول ما كانت تحتويه هذه الأوراق !

طاهر باشا ، قائد الحجاز ، يطلب معونات مالية وامدادت تموينية.

ويوصي بالحذر من تحركات العرب واتخاذ تدابير لازمة بهذا الشأن .

جمال باشا الصغير (المرسيني الأصل) يعلم الباشا بوقوعه تحت نيران العدو على الساحل الفلسطيني ، ويطلب من الباشا الاسراع بتنفيذ الحملة الثانية على القناة ، قبل أن تتمكن القوات الانكليزية من الدخول إلى الساحل الفلسطيني ، كما يشتكي من القادة الألمان وذلك بسبب الخلافات الموجودة بينهما .

وفي برقية أخرى ، نبأ إنهيار الجبهة العراقية، بالإضافة إلى كل هذا،

هناك طلبات وشكاوى من ضباط وجنود الجيش الرابع .

سارة علمت بأمور كثيرة

لقد كانت هذه الأنباء والمعلومات قيمة جداً ، حاولت سارة أثناء قراءتها لهذ الأوراق ، تدوينها قدر الامكان في ذاكرتها مبدية عدم اكتراثها أمام الباشا .

وبعد انتهائها من قراءة الملف ، وقفت سارة وأعطت الملف للباشا قائلة : « هل أنت مسؤول عن كل هذه الأمور ؟ لاشك أنكم سوف تخرجون من هذا المازق وسوف تحلون كل هذه المشاكل . إن شاء الله النصر لكم » .

بعد برهة ، نزل الباشا إلى الطابق السفلي ، ودخل إلى مكتبه . حيث كان هناك اجتماع معقود بين الضباط الالمان والأتراك ، تمت فيه مراجعة أمور الحملة العسكرية الثانية على القناة .

وبعد أن حصلت سارة على بعض المعلومات الاضافية حول عصيان بعض العرب للأتراك ، قامت بإرسال كافة المعلومات والتقارير إلى الانكليز ، محاولة ، بالتعاون معهم، العمل على توسيع هوة الخلاف بين الأتراك والعرب.

أما الأمير فيصل، فقد ظل أشبه برهينة، في ضيافة جمال باشا بالشام .

سوف نترك هؤلاء الثلاثة . جمال باشا وسارة والأمير فيصل ، لبرهة في الشام ، لنلقي نظرة على روسيا ، إلى موسكو حيث تُتخذ في أيامنا هذه قرارات هامة بشأن جمال باشا .



الفصل الثالث

الروس أيضاً
يريدون اسقاط الإمبراطورية

خلال الحرب العالمية الأولى ، كانت لروسيا مطامع في أن تستولي على مدينة استنبول ، لذلك كان الروس يخططون ومنذ فترة طويلة لإسقاط الحكم العثماني ، وكان لابد ، لتحقيق ذلك ، من اللجوء إلى وسيلة تمكنهم من اسقاط هذه الإمبراطورية ، ووجدوا ضالتهم المنشودة في جمال باشا ، أحد أقوى الباشاوات في حزب الاتحاد والترقي، علاوة على توليه منصب وزير البحرية وقائد الجيش الرابع ، الذي كان على خلاف دائم مع طلعت باشا وأنور باشا .

وكان جمال باشا قد وطّد علاقات حميمة بينه وبين الأمراء ورؤساء القبائل العربية ، مما يخوّله ، عندما يرغب بذلك ، أن يصبح سلطاناً بمساعدة ومؤازرة هؤلاء العرب .

ومن خلال هذه التكهنات وهذه الثغرة ، بدأ الروس تحركاتهم واتصالاتهم بكل من فرنسا وإيطاليا للوصول إلى جمال باشا ، واصطياده من خلال طعم يرسلوه عبر قنواتهم الخاصة عارضين عليه امتيازات ومغريات وتأييده ، إذا قام بالعصيان على حكومته وإعلان استقلاله ليكون سلطاناً على العرب .

العصيان وشروطه

١ ـ اعلان جمال باشا سلطاناً على البلاد وهذه السلطنة سوف تؤول إلى أبنائه من بعده .

٢ ـ يمتد سلطانه على البلدان التالية : سوريا ، فلسطين ، العراق ، عربستان ، كيليكيا ، أرمينيا ، كردستان وسوف تعترف الدول الكبرى بشرعية واستقلال الدولة التركية هذه .

٣ ـ على جمال باشا أن يتعهد بإعلان العصيان على الحكومة مدعياً بأن السلطان واقع تحت سيطرة الالمان ويجب ازاحته عن الحكومة.

٤ ـ ستقوم الدول الحليفة ، عند شروع الباشا بالسفر إلى استنبول لاسقاط الحكومة ، بتزويده بالسلاح والأرزاق ، وسلاح المدفعية .

٥ ـ بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، ستقوم الدول الحليفة ، بدعم الباشا مالياً على أن يوافق جمال باشا على تسليم مدينة استنبول والمضائق على الشواطئ التركية إلى الروس .

٦ ـ على جمال باشا أن يتعهد ، ومنذ الآن ، بحماية الأرمن ، وامدادهم بالطعام ومستلزمات حياتهم ، وأخذ التدابير اللازمة لتنفيذ ذلك، حتى نهاية الحرب العالمية القائمة حالياً .

الاضطرابات مفيدة

وقامت وزارة الخارجية الروسية ، بعد أخذ موافقة ودعم الحكومة الروسية على الشروط المذكورة أعلاه ، في الخامس والعشرين من تشرين الأول عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ، بإرسال هذه المذكرة إلى حكومة باريس وروما بواسطة سفارتيهما في روسيا .

بالإضافة إلى ذلك ، قام وزير الخارجية الروسي ، سازانوف ، بإرسال هذا الخطاب ، لاحقاً للمذكرة ، إلى سفراء روسيا في مختلف البلدان ، حيث

جاء فيها ما يلي :

« يجب تسخير كافة ومختلف أنواع الاضطرابات الداخلية لمصلحتنا ، ولإضعاف قوة الحكومة التركية ولهذا السبب ، يجب حمل الأرمن المخلصين لنا، على ضرورة الدخول في اتصالات مع جمال باشا بشكل سرّي .

وحتى في حال عدم تمكن جمال باشا . من طرد الالمان من البلاد فإن إثارة البلبلة في أركان الحكومة العثمانية مفيد لنا .

عليكم إطلاع وزراء خارجية الدول التي أنتم فيها على هذا الوضع وبشكل سرّي وإرسال ردودكم بالسرعة الممكنة .»

كان وزير الخارجية الروسي سازانوف يرغب بخطابه هذا ، اعلام سفرائه في باريس وروما بالوضع الراهن ، واعطاءهم التعليمات اللازمة ، لإطلاع الدولتين الحليفتين لروسيا على نوايا وخطط الحكومة الروسية في ضوء الوضع الراهن بالبلاد خلال الحرب القائمة .

وهكذا ، تلقى سازانوف ، في السادس والعشرين من شهر كانون الأول عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ، البرقية التالية ، من سفارة بلاده في روما جاء فيها :

« بناءً على افادة مسؤول من الجالية الوطنية الأرمنية ، يدعى زافريف ، فإن اثنين من أعضائها ، أحدهما روسي الأصل والآخر انكليزي ، سيتوجهان إلى مصر بدعم من شخصيات أرمنية قريبة الصلة بالحكومة ، أعربا عن استعدادهما للدخول في مشاورات مع جمال باشا أرجو أخذ العلم واعلامي بموافقتكم »

وجهة النظر الايطالية

بعد مرور يومين من تلقيه لبرقية روما ، استلم وزير الخارجية الروسي سازانوف من سفيره في روما البرقية التالية :

نتيجة للاتصالات التي أجريتها هنا ، مع شخص يُدعى سوينتو ، أرى أنكم ، إن كنتم واثقين من موافقة جمال باشا على شروط مذكرتكم ، بعيدو النظر وأن خطتكم سديدة ، هذا ما قاله لي أيضاً السيد سوينتو :

فبهذا نحرم الانكليز من تحقيق مطامعهم ، بدعم من الالمان ، على الأراضي المصرية ، من هاتين البرقيتين نستنتج أن الحكومة الايطالية موافقة على قيام جمال باشا بالعصيان ، واعطائه لقب ومنصب السلطان .

وبعد مرور فترة قصيرة ، تلقى سازانوف الرد التالي من سفيره في باريس أ . ب ايزفوليكي جاء فيها :

« أبلغت برقيتكم لسعادة بريان وزير الخارجية الفرنسية فأبدى اهتمامه الشديد للاجتماع الذي سيتم مع جمال باشا ، وأوصى بعدم إضاعة الوقت ، والشروع فوراً بتنفيذ المخطط ، وسيقوم بدوره بعرضه على مجلس الوزراء لإطلاعهم عليه » .

وبعد يومين من ورود تلك البرقية إلى سازانوف ، أعلن في باريس قرار مجلس الوزراء على النحو التالي ، والذي نقله سفير بلاده هناك :

« نتيجة لاجتماع المجلس ، والمداولة مع الوزير بريان ، والذي أطلعه على أهمية الاجتماع المرتقب مع جمال باشا ، ترى الحكومة الفرنسية أن هذا المخطط حسب تصوركم وتحضيركم له ، لايتوافق مع وجهة نظرها ومخالف لسياستها في المنطقة .» .

روسيا والمنافذ البحرية

على ضوء الخطة التي وضعها الروس ، بخصوص الأراضي التي سيسلمها جمال باشا لهم عند توليه السلطنة ، طالبت فرنسا بتسليمها سوريا وفلسطين وقسم من كيليكيا لقاء دعمها لهذه الخطة ، التي ستمنح روسيا استنبول والشريط الساحلي بأكمله ، وطلب فرنسا هذا لم يكن يخطر

ببال ، وبات لابد من مراجعة الخطة وإعادة النظر فيها .

فالفرنسيون متمسكون بمطلبهم في الحصول على سوريا وفلسطين وكيليكيا وانكلترا من ناحية أخرى تعارض أن تقوم دولة عربية كبرى . حتى أنها دخلت في مناقشات حول هذا الموضوع مع الشريف حسين في مكة . ولقد صرح بريان في رأيه لي بعدم ثقته بموافقة جمال باشا على تنفيذ هذا المخطط .

وكان ردي أن الهدف من وراء هذه الخطة ، حتى في حال فشلها ، هو نشر بلبلة في كيان الحكومة التركية واضعافها ، وأن حكومتي لن تهمل مصالح انكلترا وفرنسا في هذه المنطقة .

كما أن الهدف الأخير ، هو نسف أحلام الالمان في منطقة الشرق هذه ، وذلك بمجرد ظهور عصيان داخلي في البلاد ، الأمر الذي يشكل الهدف الأول والأخير والهام لحكومتي ، ذلك ما قلته لبريان .

« أما بريان فكان يرى ، بعد أن اطلعته على أهداف حكومتي من هذه الخطة التي وضعتها ، أنه لاضرر من مناقشة خطة وزير الخارجية الروسي حول الاجتماع المرتقب مع جمال باشا ، ولكن بشرط أن لاتتخذ الحكومة الروسية أية قرارت بشأن سوريا وفلسطين ، وأن تتعهد في الوقت نفسه ، باعطاء الفرنسيين حق تقرير مصير هاتين المنطقتين . » .

وكتب وزير الخارجية الروسي سازانوف ، الرد التالي ، إلى سفير بلاده في باريس في الثلاثين من كانون الأول من العام نفسه جاء فيه :

« أرجو أن تطمئنوا السيد بريان بأنني لاأقبل الاجحاف بحق أية دولة ساعدتنا في زمن الحرب ، ولن تنسى روسيا الدول التي دعمتها وساعدتها في هذه المرحلة .

إنني أرى ضرورة موافقة وزير الخارجية الفرنسية على هذه الخطة ، كما

أطلب منه ايضاحاً حول الشروط الفرنسية » .

وفي نفس اليوم ، استلم سازانوف الرد التالي من سفير بلاده في لندن السيد أ. ب بنكندورف جاء فيه :

« لقد أعلمني وزير خارجية انكلترا السيد غري تأييده لإضعاف المقاومة التركية بإثارة البلبلة والاضطرابات الداخلية ، غير أنه أبدى تخوفه من عدم توفر الوسائط الكافية لإقناع جمال باشا بتنفيذ هذا المخطط . كما أشار إلى نقطتين هامتين ، أولهما تتعلق بالبصرة ، فالحكومة الانكليزية التي تسيطر حالياً على هذه المنطقة ، لاترى أن تلتزم بإعادتها للحكومة التركية مستقبلاً بعد تنفيذ مخططنا ، والثانية تتعلق بالمناطق المقدسة في الحجاز واستقلال عربستان ، فلابد للعرب ، بعد الحصول على دولتهم ، من مراجعة الحكومة الانكليزية لاتخاذ قرار بشأنها وقد تقدموا بطلب الاستقلال رسمياً إلى الحكومة الانكليزية .

كما أن الحكومة الانكليزية، ومن خلال تعهداتها واتفاقياتها مع الحكومة الفرنسية بشأن سوريا ، لن ترضى بقيام دولة عربية في تلك المنطقة.

وسألته ، كيف يمكن تنبيه جمال باشا إلى مخطط العرب ؟

فأجابني قائلاً :

«عندما يرى جمال باشا أن العرب تحالفوا معنا وأصبحنا مجموعة واحدة فسوف لايستطيع عمل شيء إلا أن يتماشى مع العرب وهكذا ستتعمق هوة الكراهية بينهما ولا داعي لأن نقوم بأي اجراء» .

وفي الأول من كانون الثاني عام ألف وتسعمائة وستة عشر ، أرسل سفير روسيا في باريس ايزفولكي لوزير خارجيته سازانوف ، الرسالة التالية :

وصلتني برقيتكم ، واطلعت السيد بريان على محتوياتها ، الذي أكّد لي ثانية بأنه ، رغم قناعته بالدور الذي سيلعبه جمال باشا ، ورغم اعتقاده بأن هذه الخطة قد تكون فخاً من قبل جمال باشا ، يصر على شرط اخضاع سوريا

وكيليكيا وفلسطين للحكومة الفرنسية ، بعد حصولنا على استنبول والشريط الساحلي ، لكي توافق حكومته على خطتنا بخصوص الاجتاع بجمال باشا .

« وخلاصة القول إن برقيتكم الأخيرة التي وجهتموها لبريان كان لها أثر بالغ ، واستطاعت أن تهدىء قليلاً من روعه وشكوكه . »

وفي العاشر من كانون الثاني من العام نفسه ، وصلت برقية عاجلة ، من سفير روسيا في لندن بنكندورف ، مفادها :

« لقد أعلمني السيد غري ، بما أنه ليس من الممكن اجراء محادثات مع العرب والأرمن في الوقت نفسه ، فإنه يرى تكليف الحكومة الفرنسية بتبني المحادثات الأرمنية من جانبها . وأعلمني أيضاً بأنه نظراً لاستحالة قيام محادثات بين الانكليز والعرب في عربستان والعراق ، والأرمن في سوريا وآسيا الصغرى ، فإنه يرى ضرورة ربط الحكومة الفرنسية بهذه المحادثات لضمان استمرارها وتحقيقها . »

وقال لي أيضاً : « إذا كان الأرمن يرغبون باجراء محادثاتهم في مصر ، فإن بإمكان موفدهم زافريف مقابلة ممثلي الحكومة الفرنسية في القاهرة . من ناحية أخرى أعتقد أن المحادثات بين العرب وجمال باشا ستكون صعبة . »

اتفاق

إثر تلقيه هذه البرقية ، قام سازانوف ، بتوجيه البرقية التالية على الفور إلى سفير بلاده في باريس جاء فيها :

« أنا أيضاً أدعم فكرة تكليف الحكومة الفرنسية برعاية الاجتاع المرتقب بين الأرمن وجمال باشا . أرجو أن تتفاهم مع بريان حول هذه النقطة وتضعوا الترتيبات اللازمة .

أما فيا يتعلق بمصير سوريا ، فإنني سأترك لفرنسا أمور إدارتها

حسب ما أراه ضرورياً ، أرجو اعلام بريان بذلك وأن تذكر له أنني لم أنس الأمر ، أرجو اعلامي بتفاصيل وقائع الاجتماع عند حصوله »

وهكذا ، في حين كانت الاتصالات جارية على قدم وساق بين روسيا وانكلترا وفرنسا وايطاليا ، حول احتمال اعلان جمال باشا للعصيان وتنصيب نفسه سلطاناً للبلاد ، كانت الهيئة الصهيونية في لندن ، على اطلاع وثيق بكافة مجريات الأمور ، من شبكة التجسس الانكليزية التي يعمل فيها الأخ الأكبر لسارة ، آهارون أرونسون ، الذي أوصى بالتدخل السريع لانقاذ حلم الموسويين المشرف على الزوال .

فقامت الهيئة الصهيونية بإجراء اتصالات مع وزير الخارجية الانكليزي من طرف ، وبدأت سارة من طرف آخر ، بالعمل على نشر روح الكراهية والعداء بين العرب والأتراك ، بإعطائها تعليمات للتحرك هنا وهناك وسط شبكتها الجاسوسية .

غير أن ، خطة اعلان جمال باشا للعصيان وتوليه منصب السلطان ، كانت قد نسفت أحلام الموسويين بانشاء دولة لهم في فلسطين من الوجود .

الدولة الموسوية

لأن الموسويين كانوا قد حصلوا من الانكليز على وعدٍ قاطع قبيل الحرب بإقامة دولة لهم على الأراضي الفلسطينية بعد إخراج العثمانيين منها . إلا أن الخطة الروسية ، ستترك هذه الأراضي لجمال باشا ، وسوف يستمر جمال باشا بالحكم والسيطرة على هذه الأراضي ، هل هذا شيء مقبول ؟

وغضب الصهاينة من مطاليب الروس والفرنسيين والايطاليين هذه . ولما كانت الغاية تدمير الإمبراطورية العثمانية ، فما هو لزوم تنصيب جمال باشا سلطاناً للبلاد ؟ مع أن الصهاينة الموجودين في فلسطين والاستخبارات

الانكليزية، كفيلون باحداث اضطرابات داخل الأراضي العثمانية وأن بإمكانهم حرق الإمبراطورية العثمانية من الداخل ومحو كل أثر تركي عليها .

ونتيجة لخطة الروس هذه فقد احتدمت المناقشات في وزارة الخارجية الانكليزية مع ممثلي الصهيونية بينما كانت سارة في الشام بحالة من القلق الشديد وتحسب للموضوع ألف حساب .

جاسوستان

جاءت الآنسة سيمون ، في الصباح ، لزيارة سارة في مكان إقامتها بفندق قصر الشام ، متوترة بعض الشيء .

كانت أكبر شبكة جاسوسية في العالم تتجسد في هاتين المرأتين اللتين اقتربتا من بعضها البعض ، وقبلت واحتضنت الواحدة منهما الأخرى .

ـ أهلاً وسهلاً بك يا سيمون ، قالت سارة .

ـ وبكِ ياسارة ، أجابت سيمون .

ـ اجلسي لنرى ... خيراً إن شاء الله هل هناك أمر سيىء ؟

ـ أجل ، سيىء جداً . هناك رسالة لكِ من آهارون ، هل أستطيع إعطاءها لكِ ؟ هل هناك أحد ؟

ـ كلا ، يمكنك أن تعطيني الرسالة ، فلا أحد يجرؤ على الدخول إلى هنا . فهنا مكتب جمال باشا الخاص ...

وأطلقت المرأتان ضحكاتهما ... وأخرجت سيمون الرسالة من حقيبتها وأعطتها لسارة ويداها ترتجفان . وبعد أن اتكأت سارة على الأريكة ، فتحت الرسالة وبدأت بقراءتها :

اختي العزيزة ، سارة

إن ما قدمته كان موفقاً ، إلى حد أنه سلب عقولهم . إني أتوجه إليكِ برسالتي هذه لأنك أعظم فردٍ في أسرتنا ، ولأن الكتابة إليكِ هو شرف عظيم

لي وسرور لايوصف .

إنكِ تعرفين أن جذورنا العرقية والدينية في هذه الأراضي التي ورثناها عن أجدادنا ، وهجرتنا إلى هذا الوطن ، كان لها ثمن غال دفعه أجدادنا وآباؤنا.

إن كل الجاليات الموسوية على وجه الأرض ، وكل الخزائن الموسوية في هذا العالم قد وضعت وسُخرت لهذه الغاية ، وصُرفت الملايين من القطع الذهبية لتحقيق هذا المأرب كا هيأنا للسلطان عبد الحميد الملايين أيضاً من القطع الذهبية التي رفضها بكبرياء وعنفوان لذلك حرضنا على عزله عن عرش الخلافة .

وغداً ، لو استطاع الأتراك أن يمتلكوا قوة ونفوذاً كبيرين ، فستكون عاقبتنا وخيمة أو لو أن سلطاناً مثل جمال باشا تولى الحكم ، فإن أحلامنا السعيدة تلك ستنهار ، وستنقلب هذه الديار المشمسة ، ظلمات لنا.

ولكن ، لاتستسلمي للقلق ولاتنصتي للوسواس . فنحن أصحاب الثروة وأصحاب النفوذ في هذا العالم ، لن نعود ثانية إلى تلك الظلمات .

عليكِ أن تُفهمي الطلائع الصهيونية في فلسطين ، أن كل امرأة في هذا الوطن ، كل شاب ، كل رجل ، كل فتاة ، كل طفل ، عليهم العمل على اخراج هؤلاء الأتراك من البلاد .

فعلى الفتيات الشابات هدر شرفهنّ وعفتهنّ في سبيل هذا الوطن . وعلى الشبان بذل دمائهم من أجله ، والأغنياء عليهم أن يهبوا أموالهم وأملاكهم .

لن نسمح بعودة تلك الأيام السوداء ثانية التي دامت على مر العصور، وسوف نعمل جاهدين من أجل انشاء مملكة داوود ومن أجل يهوه.

أما الانكليز الذين يعملون اليوم معنا ، سوف يقعون غداً تحت الضغوط الروسية والفرنسية والدول الحليفة ، وسوف ينكثون بعهدهم الذي

قطعوه لنا ، نتيجة لذلك .

وفي حال عدم موافقة الباشا على خطة الروس بإعلانه العصيان وتوليه منصب السلطان ، وإذا تراجع الانكليز عن وعودهم لنا بنتيجة ضغط حلفائهم أو خوفهم من خسارة الحرب . فهل نحن قادرون على دفع جمال باشا إلى إعلان الاستقلال بالمنطقة ؟ وهل يقبل الروس بمثل هذا العرض ؟ لايمكننا كشف ما تخبئه السياسة للمستقبل ولا معرفة أحداثها مسبقاً ، فكل الإحتمالات واردة .

علينا أن لانعتمد على غيرنا في تنفيذ أمورنا ، بل علينا أن نعتمد على أنفسنا وقدراتنا ، علينا أن نجتهد ونعمل على نشر روح العداء بين العرب والأتراك على كافة الأراضي العربية . علينا أن نجعل العرب والأتراك يقفون وجهاً لوجه .

« بالمناسبة ، كلف الانكليز الشريف حسين بتولي أمور العرب ، عليكِ أنتِ ، أن تحاولي ارسال ابنه الأمير فيصل إلى جدّة ، فإن ثلاثة من الشخصيات البارزة من الخارجية الانكليزية سيزورون جدّة في وقت قريب » .

احرقت الرسالة

بعد أن انتهت سارة من قراءة الرسالة، وضعت لفافة سيجارة في فمها، وأضرمت النار في الرسالة بعود ثقاب ووسط لهيب النار انكمشت الرسالة على نفسها فأخذتها قبل أن تنطفىء وأشعلت بها سيجارتها .

محتويات الرسالة جعلت سارة تسكن قليلاً ، فأخذت سحبة من سيجارتها والتفتت إلى الآنسة سيمون قائلةً :

ليس هناك ما يقلق في هذه الرسالة ، اسمعي يا سيمون ، لاأعتقد أن جمال باشا ذلك المغرور ، الجريء الشريف ، يقبل بالامتثال لطلب الروس أو الفرنسيين وينفذ مطلبهم بإعلانه العصيان وتوليه منصب السلطان .

قد تحمل هذه الأوضاع جمال باشا على الانتحار ، ولكن أن يخون وطنه، هذا أمر مستحيل .

صحيح أنه ليس على وفاق مع أنور باشا وطلعت باشا ، وهو يحاول جاهداً تجنب الأذى الذي يُوجّه إليه من الحزب ، ولكن كل ذلك ليس كافياً لدفع جمال باشا لخيانة وطنه .

أنتِ اعلم بذلك ... قالت سيمون .

وسحبت سارة نفساً آخراً من سيجارتها ، ونفثت الدخان في الهواء ، وراحت تتأمل الدوائر الدخانية المتصاعدة .

ـ أمامك الآن مهمات يا سيمون . أما أنا فسأرى فيصل وأقابله . إن فيصل هو في راحة يدي . إننا أقوى من الجيوش الانكليزية والفرنسية ، لاتهتمي لتلك الأمور .

أول أمر علينا انجازه ، هو إرسال الأمير فيصل إلى والده ، لتسهيل عقد اتفاقهم مع الانكليز . يجب أن تتسلط على كل ضابط تركي فتاة موسوية تقدم كل ليلة الخمور والتسليات ، فالضباط الأتراك مهووسون بمثل هذه الأمور . فالنساء والخمور هما من المفقودات التي لايجدونها في البريّة ، وهذان الأمران متوفران لدينا بشكل كبير .

فقاطعتها سيمون قائلة :

إن المجموعة في زمارين بانتظار أوامركِ . وهناك كمية كبيرة من الخمور في مستودعات ومعمل عتليت . لقد اتخذت التدبيرات كافة في الكُنس والمزارع ، وجيش الفتيات الشابات رهن أوامركِ .

ـ اعلم ذلك ، اعلم ذلك ، قالت سارة لسيمون

ـ هيا ، لاتتأخري أكثر من هذا ، اذهبي إلى المصور كومبياس في سوق الحميدية ، فمن المتوقع قدوم أحد رجال الأمير فيصل ليترك لي خبراً عنده . فمجرد وصول هذا النبأ ، اطلبي من كومبياس أن يعلمني به فوراً .

قبلت سارة وجنتي سيمون وقالت : فلتكن عيونكم صاحية، متأهبة، وحذار أن ترتكبوا أي خطأ . إن مهمتنا هو أن نكون عاشقات . العشق

جميل أليس كذلك يا سيمون ؟ وضحكت المرأتان .

بعد ذهاب سيمون ، تمتمت سارة أغنية بصوت منخفض . فاليوم هناك مهمات عديدة يجب انجازها . وبدأت تفكر بما سوف تفعله وهي متجهة إلى البانيو في الحمّام .

عليها أولاً ، بادىء ذي بدء ، إرسال الأمير فيصل إلى جدة ، ثم متابعة وترقب التعليمات من الاستخبارات الانكليزية .

كانت سارة قد طلبت لائحة بأسماء الأشخاص الذين يتعاملون مع السفير الانكليزي والسفير الفرنسي ، ويحضرون حفلاتهم ، فلو أتت هذه القائمة فالأمور ستستقيم .

عندها فقط سيهطل الثلج على سفوح الجبال التي يثق بها جمال باشا .

وعندها فقط سوف نشهد نتائج العداء العربي التركي .

كانت سارة تخطط لدس هذه القائمة التي تحمل أسماء شخصيات عربية تعاملت مع الانكليز والفرنسيين ، تحت أنظار جمال باشا وتضعها بمتناول يده بشكل غير مباشر .

لاشك أن جمال باشا ، سوف يثور غضبه تجاه هذا الأمر عند معرفته له. فإذا ثبتت خيانة بعضهم له ، فحدث ولاحرج ، فهل يتركهم جمال باشا يعيشون ولو لثانية واحدة ؟

الله وحده يعلم عدد الذين سيتدلون على أعواد المشانق !

أفكار في البانيو

كانت سارة تعرف تماماً نفسية جمال باشا ، فكم من الأسرار كشفتها لها تلك الليالي الساهرة ، فطبيعي أن تعرف سارة أكثر من أي انسان آخر أهواء جمال باشا ، وتعرف ما يحب وما يكره .

كانت سارة تستحم في البانيو وتفكّر ، إذا قام جمال باشا باعدام بعض

العرب ، فسوف يغضب عليه العرب ، عندها سيقوم كل طرف بقتل الطرف الآخر .

وقالت في نفسها : أجل يجب الشروع بتنفيذ هذا الأمر أولاً .

يجب أن نوقع هذه البغضاء بين العرب والأتراك المغرورين بأنفسهم .

« ولا حل إلا في رمي الأتراك وطردهم من هنا » كان هذا هو الأمر المسيطر على تفكيرها ، أثناء استحمامها في البانيو .

وما لبثت أن تغطت بالمنشفة وخرجت من البانيو إلى الصالون . وجففت شعرها وتمددت على الأريكة . وكان الهواء حاراً وساخناً جداً .

جمال باشا آتٍ

بعد فترة قصيرة ، رأت سارة الباب ينفتح ، وقبل أن تهمّ بالنهوض كان جمال باشا قد دخل إلى الصالون ، فكعادته ، كان يدخل دون أن يقرع الباب ، فقال للمرأة الشابة :

- « أنا ذاهب يا سارة »

- وتوترت أعصاب سارة .

- إلى أين يا باشا ؟

- إني ذاهب إلى بيروت ، لقد حدث أمر هام هناك .

- هل يمكنني مرافقتك يا سعادة الباشا ؟

- كلا ، فإن عدم قدومك يكون أفضل ، فهناك أمر هام علي انجازه .

- هل هناك أنباء سيئة يا سعادة الباشا ؟

- بقدر ما هي مهمة فهي سيئة ...

- يا الهي ... هل هي من النوع الذي يسبب الأذى للباشا لاسمح الله ؟ هل حصل شيء ما في الجيش ؟

- كلا ... كلا ...

- هل هو أمر سريّ أم أنني أستطيع أن أسأل عنه ؟

إن كلامك بهذه الجدية قد أثار قلقي وزرع الحزن في داخلي .

فقلّب الباشا نظره في الغرفة عدة مرات ، ثم قال بصوت خافت : سارة ، إنكِ على علمٍ بكل مجريات الأمور .

إننا في بلادنا ، نعمل على رفاه كل الأجناس والشعوب على اختلاف أنواعها وأديانها ، ونسعى لجمع المسلمين تحت راية الاسلام الواحدة ، غير أن بعض الفئات ، محاولة الاستفادة من هذا الامتياز الذي منحته الحكومة التركية للمسلمين العرب ، تعمل على تخريب الوطن وتبيت خططاً تهديمية بالتعاون مع أعدائه .

ـ يا إلهي ـ من هم هؤلاء الخونة يا سعادة الباشا ؟

لقد كانت سارة حقاً قلقة لمعرفة أولئك الخونة .

هل أمسك جمال باشا بطرف الخيط ياترى ؟ كانت سارة تفكر قلقة . وتابع الباشا قائلاً :

البارحة مساءً ، في بيروت ، قامت قواتنا باقتحام مقر القنصلية الفرنسية ، ووجدوا في خزانة مخفية في إحدى جدران القنصلية لائحة تضم أسماء المتعاملين مع الفرنسيين من سوريا ولبنان ، حتى أنه ذُكر في هذه اللائحة قيمة المبالغ التي قبضها هؤلاء للعمل معهم .

لقد أصدرت أمراً باعتقال هؤلاء فرداً فرداً وسوف أحيلهم كلهم إلى المحكمة العسكرية ، وإن لزم الأمر سوف أشنقهم .

ترتيبات سارة بلغت مرماها

وتنفست سارة الصعداء ، فالاستخبارت الانكليزية قد اعتمدت خطة سارة ، وتم اخبار جمال باشا بأمر تلك اللائحة بواسطة القائمين على أعمال السفارة الفرنسية ومجموعة بيروت الموسوية ، ونجحت بذلك مهمة سارة . التي كانت في قمة سعادتها وارتياحها .

لاأحد يدري كم من الأسماء كانت هناك مدرجة في تلك اللائحة التي وجدت في خزانة القنصلية الفرنسية السرية . يبدو أن جهاز الاستخبارات الانكليزية كان يعمل بنشاط وجدية تامّين .

فلقد قامت فرنسا ، وبناءً على رغبتها ، بتسليم أسماء الذين كانوا يتعاملون معها ، نظراً لعدم فائدتهم لها ، وبالتعاون مع جهاز الاستخبارات الانكليزية قامت السفارة باعطاء هذه اللائحة للقوات التركية عند اقتحامها للقنصلية الفرنسية ببيروت ، تتضمن أسماء شخصيات قامت بالتعاون معها في سوريا ولبنان .

الهدف من وراء ذلك وضع العرب والأتراك في مجابهة مع بعضهما البعض ولتحقيق هذه الغاية ، كان لابد للفرنسيين أن يضحوا ببعض الذين عملوا معها وأدوا خدمات لها .

غير أن خروج هذه الوثيقة إلى الوجود ، أحدث بلبلة ومخاوف كبيرة في صفوف العرب .

سارة ، سحبت جمال باشا إليها ولكن ..

على أثر تلقيه نبأ هذه الوثيقة ، قرر جمال باشا التوجه من الشام إلى بيروت في أول قطار يرحل إلى هناك .

- عند غيابكم سوف ينتابني شعور بالحزن يا سعادة الباشا .

- لاتقلقي ، فلن يطول غيابي سوف أولي أمر التحقيق في هذه المشكلة إلى الإدارة العرفية .

- يالهم من سفلة ، أولئك الخونة يا سعادة الباشا .

هل يخون المرء الوطن الذي أطعمه قوته ؟

- إن مثل هذه الأمور تحدث كثيراً ، ثم خرج من الغرفة غاضباً .

وانطلقت سارة إلى المرآة وقلبها يقفز فرحاً . وتمتمت :

ـ يا إلهي ، كم أنا سعيدة اليوم ...

لم تخرج سارة في ذلك اليوم من غرفتها حتى المساء . فقد تناولت غدائها في الغرفة ، لقد كانت تنتظر جواباً من سيمون أو خبراً من المصور كومبياس .

ـ ترى ، ما هو القرار الذي توصل إليه الأمير فيصل ؟

ماذا سيكون موقفها إزاء الرسالة التي وصلت من والده ؟

هل سيستمر الأمير في التخوف من سارة ؟ أم أنه سيعطيها ثقته ويفتح لها قلبه ؟ لو أن هذا الرجل يبعد الشكوك من نفسه ، ويشغّل عقله قليلاً ، ولو يستمع إليه ...

ونزلت سارة إلى بهو الفندق لتناول العشاء . كان البهو مزدحماً بالضباط الالمان والأتراك . ودخلت سارة إلى الصالون بخطى كلها عظمة واختار ، وجلست على المائدة المخصصة لها . الليلة سوف تتناول العشاء بمفردها ولم تبالِ بنظرات الضباط الشبان الحائرة حولها .

لكن الجميع يعلم أن سارة صديقة مقربة للباشا . وبناءً على هذه الاعتبارات لم يكن أي من الضباط يجرؤ على الاقتراب منها أو ازعاجها .

عند غياب جمال باشا ، كان صديقه ، رئيس أركان الجيش الرابع علي فؤاد باشا ، يحل محله ، فلقد أوصى جمال باشا سارة باللجوء إليه عند احتياجها لأي أمر ، أثناء غيابه .

غير أن سارة لاترغب بالجلوس مع أحد هذه الليلة . فالشيء الوحيد الذي يدور في ذهنها كان الأمير فيصل .

احتست سارة كأساً من الشراب ، واشعلت سيجارة ، وبدأت تفكر كيف ستتمكن هذه الليلة من رؤية الأمير فيصل .

لم يكن ممكناً التجول في أرجاء المدينة ليلاً ، فقد كانت أزقة الشام مظلمة وحالكة السواد . ففكرت بالذهاب إلى بيت سيمون غير أن هذا لم يكن

ممكناً أيضاً ، وخطر ببالها الذهاب إلى بيت كومبياس «وهذا أمر مستحيل» قالت في نفسها . ماذا لو ذهبت إلى منزل الأمير فيصل نفسه ؟ ماذا لو شاهدني أحد ؟ كانت تسأل نفسها كل هذه الأسئلة .

لم تستطع سارة اتخاذ قرار في أي من الأفكار التي حاولت تنفيذها ، وكانت تحتسي الكؤوس الواحدة تلو الأخرى وكانت قد انتهت من شرب زجاجة كاملة ، وبدأت بشرب الزجاجة الثانية .

كان دخان السجائر كثيفاً في بهو الفندق ، فنهضت سارة وتوجهت إلى غرفة نومها وهي في حيرة من أمرها بشأن الاتصال بالأمير فيصل . وفتحت نافذة غرفتها وتأملت مدينة الشام وسط هذا الليل الهادىء ، كانت الشام نائمة تحت سواد الليل الحالك .

وتظهر في الأفق المنازل وكأنها أشباح وسط هذا الليل المعتم .

أخرجت سارة رأسها من النافذة ، ونظرت إلى الشارع الملتف بالسواد ولمحت ظل حارسين يقفان أمام مدخل الفندق .

وفجأة ، اتخذت سارة قرارها ... سوف تذهب الليلة للقاء الأمير فيصل. وقامت فوراً بالتحرك ففتحت الخزانة الطافحة بالعديد من البزات العسكرية والمدنية واختارت من بينها واحدة مدنية ارتدتها فوق ملابسها ، وربطت البنطال بحزام نظراً لكبر قياسه ، ثم ارتدت معطفاً طويلاً أقفلت أزراره من أعلاه وحتى أسفله ، وعلقت سيفاً على خصرها ، ثم نظرت في المرآة فرأت شكلاً مختلفاً عما اعتادت رؤيته .

وضعت على رأسها احدى قبعات جمال باشا فأصبحت بذلك أشبه برجل عسكري تركي . وليس عسكرياً عادياً بل ضابطاً . وصار بإمكانها الآن التجول في أزقة الشام بكل راحة وطمأنينة .

فتحت سارة الباب ببطء ونظرت يمنةً ويسرة ، وراقبت الممر بحذر ، وبعد تردد قصير نزلت على رؤوس أصابع رجليها وتوجهت إلى الباب الخلفي للفندق ، وبدأت تسير مترنحة مثل رجل عسكري سكران وراحت تسرع الخطى متوجهة إلى مكان إقامة الأمير فيصل . واتخذت مسارها في الأزقّة الخلفية المؤدية إلى منزل الأمير ، غير أن المنزل كان على مفترق أربع طرق ، وكان هناك عند وصولها ثلاثة أو أربعة حراس يقومون بحراسته، وتوجهت سارة مباشرة ، دون أن تغير في مشيتها ، إلى الباب ، وشدت حبلاً ، سمع في الداخل إثر ذلك صوت جرس يقرع ، ثم أضيء نور وسمعت صوتاً من وراء الباب يقول :

ـ مين هاد ؟

ـ فردت سارة أنا .

ـ سأل الصوت مين أنتي ؟

ـ أنا من طرف جمال باشا .

عند سماع اسم جمال باشا ، قام البواب بفتح الباب بسرعة ، ولم يستطع تمييز القادم . ودخلت سارة قائلة ؟

هل الأمير فيصل نائم ؟

ـ كلا أجاب البواب ، إنه يقرأ القرآن الكريم .

ـ أعلمه بقدومي ، إني أحمل له نبأً من قبل جمال باشا .

ـ أمركم يا سيدي الضابط وهرع الغلام يصعد بخفة على الدرج وبعد انتظار قصير ، ملؤه القلق والخوف ، عاد الغلام إليها ثانية وقال :

ـ تفضل يا سيدي الضابط .

وصعدت سارة الدرج خلف الغلام إلى غرفة الأمير فيصل الذي كان ينتظر قدوم الضابط المرسل من قبل جمال باشا ، ولكنه دهش عند مشاهدة

الضابط قادماً إليه . فلم يكن هذا الضابط ، يشبه الضباط الأتراك الذين رآهم . بل إنه لايشبه الضباط مطلقاً . وبحركة من يده ، أمر الأمير فيصل الغلام بالانصراف ، وبعد دخول سارة إلى غرفته ، أغلق الباب ، ودار حول ضيفه يتفحص هذا الضابط التركي .

سارة . هذه المرأة المحيّرة

وخلع الضيف قبعته عن رأسه ، فانفرد شعر طويل لتظهر لجأة ملامح امرأة أمامه .

فقال فيصل في نفسه : يا إلهي .. إنها سارة ، ثم قال بصوت عالٍ سارة ، ماهذه الجُرأة ؟ كيف قدمتِ إلى هنا ؟ إنك بهذا تضعيني وتضعين نفسكِ في موقف حرج ، هل تدركين ذلك ؟

- لاتقلق يا سعادة الأمير ، لقد أُجبرتُ على هذا ، انتظرت منكم خبراً طوال اليوم ، وعند عدم ورود أي نبأ من طرفكم رأيت أنني مضطرة للقدوم إليكم ، أرجو المعذرة ، فالأمر يتعلق بحياتكم ، لذلك اضطررت للقدوم إليكم .

- حياتي أنا ؟ .

- نعم يا سعادة الأمير ، حياتكم أنتم .

- خيراً إن شاء الله ، ... ماذا حدث ؟ .

- لقد قامت القوات التركية باقتحام القنصلية الفرنسية ببيروت ، ووجدت خزانة مخفية في قلب الحائط في مبنى السفارة في داخلها قائمة بأسماء الشخصيات العربية المتعاملة مع الفرنسيين والمبالغ التي قبضوها للعمل معهم ، ومعظمهم ينتمون لحركة الاصلاح الوطنية ، ورأيت أن أعلمكم بهذا النبأ ، لأن ضمن الأسماء المذكورة في اللائحة ، أناس تعرفونهم ويعرفونكم ، هذا ما سمعته من جمال باشا ، ولقد سافر الباشا إلى بيروت اليوم من أجل هذا

الموضوع .

الأسماء الموجودة في الخزانة

أنا أيضاً سمعت بهذا النبأ يا سارة ، فلقد أبلغني بذلك اليوم مفتش الجيش الرابع أسعد الشقيري عند قدومه لزيارتي . قال لي أن جمال باشا قد تعرض لأمر خطير ، وذكر لي أسماء العرب المتعاملين مع الفرنسيين التي وجدوها في الخزانة .

- هل بينهم شخصيات مهمة ؟

فكر الأمير طويلاً ، ثم تنهّد قائلاً :

- مع الأسف كلها أسماء شخصيات هامة . وكلها من عائلات سورية ولبنانية ذات شأن ومراكز اجتماعية مرموقة . وفي حال اصدار جمال باشا أحكاماً بحق هؤلاء ، فإن ذلك سيؤدي إلى كارثة حقيقية ، حسب اعتقادي .

عند سماعها لهذه الكلمات ، سرّت سارة في داخلها ولكنها لم تظهر سعادتها للأمير وسألته :

- هل تحوي تلك القائمة اسم أحد معارفكم ، يا سعادة الأمير .

- كلا يا آنسة ، فنحن لانتعامل مع الفرنسيين وأنتم تعرفون ذلك جيداً . نحن فقط نثق بكم وبالحكومة الانكليزية بناءً على توصيتكم .

- إنكم محقون في ثقتكم يا سعادة الأمير .

- إن شاء الله ، ستظهر نتائج ثقتنا بكم عما قريب .

- إن شاء الله أجابت سارة ، لن تندموا على ذلك مطلقاً يا سعادة الأمير فقال الأمير لسارة :

لقد تفحصت بإمعان الرسالة التي أحضرتها من والدي وتأكدت من صحة توقيع وخط والدي . أشكرك على ذلك .

وأرى أنني أستطيع الوثوق بك ، غير أنني بعد هذه الأحداث ،

لايمكنني التوجه فوراً إلى مكة ، حسب قناعتي . فأنا أريد أولاً أن أرى وأعلم ما سيفعله الباشا بعد عودته من بيروت . ثم أن الشخصيات التي سيتم القاء القبض عليها تشكل قوة كبيرة لنا ، وعلى جمال باشا أن لايهدر هذه القوة . فربما يكونون عوناً لنا عند قيامنا بتحركاتنا قريباً . من ناحية أخرى ، فلقد ذكر والدي في رسالته أنه يجري اتصالات مع بعض الشخصيات الانكليزية ، وأطلعني بشكل مختصر على مجرياتها . لذلك ، فوجودي هنا ، بالقرب من جمال باشا ضروري لمساعدة العرب الذين سيعتقلهم وسأضطر للمكوث هنا مدة أُخرى ، أقوم خلالها مع جمال باشا بدراسة ترتيبات الحملة الثانية على القناة وهكذا أستطيع اتمام كل مهماتي بحضور جمال باشا .

سعادة الامير . هناك مؤامرة عليك

لم يعجب سارة هذا الموقف ، لأنها كانت تريد رحيل الأمير بأسرع ما يمكن إلى جدة لملاقاة البعثة الانكليزية التي ستأتي إلى هناك قريباً .

فجهاز الاستخبارات الانكليزي سلم جمال باشا أسماء العرب الذين يتعاملون مع الفرنسيين لوضع العرب والأتراك وجهاً لوجه .

وفي هذه الحالة ستتعرض حياة الأمير فيصل أيضاً للخطر . فالاستخبارات الانكليزية ، كانت ترغب ، من وراء هذه العملية ، اعدام هذه الشخصيات العربية على يد جمال باشا . مما سيثير بلبلة وشقاقاً بين العرب والأتراك وينشر العداء بينهما فيضمن الانكليز ضربة قاضية وقاسية في الجبهة الداخلية للحكومة التركية .

أما الأمير ، فقد كان يسعى لانقاذ هذه الشخصيات من حبل المشنقة والتفتت سارة إلى الأمير قائلة :

ـ يا سعادة الأمير ، إن بقاءكم هنا يعرضكم للخطر ، خصوصاً وأن والدكم يقوم باتصالات مع الانكليز . فإن علم جمال باشا بذلك ، فسيكون

موقفكم حرجاً جداً أمام الباشا بل وخطراً ، لذلك ، أرى من الأفضل أن تغادروا الشام وترحلوا إلى مكة ، ففي ذلك فائدة كبيرة لكم ولوالدكم .

فرد عليها الأمير فيصل :

معك حق يا سارة ، ولكن أبي لم يتوصل حسب معلوماتي ، إلى أي اتفاق مؤكد مع الانكليز . فنحن ووالدنا ننوي بعد الحرب اقامة دولة واحدة تبدأ من جبال طوروس أي من مرسين وأضنه وأورفه وديار بكر مروراً بالبصرة متجهين نحو الغرب وحتى اليمن .

لاتعصوا العثمانيين

ولايمكن تحقيق هذه الدولة العربية الكبرى إلا بهذا النحو ، وإلا فلا أجد داعياً ولاسبباً للعصيان ولمحاربة جمال باشا والدولة التركية .

إننا لم نشك في أي وقت مضى من عدم مساعدة العثمانيين لنا ، أو عدم احترامهم لنا فلو أكد لنا الانكليز مساعدتهم لنا ودعمهم لنا في إنشاء هذه الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، عندها قد نعيد النظر في الأمور ونتعاون معهم .

وفي حال حدوث عكس ما نتوقعه من الانكليز فإننا لانرى أي مبرر للوقوف في وجه العثمانيين والحكومة التركية . أرجو أن تنقلي هذه الصورة لوالدي وللحكومة الانكليزية .

فردت عليه سارة بابتسامة مصطنعة تغطي وتخفي وراءها مرارة وحرقة :

ـ يا سعادة الأمير ، لقد نسيتم أموراً مهمة وحساسة في سياق حديثكم . أرجوكم أن تضعوا ما سأقوله نصب أعينكم . لاشك أنكم تعلمون بأن الفرنسيين أيضاً طرف مشارك في هذه الحرب ، وهم في الوقت نفسه حلفاء للانكليز ، فهناك تفاهم فرنسي انكليزي ، قبل اندلاع الحرب ، بأن تُمنح سوريا

ولبنـان لفـرنسـا بعـد سقـوط الإمـبراطـوريـة العـثمانيـة ، فكيـف تريـد الآن أن تتـصرف انكلـترا حيال فـرنسـا . هـل تقـول لهـا : « إني سأعطي هـذه الأراضي للأمير فيصل » .

يا سعادة الأمير : أرجوكم اعادة النظر بما تفكرون فيه ، وأن تأخذوا موضوع سوريا ولبنان بعين الاعتبار . فقال الأمير :

ـ يا آنسة سارة ، لاأعتقد أنني أستطيع أن أتخيل دولتنا الكبرى من دون سوريا ولبنان ...

ـ يا سعادة الأمير ، دع الآن موضوع رسم الحدود إلى ما بعد انتهاء الحرب ، فنحن لانعرف ما يخبىء لنا الزمن وما يخفيه القدر . المهم الآن اتخاذ قرارات مع الحكومة الانكليزية ، والمسألة بعد ذلك سهلة ويمكن مناقشتها ، عليكم ابرام اتفاقيات من حيث المبدأ معهم ، ثم تتم مناقشة تلك الأمور الجانبية بعد ذلك وحينها لابد أن يكون لكل أمر حل .

ـ كلا ، ... كلا يـا آنسـة سـارة ، يجب أن تـتم الأمـور بصـورة صحيحـة وواضحة منذ البداية ، فلا أحد يعلم كيف سيعاملنا الانكليز بعد انتصارهم ومن الصعب التكهن بما سيحدث يومها ، وعلينا منذ اليوم التوصل مع أصدقائنا الانكليز إلى صيغ تفاهم واضحة ودقيقة وصريحة . فإن كانوا موافقين على اعطائنا مناطق مرسين والبصرة حتى اليمن ، فنحن بجانبهم مؤيدون لهم ، أما في حال عدم موافقتهم ، فنحن إلى جانب جمال باشا في حملته الثانية إلى قناة السويس بجيشنا وسلاحنا في مواجهة القوات الانكليزية .

خطة الروس حسب ما تراها سارة

كانت سارة مازالت تحت تأثير مفعول زجاجتي الخمر اللتين تناولتهما أثناء العشاء ، فأطلقت ضحكة عالية ثم قالت للأمير فيصل بصوت ملؤه القساوة والجديّة : ـ ترى ، هل يعلم سعادة الأمير بخطة الروس ؟

- خطة الروس ، لا ، ليس هناك أية خطط روسية في هذه الحرب .
إن الروس مهتمون بالسواحل ، بمدينة استنبول . ماذا يمكنه أن يكون هذا المخطط الروسي ، خاصة فيما يتعلق بالأراضي العربية .
- إن للروس مخططاً دقيقاً جداً بخصوص هذه المنطقة يا سعادة الأمير. وإن تحقق هذا المخطط فإن امبراطوريتكم العربية سوف تذهب أدراج الرياح.
- ألهذا الحد يا آنسة سارة ؟ ... ما هو هذا المخطط ؟ ...
- فقالت سارة :
- الروس يريدون أن يجعلوا من جمال باشا سلطاناً على الإمبراطورية العثمانية ، وينوون اعطاءه الأراضي الممتدة من جبال طوروس وحتى سهول اليمن.
- كيف يكون ذلك ، يا آنسة ، أن يمنح الروس للباشا الذي يحاربونه مثل هذه التسهيلات وهذه الأراضي ؟ ثم ، ماذا ينوون من وراء هذا كله ؟
- سيدي ، إن الروس يرغبون في انهاء الحرب . قالت سارة .
والروس يعتقدون أنه إذا أمكنهم نسف الجبهة الداخلية للحكومة العثمانية ، أمكنهم بذلك انهاء الحرب .
- وهل يفكر الانكليز أيضاً بهذه الطريقة ؟
وهل يهدف تعاونهم وتحالفهم معنا إلى إنهاء هذه الحرب ؟
وهل تعتقدين أننا لانعرف ذلك يا آنسة ؟
- إنكم على حق يا سعادة الأمير ، فالانكليز بموافقتهم على اعلانكم ملكاً يسلكون الطريق نفسه الذي يحاول الروس المضي فيه ، غير أن الروس يسعون لتحقيق ذلك عن طريق جمال باشا ، وإلا لماذا يعرضون على جمال باشا أن يصبح سلطاناً لهذه الإمبراطورية ؟

هل كانت سارة تحاول تشويه الحقائق ؟

بعد هذه المحادثة مع سارة ، أحسّ الأمير وكأن طلقة قد اخترقت دماغه ، فقال لسارة غاضباً :

آنسة سارة ، هل لك أن توضحي من فضلك ، ماذا ينوي الروس عمله؟

ـ يا سيدي ، أرجو المعذرة ، إن الروس قد خططوا لاتفاق مع جمال باشا . مضمون هذا الاتفاق أن يقوم جمال باشا بحركة عصيان داخل دولته ، بوجه الحكومة في استنبول ، مقابل أن يمنحه الروس صلاحية تنصيب نفسه سلطاناً للبلاد ، على أن تكون هذه الولاية وراثية ، أي أن جمال باشا يمكنه أن يورث هذا المنصب إلى أولاده وأحفاده ، كما هي الحال مع والدكم الذي ينتقل حكمه إلى أبنائه من بعده ، علاوة على ذلك ، سيقوم الروس بدعم جمال باشا مادياً ومعنوياً لتعزيز سلطته وسيطرته على الأراضي العثمانية .

ـ هل هذا هو المطروح من قبل الروس ؟ أم أن جمال باشا هو الذي وضع شروط هذا التكليف وحدد مطاليبه فيه ؟

ـ لاأعلم في الحقيقة هذا الأمر ، ولكنني أعتقد أن الروس هم الذين يطرحون هذا التكليف .

ـ لابد أن الباشا قد أبدى بعض التعاون مع الروس ، مما دعاهم إلى التفكير في مثل هذا العرض .

ـ لاأستطيع أن أعلق بشيء حول هذه النقطة ، يا سعادة الأمير غير أن ما أستطيع أن أجزم به ، هو أن الفرنسيين والايطاليين ينظرون إلى هذا الأمر بجدية وبعين مراقبة ومترقبة .

ـ كيف يكون هذا ؟ ماذا تقصدين بأن الفرنسيين ينظرون بجدية إلى الأمر ويراقبون الوضع بترقب وحذر ؟ هل الأمر كذلك ؟

ـ نعم يا سعادة الأمير ...

ـ حسناً ، ولكن ، هل ستبقى سوريا ولبنان تحت سيطرة وحكم جمال باشا علماً بأن الفرنسيين لايقبلون ترك هذه الأراضي لدولة غير دولتهم .

وإذا كان جمال باشا ينوي اقامة دولته على هذه الأراضي ، والفرنسيون يطمعون بها أيضاً ، فإني لاأعتقد أن الحلفاء سيصلون إلى اتفاق وتفاهم حول هذه النقطة بالذات .

ـ لاأحد يعلم يا سعادة الأمير ، فالأمور غير واضحة الآن ... قد يقبل جمال باشا بقسم من الأراضي العربية ويتخلى عن بعض منها .

ـ لاأظن ذلك ... جمال باشا لايتورط في أمر كهذا . إنه اتحادي متعصّب ، ربما أنور باشا أو طلعت باشا يقبلان بمثل هذا الأمر ، ولاأعتقد أن يقبل بالتخلي عن السواحل لكي يتربع على عرش الإمبراطورية . ولاأعتقد أن الروس يقبلون بغير ذلك .

ـ يا سعادة الأمير ، لا أحد يستطيع أن يتوقع نتائج الحروب والسياسات ، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بما سيحصل .

واستسلم الأمير لتفكير عميق ، وفهمت سارة أنها قد أطالت جلوسها فنهضت قائلة :

ـ يا سعادة الأمير عند توصلكم إلى قرار ، أرجو اعلامي ذلك بواسطة المصور كومبياس الذي يمتلك محلاً في سوق الحميدية ، ووضعت سارة قبعتها ، وصافحت الأمير ، وعادت إلى فندق قصر الشام ، عبر الأزقة المظلمة ، ودخلت إلى الفندق من الباب الخلفي ثانية مثلما خرجت منه عند ذهابها .



الفصل الرابع

جمال باشا
يأمر بإقامة منصّات الإعدام

كانت الأنباء القادمة من بيروت سيئة جداً ، فالقائمة التي وجدت في لقنصلية الفرنسية كانت تضم أسماء شخصيات عديدة ، لم يسلم منها الكثير .

وكان جمال باشا قائماً على اجراءات التحقيق بنفسه ، فأنشأ في عاليه، مقراً للادارة العرفية ، وللمحكمة العرفية ، جلب إليه كبار الشخصيات المتهمة والمدرجة اسماؤها في القائمة ، وأغلبهم ينتمون إلى عائلات مرموقة في سوريا ولبنان ، ثم أصدر بحقهم أحكام الاعدام بعد سلسلة من التحقيقات .

لم يلتفت جمال باشا إلى دموع استرحام الذين كان يحاكمهم، فكل من كانت لهم صلات مع الفرنسيين أو الانكليز ، كان يستجوبهم ثم يصدر بحقهم قرار الاعدام ويأمر بتنفيذ هذه القرارات على الفور .

« من لم يشفق بالدولة وبي ، أنا أيضاً لن أرأف به » ذلك ما كان يردده الباشا .

وكانت نتائج التحقيق تأتي أحياناً ايجابية وأحياناً سلبية ، فكان جمال باشا يواجه المتهمين بالأوراق والوثائق والأدلة الدامغة التي بين يديه ويسألهم قائلاً : « إن كنتم تستطيعون انكار هذه الوثائق فأنا أعفو عنكم » .

كان يردد هذه الجملة أمام بعض الشبان من المقربين إليه وخاصة أبناء العائلات المرموقة التي كانت تسعى إلى الحصول على عفوٍ لهم .

غير أن أولئك ، لم يكونوا يستطيعون إنكار تلك الوثائق ، وكان الباشا مقتنعاً بأن هؤلاء المتهمين كانوا يستفيدون مادياً من تعاملهم مع أعدائه ، ويجنون أموالاً طائلة .

وتارة كان الباشا يحدثهم ويقول :

إن الفرنسيين يخدعونكم . حتى في حال خسارتنا لهذه الحرب فإن هذه الأراضي لن تؤول إليكم . فالفرنسيون لن يقيموا دولة مستقلة لكم . ولكن ما الفائدة من هذا الكلام الآن ، فقد سبق السيف العزل فكل الذين تعاونوا مع الفرنسيين في فترة ما قبل الحرب العالمية ، هم اليوم في قبضة جمال باشا ، وقد أحكم الطوق حول أعناقهم .

وعلى أثر هذه الأحداث ، وقعت بلبلة كبيرة بين صفوف الناس ، في سوريا ولبنان ، فالكل في حيرة وقلق وحالة توتر .

المنكبّون تحت اقدام جمال باشا

كانت المنطقة برمتها تحت أقدام جمال باشا ، وكان الوسطاء يتوسلون إلى جمال باشا قائلين له : « بالله عليك يا باشا ، نرجوك أن تعفو عن هؤلاء، لقد اقترفوا ذنباً ولكنهم لن يكرروا ذلك ثانية . إن كل ما جنوه أمر قديم أصبح طي النسيان . فهؤلاء تصرفوا وفق ما جاء في سياسة حركة الاصلاح. نرجوك أن تعفو عنهم » لم يكن الباشا يصغي إليهم ، بل كان يطردهم من مكتبه .

كانت الأحداث تتوالى بسرعة ، والأوساط الاجتماعية تشهد كل يوم ولادة حدث جديد ، ونبأ اعتقال مشبوه آخر . لم يعد الناس يهتمون بأنباء الحرب ، فالجميع منشغلون بالقرارات والأحكام التي تصدر كل يوم عن الداخلية وعن المحكمة العسكرية للجيش الرابع .

وكان الفرنسيون والانكليز يشنون هجمات يومية ، تارة على جبهة غزة

وتارة على جبهة سيناء وتارة أخرى على جبهة حيفا ، ويعززون قواتهم العسكرية المتواجدة على الجبهات ، في حين كانت الجيوش المسلمة تقبع تحت وابل النيران الموجهة إليها وهم في حالة يرثى لها ، جياع ومشردون ، وعدد كبير منهم أصيب بالتيفوئيد والملاريا .

ولم يكن جمال باشا مهملاً لحالتهم هذه . فكان يسعى بشتى الوسائل لإنقاذهم مما هم فيه ، وإرسال الإمدادت لهم . غير أنه كان يواجه صعوبات كبيرة في محاولاته تلك . فالأنباء القادمة من استنبول سيئة للغاية . وأعضاء حركة الاتحاد والترقي على خلافات كبيرة . ولم يكن أحدهم يجرؤ على مواجهة ومناقشة جمال باشا ، ولكن الشائعات والأقاويل كانت تصل إلى اسماع الباشا ، مما تدفعه إلى توجيه رسائل توبيخ شديدة إلى وزير الداخلية جانبولابك وإلى طلعت باشا ، مشيراً فيها إلى تلك الشائعات والأقاويل الصادرة بحقه ، ومؤنباً بل ومهدداً إياهما بقوله : « سوف أستخدم سلاحي يوماً ما في وجهكم » .

بهذه الحال النفسية المتوترة ، عاد جمال باشا من بيروت إلى الشام ليجتمع مع سارة وينسى بقربها كل تعبه .

واستقبلته سارة بترحيب حار وقالت للباشا المتعب الحزين ، القادم من بيروت ونفسه ملؤها الشجن والغضب :

ـ يا سعادة الباشا ، لقد اشتقت إليك كثيراً أثناء غيابك عني .

فأجابها الباشا : أنا أيضاً يا سارة ، أنا أيضاً .

فرغم تعبه وارهاقه كان يكنّ لسارة مودة واحتراماً بارزين .

ـ هؤلاء العرب خونة يا باشا .

ـ إن عقوبة الخونة هي الإعدام . أجاب الباشا .

إن هؤلاء يموتون خوفاً من الشدة والسوط ، وحسن المعاملة والمسايرة لايجدي نفعاً معهم ولايستحقونه أصلاً .

فأجاب الباشا : سوف يرون مدى عظمة وقوة الدولة العثمانية عما قريب .

آه يا باشا ، لولا هؤلاء الخونة والمتوحشين ، لكنتم الآن قد رميتم الفرنسيين والانكليز خارج القناة حتى مصر .

غير أنكم أصبحتم منشغلين بأمور هؤلاء الخونة وأصبحتم مضطرين لتخصيص كل امكانيتكم وجهدكم للتحقيق معهم ومحاكمتهم . فكل يوم هناك حالة جديدة وهناك عميل جديد يتم اكتشافه ، لذلك فأنا لاأحب هؤلاء العرب.

كانت سارة تقول كلامها هذا ، بمنتهى اللطف والرقة وكان قصدها من هذا التصرف المتمسكن هو كسب عطفه وشفقته عليها ، وترسيخ فكرة أنها تناصره بموقفه ، وأنها تكره العرب لايذائهم له .

فالتفت جمال باشا إلى سارة وقال :

ـ سأعدم كل مذنب يا سارة ...

ـ سمعت يا باشا أن عدداً من رجال الدين سوف يتوجهون إليكم للتوسط لديكم من أجل أولئك الخونة . إني أعرف مناورات هؤلاء العرب . فكلما واجهوا مشكلة أو تعرضوا لضغوط معينة أرسلوا رجال دينهم للرجاء والتوسل لدى السلطات للحصول على حلٍ لمشكلتهم .

ـ فقال الباشا :

لو أرسلوا لي، لا رجال دين فقط، بل مبعوث الخليفة والسلطان فإن من تثبت التهمة عليه في المحكمة، لن ينال عفوي وستنفذ عقوبة الإعدام فيه.

ـ نعم ، يا سعادة الباشا ، ولكن قد يشتكون عليك للسلطان ، فقرارات الإعدام يجب أن تصدّق من قبله .

لاتدخل للسلطان أو غيره في هذا الامر

ـ سارة ... سارة، ما هذا الذي تقولينه . إن الحاكم الوحيد لهذه المنطقة هو أنا ، فلا السلطان ولا غير السلطان يتدخل بالأحداث الجارية هنا ، حتى الخليفة بذاته لايعرف ما يجري هنا ، وكيف له أن يعرف ؟

إنه يجهل ما نواجهه هنا .

إن العفو عن الخونة أمر سهل ولو أن الأمر بيدي لعفوت عن كل الناس ، لكن من يخون وطني وأمتي ودولتي ، مصيره الإعدام .

إن التصديق على قرارات المحكمة العرفية أمر منوط بي أنا شخصياً ، وليس الخليفة . لن أرسل أية قرارات للتصديق من الباب العالي ، فمجرد صدور قرار الإعدام سأصدقه أنا شخصياً وسأنفذه على الفور .

كانت سارة مسرورة جداً لانفعال الباشا بهذا الشكل . فهذا معناه أن الخطة التي وضعتها تسير على أكمل وجه .

فارتمت على عنق الباشا وقالت له : « يبدو أنكم متعبون جداً »، ثم تابعت تقول : هل تسمحون لي بأن أريحكم يا سعادة الباشا ؟

ـ نعم فأنا بحاجة جدية للراحة ، فإني مرهق جداً ، وأرغب في النوم لبضعة ساعات .

فهيأت سارة غرفة النوم ودعته لينام ويرتاح بعد أن استلقت بجانبه.

اصرار سارة

عندما استيقظ الباشا من نومه ، أُعلم بوجود مفتي الجيش أسعد الشقيري بانتظاره في الطابق السفلي . فأرسل جمال باشا من يبلغ المفتي بأنه إن لم يكن الأمر مهماً ، فليرجئه لصباح يوم غد .

فعاد الخادم ليقول للباشا :

إن سعادة المفتي يريد التحدث إليكم بخصوص الموقوفين في بيروت يا سعادة الباشا . فأجابه الباشا قائلاً :

ـ في هذه الحالة ، فليأتِ غداً في الصباح الباكر .

كانت سارة تنصت للحديث الذي يدور بين الباشا والخادم .

الخونة ... قال الباشا متابعاً كلامه ... لقد وصل بهم الأمر بأن أطلعوا مفتينا على الأمور وطلبوا منه التوسط من أجلهم .

فقالت له سارة :

أرجوكم يا سعادة الباشا ، لاتنصتوا إليهم . ما علاقة المفتي بالسياسة والأمور العسكرية وما شأنه بهذه الأمور فهو لايفهمها أيضاً .

ـ لا ياسارة فالشقيري إنسان جيّد ، علاوة على أنه يحب وطنه وهو أيضاً إنسان شريف وصاحب فضيلة .

ـ أعرف ذلك يا سعادة الباشا ، ولكن أريد أن أقول إن رجال الدين هؤلاء ، لايفهمون بأمور السياسة .

ـ قد لايعرفون أمور السياسة ، ولكنهم يعرفون تماماً حالة الشعب النفسية والمعنوية ، وبماذا يفكر ، وبما أن الجميع يعتمدون على المفتي فقد طلبوا منه القدوم إليّ .

هذا ليس مهماً ، فلننصت إليه غداً ، وسوف نرى ونستطلع ما عنده من الأخبار .

كانت الشمس قد بدأت بالمغيب في أطراف الشام ، وبدأ يتلاشى معها حر النهار ، لتحل محله رطوبة لطيفة . فذهب الباشا ليستحم ، في حين جلست سارة وراء البيانو بثوب نومها الحريري تعزف للباشا مقطوعات يحبها ويستحليها .

وأثناء استحمامه وصل نبأ قدوم رئيس الأركان علي فؤاد باشا ، فقال الخادم لسارة :

ـ أرجو إعلام سعادة الباشا بقدوم علي فؤاد باشا ورغبته بمقابلته .

وقالت سارة : سأبلغه بذلك عند خروجه من الحمّام .

ودخل جمال باشا بعد برهة إلى الغرفة ، فعانقته سارة قائلة له :

ـ حتى وأنتم تستحمون لايتركونكم ترتاحون يا باشا .

ـ هل وصل نبأ من الطابق السفلي ؟

ـ نعم يا سعادة الباشا ، إن رئيس الأركان علي فؤاد باشا يرغب برؤيتكم وهو بانتظاركم في الطابق السفلي .

ـ حسناً يا سارة ، في هذه الحال ، أنا نازل إلى الطابق السفلي ، أرجو أن تذهبي إلى الصالون لكي نتناول العشاء . فلنتناول هذا المساء العشاء ، برفقة الأصدقاء ، هل هذا ممكن ؟

ـ أمركم يا سعادة الباشا !

اخبار علي فؤاد باشا

ارتدى جمال باشا ثيابه الرسمية ، وأخذ عصاه بيده ، ونزل بعد برهة قصيرة إلى مكتبه في الطابق السفلي .

كان علي فؤاد باشا يحمل ملفاً سميكاً وفي المكتب حيث جلسا ، قال جمال باشا :

ـ خيراً إن شاء الله يا باشا ، هل هناك أمر مهم ؟

ـ سيدي ، أجاب علي فؤاد باشا ، أردت إطلاعكم على الأنباء التي وصلتنا من مختلف الجبهات .

ـ ما هي هذه الأنباء ، أرني إياها ؟

ـ سيدي ،بادئ ذي بدء،القوات المعادية تشن هجوماً قوياً على الجبهة في فلسطين . أما في الداخل ، فبعد إلقاء القبض وتوقيف بعض الزعماء في بيروت ، بدأت عمليات هجومية تستهدف الخطوط الحديدية . وعلينا أن لاننتظر أن تبلغ الأمور حداً أبعد من هذا . أما في الجبهات الأخرى فهناك تقارير من قادة الجبهات تعلمنا بضرورة ارسال الإمدادات لهم .

ـ فقال الباشا : وما رأي جمال باشا المرسيني في هذا ؟
ـ إن عنده القناعة ذاتها ، يا باشا .
ـ هل هناك أخبار من الجيش السادس من فوزي باشا ؟
ـ فأجاب علي فؤاد باشا : إن فوزي باشا يسيطر تماماً على جبهة غزة وهو في حال جيدة . فالقوات الانكليزية في تلك المنطقة ضعيفة .
حسناً ، ما أخبار عصمت ميرالاي ؟
ـ القوات الانكليزية تتراجع أمام جيشه . فلقد قام جنوده بإنزال خسائر كبيرة في صفوف القوات الانكليزية بعد أن جمع حوله كل الفرق المنتشرة في تلك المنطقة ، وإذا أرسلنا له الإمدادات والتعزيزات اللازمة ، فسيستطيع أن ينتزع نصراً من الانكليز .
وهذا النصر إن حققناه ، نستطيع بفضله حل المشاكل الداخلية وطيها في النسيان ، علينا أن نعمل لتحقيق هذا بأسرع وقت ممكن ، يا سعادة الباشا .
ـ الحق معكم ، قال الباشا ، في هذه الحال ، عليّ التوجه فوراً إلى القدس أعلم كافة القواد أوامري التالية : خلال يومين سوف أقوم بعقد اجتماع لهم لدراسة الخطط العسكرية وبرنامج الإمدادات والتعزيزات اللازمة .
ـ أمركم يا سعادة الباشا ، سوف أعلم الآن كل القواد بأوامركم وأحيطهم علماً بالأوضاع الراهنة .
ـ هل هناك شيء مهم آخر ، يا باشا ، سأل جمال باشا .
ـ سيدي ، الصحف الصادرة في مصر ، تشن حملة عدائية إعلامية شديدة هل تأمرون باتخاذ إجراءات معينة بحقها ؟
ـ ماذا تقترحون أن نفعل ؟ سأل جمال باشا . هل تفكرون بشيء ما حول هذا الموضوع ؟
ـ كلا ياسيدي ، لم أتخذ بعد قراراً حول هذا الأمر ، لو سمحتم أن

تمنحوني فرصة لأدقق بالموضوع بشكل موضوعي أكثر . سوف أبحث عن الأطراف ذات التأثير المباشر على الصحافة في مصر .

لمعلومكم فالصحف الصادرة في مصر ، تحتاج إلى الدعم المادي لتنشر مقالاتها عبر صفحاتها ، فإن استطعنا أن نكون ذلك الدعم في مصر ، فلن يبقى للصحف المصرية ما تقوله عن الدولة العثمانية .

ـ نعم ، إنك محق في هذا يا باشا . أرجو أن تقوم بالتدقيق بهذا الموضوع . إبحث عن أصحاب النفوذ في مصر ولنتعاون معهم . ولاتدعوا أجهزتنا تتدخل في هذا الأمر .

ـ كما تأمرون يا سعادة الباشا !

دعوة الامير فيصل لتناول العشاء

عندما نهض علي فؤاد باشا يهمّ بالذهاب سأله جمال باشا :

ـ ما هي أخبار سعادة الأمير فيصل ؟

ـ إنه بانتظار أوامركم يا سعادة الباشا ، لقد التقيت به البارحة ، يبدو أنه متأثر جداً بالأحداث الأخيرة ، وقد أصابه بعض اليأس من جراء ذلك . فقد قال لي : « أرجوك يا باشا ، أن تقنع جمال باشا بعدم اعدام الإصلاحيين في سوريا ولبنان وإن كان ممكناً العفو عنهم » .

ـ أبلغه دعوتي له إلى العشاء وأنت أيضاً مدعو لتناول العشاء معنا يا باشا في الفندق .

ـ كما تأمرون يا سعادة الباشا . سوف أقوم بدعوة الأمير فيصل لتناول العشاء معكم الليلة ، وسوف أحضر معه .

سارة ترغب في الذهاب إلى القدس

بعد ذهاب علي فؤاد باشا ، صعد جمال باشا إلى الطابق العلوي .

حيث كانت سارة تعد نفسها ، جالسة أمام المرآة تسرح شعرها ، وقد تطيبت بعطورات ثمينة ، وتضع البودرة ومساحيق الزينة على وجنتيها وعندما شاهدت جمال باشا ، قامت ووقفت قائلة :

أهلاً بكم يا سعادة الباشا ، آمل أن لاتكون هناك أنباء سيئة بإذن الله .

ـ فأجاب الباشا : كلا يا سارة ، الأخبار ليست سيئة تماماً ، بالعكس ، ففي بعض الأماكن يُجبر الانكليز على التراجع .

ـ هكذا إذن يا باشا ؟ أوه أوه كم هو حسن هذا .

إن شاء الله ، في أقرب فرصة ، سوف ترمون هؤلاء الانكليز في البحر ، يا سعادة الباشا .

ـ إن شاء الله يا سارة ... إني ذاهب غداً إلى القدس فلدي اجتماع هام مع القادة العسكريين .

ـ سيدي الباشا ، هل لي أن أطلب منكم أمراً ما ؟

ـ طبعاً يا سارة .

ـ لقد اشتقت أنا أيضاً للقدس ، لزمارين ، وعتليت وحيفا ولكل شبر من أرض فلسطين ، فإن سمحتم لي فأنا أرغب برفقتكم . فأثناء اجتماعكم مع قاداتكم أذهب أنا إلى زمارين وأتفحص في مختبري أمور الأبحاث التي تجري واطلع عليها .

ـ طبعاً يا سارة ، سأكون سعيداً بذلك ، كوني مستعدة صباح غدٍ سوف نسافر بالقطار . قفزت سارة في الهواء ، وبحركة طفولية تعلقت بيديها حول عنق جمال باشا وقبلته من وجنتيه قائلة :

ـ إنكم أعظم انسان في الدنيا يا سعادة الباشا إن لكم قلباً رقيقاً وطيباً ، ورحيماً لامثيل له ...

إن التاريخ لن يرى باشا مثلكم ، فأنتم في عملكم جادون ، وحازمون

وجريئون ، أما مع النساء والضعفاء ، فأنتم رحماء وقريبون إلى القلب .

- أرجوك يا سارة ، لاتعودي إلى مدحي ثانية ...

- كلا ... كلا يا باشا ، أرجو أن تصدقوني ! لم يأتِ رجل مثلكم في الإمبراطورية العثمانية . ولن يأتي رجل مثلكم من بعدكم .

- أنتِ تقولين هذا ، ولكنكِ لم تشاهدي الصحف المصرية وعليكِ مشاهدتها . إنهم ينعتونني « بالاتحادي القاتل » ويصفونني «بالجزّار» و «السفّاح» ويقولون إن ما من أحد على وجه الأرض يتمنى بقائي على قيد الحياة ، عدا الأتراك .

- فقالت سارة : يا سعادة الباشا ، ما من صحيفة تصدر في مصر إلا وبإمكانكم شراءها بالذهب ، وبإمكانكم إن رغبتم أن تسيطروا على كافة الصحف في مصر ، وتملوا عليها ما تريدون كتابته ونشره .

- هذا صحيح يا سارة ، ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟

لقد خطرت ببالي هذه الفكرة علينا إيجاد من يتعاون معنا في مصر.

ولكن هذا المتعاون إن وجدناه هنا ، كيف له أن يذهب إلى مصر ؟

إن هذا الأمر يتعب رأسي . إن سواحلنا مليئة بالسفن الحربية المعادية فلا يمكننا ارسال أحد إلى مصر .

- سعادة الباشا ، إن لي صديقاً اسمه التير ليفي ، وهو أمريكي الجنسية، ويعمل حالياً بالتجارة في القدس . فإن أذنتم لي ، فإن بإمكاني اقناعه بالذهاب إلى مصر والعودة متى تشاؤون . ولكونه أمريكياً ، فإن السفن الانكليزية والفرنسية لن تعترضه وإن سمحتم لي ، سأقدمه لمعاليكم .

- أكون ممنوناً لكِ يا سارة ، أحضريه وعرفيني عليه حين وجودنا بالقدس .

ولكن ، هل هو أهل للثقة ؟ سألها الباشا .

- إنه جدير بثقتكم يا سعادة الباشا من كل النواحي . ثم إنه ثري

جداً . ويتقن أربع أو خمس لغات ، مليء بالنشاط والحيوية .

أعتقد أنكم ستستفيدون منه في عدة مجالات ، علاوة على كل هذا ، فله نفوذ ومعارف في مصر ، وهو على استعداد لتنفيذ ما تأمرونه به .

سر جمال باشا جداً لهذا الخبر وقال لسارة :

ـ أرى أنكِ تساعدينني ليس فقط على نسيان همومي وتعبي بل تساعدينني أيضاً في أمور الحرب ، وقد بدأتِ فعلاً بمساعدتي في أموري اليومية .

نظرت سارة إلى الأرض ، وقالت بخجل شديد :

ـ أرجوكم يا سعادة الباشا ، لاتمزحوا معي ، فأنا خادمتكم الصغيرة، المستعدة لتقديم حياتي من أجلكم ، ولو كان بإمكاني لسعيت من جبهة لجبهة أحارب العدو من أجلكم .

ـ مرحى لكِ يا سارة ، قال الباشا .

ماذا تقترح أن أرتدي هذه الليلة يا باشا

قبّلت سارة جمال باشا من عنقه ثم لفّت يداها حول عنقه ومكثت برهة ثم قالت له : ماذا تحب أن أرتدي هذه الليلة يا سعادة الباشا ؟

ـ آه لقد نسيت ، لقد دعوت الأمير فيصل وعلي فؤاد باشا لتناول العشاء معنا هذه الليلة ، ليكن هذا بعلمك .

توترت سارة بعض الشيء ولكنها قالت :

آه ياباشا ، إن هذا المدعو بالأمير فيصل ، لم أستطع تقبله ولا الارتياح له . لاأدري ما الذي يدعوكم للتمسك به هنا ، دعوه يرحل للجبهة ليقدم لكم المساعدة برجاله وليلتحق بجيوشكم .

ـ سوف يحصل ذلك يا سارة ، سوف يحصل ذلك .

ـ إني أنظر إليه وكأنه خائن يا سعادة الباشا !

فضحك جمال باشا وقال لسارة :

لا يا سارة ، ... لا ، تنظري إليه بعين الحاقد هكذا ، ثم لاتقلقي ولاتهتمي ، إني بصدد اتخاذ تدابير بشأن حركة الخلاص العربية ، فلن يجرؤ أحد على التحرك من مكانه قط . سوف أقطع كل رأس وكل يد تتحرك ، لاتقلقي أنتِ ولا يشغلنك الأمر .

وضعت سارة يدها على صدره وقالت للباشا : آه يا باشا ، آه ، الحقيقة أنني سعيدة مطمئنة بجانبكم ودائمة السعادة معكم .

ـ لو أنكِ ارتديتِ ثياباً محتشمة فسيكون مناسباً لك هذه الليلة .

فأطلقت سارة ضحكة عالية ، ثم قالت :

ـ يبدو أن سعادة الأمير لاتسره مشاهدتي ، فهو يمتنع عن مصافحتي مدعياً أن ذلك محرم ...

ـ تلك هي عاداتهم وتقاليدهم ... قال الباشا .

ـ الظاهر يبدو لكم كذلك يا سعادة الباشا ، ولكن لكل منهم عشر زوجات في السر .

ـ سارة ، قال الباشا ، تعلمين أن ديننا يسمح لنا بالزواج بأكثر من امرأة . لذلك بإمكان الشباب أن يتخذوا لهم أكثر من زوجة وأن يمتلكوا عدة جواري . إنها احدى جوازات ديننا .

فقالت سارة : وهل أنا الآن جاريتكم يا سعادة الباشا ؟

ـ كلا ، أجاب الباشا ، أنتِ عشيقتي وحبيبتي .

فقالت سارة بصوت متوسل :

ـ أرجوكم يا باشا، أن لاتعشقوا ولاتحبوا ولاتلمسوا غيري ، فلو حدث ذلك فإني سأموت، بل سأنتحر، وسأقتل كل تلك النسوة اللواتي ستعشقهن .

لو شئتم أن تقضوا أوقاتاً ممتعة مع غيري ، فإني لاأعترض على ذلك، ولكن أن تعشقوا غيري فهذا أمر لاأستطيع تحمله .

أنا لست زوجتكم ولا عشيقتكم بل أنا جاريتكم وإني راضية بهذا ، بشرط أن لا تكون لكم جارية غيري ، أرجوكم يا باشا !

كان جمال باشا مندهشاً يسأل نفسه ماذا حصل لسارة اليوم .

ـ خيراً يا سارة ، هل شاهدت امرأة تدخل هذا المكان ؟ ما سبب كلامك هذا ؟

وذرفت سارة دمعتين ثم قالت :

ـ لست أدري يا باشا ، فأنا خائفة خوفاً شديداً من أن أفقدكم ، أريد مرافقتكم حتى القدس ، لأني خائفة جداً من تواجدكم في بيروت والقدس وسط الخونة الذين ملؤوا الوطن ، كما أنني قلقة جداً من أن تأتي امرأة أخرى وتحتل مكاني ، فلو حدث أن واجهت مثل هذا الموقف تأكدوا تماماً يا سعادة الباشا بأنني سأنتحر .

ـ سارة ، لاتستعجلي في اتخاذ قرار الانتحار هذا ، فليس هناك ما يستدعيكِ للتفكير به ، ثم دعي هذه الثرثرة جانباً واذهبي وارتدي ملابسكِ ، فالضيوف سوف يصلون عما قريب .

مسحت سارة دموعها ، وعادت ثانية وجلست أمام المرآة وبدأت ترتب شعرها وتكمل تجميل وجهها . وارتدت في تلك الليلة ثوباً ، بأكمام طويلة وصدر مغطى ، أسود اللون طويلاً يستر ركبتيها .

ونزلت بصحبة جمال باشا إلى صالون الفندق ، لتناول العشاء وعند دخول الصالون وقف كل الضباط الأتراك والألمان المدعوون إلى العشاء ، وأدوا له التحية ، حيث أُعدت للباشا وضيوفه مائدة وسط الصالون .

وكان الأمير فيصل وعلي فؤاد باشا . قد وصلا إلى الفندق واتخذا مكانهما على مائدة العشاء قبل وصول الباشا ونزوله إلى الصالون .

فصافح جمال باشا الأمير فيصل بحرارة وقال :

ـ كيف حالكم يا سعادة الأمير ؟ ما أخبار والدكم العزيز ؟ أتمنى له

الصحة والعافية .

ـ حمداً لله أن دولتنا، بحماية العثمانيين ، بخير وأمان يا سعادة الباشا .

أجابه الأمير فيصل .

ـ الحمد لله أجابه الباشا .

نظرات الأمير فيصل لسارة

كان الأمير فيصل حريصاً على أن لاينظر إلى سارة الجالسة بالقرب من جمال باشا . وحاول جاهداً ألا تلتقي عيناه بعينيها ، فلم يكن يرفع طرف نظره إلا للتحدث مع الباشا . وعند انتهاء الحديث كان الأمير يطأطىء رأسه ولاينظر إلى أحد أما سارة ، فكأنها في تحدٍ مع الأمير ، لم تكن تكف عن النظر إليه والتحديق به ، وهي تتناول قطعة الدجاج من أمام جمال باشا .

كان الأمير فيصل يظهر كل دلائل الاحترام الشديد لجمال باشا . والباشا يبادله هذا الاحترام بتصرفه اللائق والمحترم تجاهه . فامتنع هذه الليلة، على غير عادته عند تناوله العشاء ، عن تناول المشروبات تقديراً منه واحتراماً لوجود الأمير فيصل بين المدعوين للعشاء .

حتى سارة لم تطلب جلب أي مشروب إلى المائدة . رغم أنها هذه الليلة، لم تكن مرتاحة الأعصاب ، فانعكس ذلك على ابتساماتها وضحكاتها التي كانت ترميها هنا وهناك مملوءة بالسموم والحقد ، وكأنها كانت تستهتر بكل الموجودين على العشاء .

والتفت جمال باشا إلى الأمير فيصل قائلاً :

ـ إننا ذاهبون إلى القدس صباح غدٍ ، فإن كنتم ترغبون ، بإمكانكم مرافقتنا ، فربما تشعرون بالضيق من بقائكم في الشام .

ـ كما يشاء سعادة الباشا ، فإن كان تواجدي معكم يعود بالفائدة

عليكم ، فلا أرى مانعاً من مرافقتكم في رحلتكم إلى مدينة القدس .
ـ واندفعت سارة لجأة تقول :
ـ ستتمكنون من تغيير أجوائكم وتجددون نشاطكم ، ثم تابعت :
أنا أيضاً سأرافقكم يا سعادة الأمير ، إن هواء فلسطين مختلف عن هواء الشام ، أنا أيضاً لشوقي لوطني رأيت أن أرافق سعادة الباشا ، وفي حال تشريفكم سوف أعرفكم على بلدتي في فلسطين .
ـ سيدتي ، مادام سعادة الباشا قد أمر بذلك ، فأنا آت معكم لامحالة.
كان الباشا قد وجه الدعوة للذهاب إلى القدس إلى الأمير فيصل بحجة فتح حوار وحديث معه ، ولم يتوقع أن يتحول الأمر إلى الجدّية خصوصاً بعد مداخلة سارة وحديثها مع الأمير .

سارة تطلق ضحكة صفراء

ولجأة مرت في رأس جمال باشا فكرة الاستفادة من قدوم الأمير فيصل إلى القدس . فإن تحركاته ضمن المدن برفقة الأمير فيصل سيكون لها تأثير أكبر على العرب لدى رؤيتهم له برفقته .

فعندما يصلان إلى القدس ، سوف يشاهد الجميع جمال باشا والأمير فيصل جنباً إلى جنب وسوف تتناقل الصحف نبأ ذهاب جمال باشا والأمير فيصل إليها وتنشره في صفحاتها . وهكذا سيدرك الناس أنه لاوجود لسوء تفاهم أو مشاكل بين العرب والأتراك بدليل ظهورهما معاً في الأوساط الشعبية والأماكن البارزة من المدينة ، إنها لفكرة ممتازة ، كان الباشا يفكر بها على هذا النحو .

ـ فلنذهب سوية قال الباشا للأمير ، في الحقيقة ، وأنا جاد في ذلك ، سوف تكون رحلة استجمام واصطياف لكم ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، سوف نقوم سوياً بزيارة تفتيشية للجبهة العسكرية ، علاوة على ذلك ، سوف

تتمكنــون مــن أداء الصــلاة في المسجـد الأقـصى عنـد زيـارتـكم لـمدينـة القـدس ، والصـلاة بجـامـع عمـر أيضـاً ونـدعـو معـاً لـوطننـا ولأمتنـا في صلاتنا هناك .

ـ طبعاً يا سعادة الباشا ، يمكننا ذلك ، غداً صباحاً سوف أرافقكم.

وسرّت سارة جداً بدعـوة البـاشا للأمير فيصل وقبـول هـذا الأخير الدعوة للذهاب إلى القدس ، فقد كانت تفكر بتلك الرحلة التي ستبدأ صباح اليوم التالي ، وأنها سترافق الأمير أطول مدة ممكنة أثناء السفر في طريقهم إلى فلسطـين وإلى القـدس ، كما كانـت تفكـر في اقنـاع الأمـير مـن جـديـد بالرحيل إلى مكة .

طوال العشاء ، لم يكن علي فؤاد باشا يتكلم كثيراً ، وبالكاد سمع المدعوين صوته . فلقد اعتقد فؤاد باشا أن دعوة جمال باشا للأمير فيصل لحضور العشاء ، كانت بهدف التحدث إلى الأمير بموضوع الموقوفين في بيروت وأمورهم .

بيد أن جمال باشا لم يتطرق إلى الموضوع مطلقاً ، وفوق ذلك ، دعا الأمير فيصل لمرافقته إلى القدس . غير أن علي فؤاد باشا قد سر لهذا الأمر . فهو أيضاً كان يعتبر زيارة الباشا برفقة الأمير للقدس أمراً ايجابياً ، والتفت جمال باشا إلى علي فؤاد باشا وقال : لقد حددت موعداً مع المفتي أسعد الشقيري غداً صباحاً ، أرجو أن ترسل من يبلغه بضرورة مرافقتي غداً في رحلتي إلى القدس .

وأبلغه أيضاً بأن يتوجه مباشرة إلى المحطة دون أن يأتي إليّ .

ـ كما تأمرون يا سعادة الباشا . سوف أبلغه ذلك اليوم .

لم يطل وقت العشاء طويلاً ، فقد كان الباشا يرغب في النوم باكراً ليكون جاهزاً صباح غد للسفر إلى القدس .

ورافق جمال باشا الأمير حتى باب الفندق ، ثم صعد مع سارة إلى

غرفة نومها في الطابق العلوي .

سارة تنعت الامير فيصل بالخائن

ولأنها غير راضية عن الأمير ودعوة الباشا له ، تمهلت سارة عند باب غرفة النوم وقالت للباشا :

سعادة الباشا ، لَمَ دعوتم هذا الرجل للذهاب معكم إلى القدس ؟ إن وجوده سوف يعكر علينا صفونا ، ثم أن هذا الرجل خائن ، إنه خائن !

ـ إنكِ محقة يا سارة ، أجاب الباشا ، ولكن علينا الانتظار والتريث لنرى ما سيحدث وما سيرينا الزمن ، لقد دعوته إلى القدس عمداً .

إن المنتمين لحركة الخلاص سوف يشاهدون الأمير فيصل بجانبي أثناء جولتي في القدس ، وسوف أتمكن بذلك من إفهام الجميع بأن الأمير لايخالفني القول ويطيع أوامري ، وهو صديق لي وهكذا أستطيع أن أكشف بواسطته العدو من الصديق .

وعندها ، عرفت سارة سبب دعوة الأمير فيصل إلى القدس .

ـ دعوني إذاً أكون عوناً لكم يا سعادة الباشا .

اسمحوا لي بأن أكون مضيفته في فلسطين ، وأن أرافقه في جولته ، وأن أدعوه لرؤية بلدتي وقريتي .

ـ حسناً تفعلين يا سارة .

ـ ألا يسبب هذا احراجاً لكم ، ألن يسبب لكم شعوراً بالغيرة ؟

فالقى الباشا نظرة جدية على سارة ثم قال :

ـ ممن ؟ من الأمير فيصل ؟

ـ طبعاً ، يا سعادة الباشا ، فالأمير شاب ورجل ناضج .

ـ نعم ، هذا صحيح ، ولكن لاتنسي أن اسمي فقط كافٍ لابقاء الأمير فيصل بعيداً عنكِ .

أطلقت سارة ضحكة من أعماقها وسط هذه الأوضاع والأحداث السعيدة ، واندفعت وطوقت بذراعيها عنق الباشا وقبلته من وجنتيه ورقبته ، ثم أبعدت قبعته ، وبدأت تفك أزرار سترته بعدها أجلسته على الأريكة وخلعت من رجليه حذائيه ، ورويداً رويداً جردته من ثيابه ورافقته إلى السرير .

في الصباح ، وحوالي الساعة السادسة ، وصلت عربة تجرها خيول إلى الفندق ، لتنقل الباشا إلى المحطة . فأعلم الخدم الباشا بقدوم العربة ، وركب الباشا برفقة سارة وتوجها مباشرة إلى محطة القطار .

في المحطة كان الأمير فيصل ، علي فؤاد باشا وأسعد الشقيري بانتظارهما لاستقبالها .

وكان جميع الباشوات والضباط الأتراك الشبان قد قدموا إلى المحطة لوداع الباشا . بينهم ضباط المان ونمساويون ، ولم يكن الباشا في حالة تمكنه من مقابلة كل هؤلاء المودعين . فقد كان مرهقاً مهموماً ، والتعب والارهاق باديان على وجهه ، وكان واضحاً أنه لم ينم طوال الليل كله .

صافح جمال باشا مودعيه ، وصعد إلى المقطورة الخاصة به ، والمجهزة بأسرّة ، وجلس فيها ومن خلال نافذة المقطورة ، وجه الباشا بعض التعليمات الموجزة للضباط والجنود والخدم ، حينئذٍ دوى صفير حاد وبدأ القطار يتحرك ببطء شديد ، بادئاً الرحلة إلى القدس .

جمال باشا يستسلم للنوم

تمدد جمال باشا على الفور على السرير في مقصورة القطار واستسلم لنوم عميق وأخلدت سارة إلى النوم أيضاً .

في حين كان علي فؤاد باشا والأمير فيصل والمفتي أسعد الشقيري ينتظرون بفارغ الصبر دعوة الباشا لهم إلى مقصورته للمشاورة والمحادثة فكان

عليهم أن ينتظروا حتى الظهر ، ويشغلوا أنفسم بأحاديث مختلفة حول مواضيع مختلفة .

ولكن السؤال الذي طاف بأذهان الحاضرين كان : ماذا حصل لجمال باشا ؟ إذ لم يسبق له أن تصرف بهذا الشكل من قبل . فلم يكن يصدر من مقصورته أي صوت . وأجمع الكل أن سبب تأخره عن لقائهم هو تعرضه للتعب الشديد وإلا لكان دعا الأمير فيصل إلى مقصورته وقضى معه وقتاً طويلاً ، أو ربما ينام الباشا حتى وقت الظهيرة ثم يخرج لتناول الغذاء مع ضيوفه، تلك كانت تكهنات أصحابه وضيوفه .

وحوالي الساعة الواحدة ، استيقظ جمال باشا ، وكان القطار قد تجاوز الحدود السورية ، ودخل الأراضي الأردنية ، منطلقاً كالأفعى في السهول وبين الجبال .

ارتدى جمال باشا ثيابه ، ودعا إليه الأمير فيصل وعلي فؤاد باشا ، ومفتي الجيش أسعد الشقيري للتحدث إليهم .

وعندما اجتمع بهم ، قال للأمير فيصل :

مارأيكم لو أننا أخلينا مكة والمدينة من القوات المتواجدة فيهما وأرسلناها إلى جبهة فلسطين ؟

ـ أنتم أعلم بذلك ، أجاب الأمير فيصل ، فإن كان الأمر يتعلق بتقوية جبهة فلسطين فلا مانع لدينا قط .

وإذا كنتم ترون أنه لابد من تعزيز القوات في جبهة فلسطين ، فإن سحب القوات من مكة والمدينة أمر لا اعتراض عليه . وبإمكاننا أن ندافع عن الأراضي المقدسة ولكن في هذه الحالة لن نتمكن من تزويدكم بالخمسة عشر ألف جندي الذين تحتاجونهم لحملتكم الثانية على القناة .

علي فؤاد باشا يفكر بإمعان

وتوجه جمال باشا إلى علي فؤاد باشا متسائلاً :

ـ وأنتم ، ما رأيكم في ما قلته يا باشا ؟

صمت علي فؤاد باشا برهة ، ثم فكر ملياً ، وقال بكلمات واضحة ومدروسة : كما تفضل قبل قليل حضرة الأمير وقال بأنه مستعد وقادر على تأمين الحماية للمدينة ومكة بحيث نتمكن نحن من سحب وترحيل القوات الموجودة هناك بقيادة فخري باشا إلى الجبهة الفلسطينية وبذلك نكون قد دعمنا جبهتنا في فلسطين ، ومن جهة أخرى وفّرنا على أنفسنا تكاليف الإمداد والتموين وإبقاء تلك الجيوش في مكة والمدينة دون حاجة . ثم التفت إلى الأمير فيصل وقال : إنكم ترون وتلمسون اليوم جهودنا لإزالة كل نقاط الخلاف بيننا وبينكم لكي نمنحكم الاطمئنان والاستقرار في بلدكم . فبانسحاب تلك الجيوش إلى فلسطين ، نخفف عن الدولة عبئاً كبيراً من الالتزامات. وتستطيع بعد ذلك بلادكم أن تنهض بمفردها وتواكب تقدمها وتطورها ، طبعاً كل ذلك بعد موافقة ومساندة سعادة الأمير.

مسح الأمير فيصل لحيته ثم قال :

إننا مستعدون لتقديم أية تضحيات في سبيل انتصار الدولة العثمانية. إني ووالدي دائماً رهن أمركم .

مسألة منح العرب المناصب

جمال باشا : إننا نشكركم يا سعادة الأمير ، فماذا كنّا ننتظر من شخصية مثلكم ، ابن والدٍ مبارك ، جواباً غير ذلك الذي أعطيتنا اياه . سوف يعيش الأتراك والعرب تحت راية واحدة على هذه الأراضي . وسوف نسعى لرفاه وسعادة هذه الدولة . وسوف تعمر ديارنا ويعم فيها التقدم ، وبإذن الله فإننا بعد انتهاء الحرب ، سوف نمنحكم مركزاً داخل البلاد .

أما بخصوص تدخل الفرنسيين والانكليز في أمور بلادنا الداخلية ودعمهم و مساندتهم لحركة الخلاص الوطنية ، فإني أقول ، لهؤلاء المساكين ، راجياً أن تنقلوا لهم ذلك : إن الفرنسيين والانكليز ، لن يمنحوا أمتكم الحرية، بل نحن ، نحن الذين سوف نعطيكم تلك الحرية وسوف تعيشون في سعادة وهناء في كنف دولة واحدة . إن القومية العربية ، في الأصل ، هي قضية نؤمن بها وتحظى باهتمامنا . كما أننا نقدر الشعب الذي يعيش على الأراضي المقدسة ، فسوف نعمل على دعم الجيش والقوات بشكل يشرف وطننا ، ولقد أخذت الدولة مسؤوليات الدعم المادي والمعنوي على عاتقها ، ولهذا السبب فإن الدولة العثمانية فرضت بعض الضرائب لقاء الحماية العسكرية ومع ذلك سنلغي جميع هذه الضرائب والخدمة العسكرية أيضاً ، وسوف نعطي الشعب كل احتياجاته المادية والمعنوية ، غير أننا وبانتظار انتهائها ، سوف نعمل على إبقاء سمعة دولتنا عالية ونظيفة وسوف نحافظ على كرامة شعبها .

المطلوب دحر الاسلام

إنكم تعلمون ، أن معارك ومؤامرات حيكت من قبل الدول الكبرى لتدمير الدولة العثمانية ، وتجزئتها ، وسلب ميراثها لنزع العلم المسلم من على أراضيها . فهذه الحرب لم تنشب بسبب طلقة صدرت من الأراضي الصربية ولا بسبب مرور سفينتين المانيتين عبر المضيقين.

لقد نشبت هذه الحرب لتدمير الدولة العثمانية التي ترفع راية الاسلام عالياً ، هذه الحرب اقامتها الدول الكبرى لإبادة الاسلام ومحوه من وجه الأرض منذ العصور القديمة .

فأوروبا المسيحية منذ مئات السنين ، كانت قد أعلنت الحرب على الاسلام . وبإذن الله ، هذه الحرب ستكون الأخيرة في سلسلة هذه الحروب إن

تضامن وتعاون الأتراك والعرب في هذه الحرب والجهاد معاً سوف ينقذ الاسلام والدولة العثمانية من الهلاك .

كان الأمير فيصل يستمع إلى كلمات جمال باشا هذه مطأطىء الرأس وعندما انتهى من كلامه ، قال له الأمير فيصل .

ـ فليكن الله بعونكم . إننا ، لكي نبقي على راية الاسلام عالية ، لا نتوانى عن التضحية بأرواحنا فداءً لها ، إن الدين الاسلامي والأراضي المقدسة، لايمكن لهما أن يكونا تحت رحمة الأعداء .

وشارك المفتي الشقيري قائلاً :

ـ فلينصر الله دولتنا وأمتنا وليخز أعدائنا .

وردد الجميع معاً : آمين ... آمين ...

ثم قال جمال باشا :

لابد أن الجوع قد أصابكم ، هل ترغبون في أن نتناول الغداء ؟

ورد الجميع : كما يأمر سعادة الباشا ...

وقف جمال باشا وتوجه إلى الممر وكان القطار يسير محدثاً هزات ورجات قوية ، وقال لهم : تفضلوا بالتوجه إلى الصالون ، وسألحق بكم .

وتوجه إلى باب المقصورة المجاورة لمقصورته وطرق بيده بهدوء عدة مرات وسمع صوتاً من الداخل يقول :

ـ من هناك ؟

ـ سارة ... أنا ... قال جمال باشا .

سارة تفتح الباب بعيون حزينة

فتحت سارة الباب ، بعيون يملؤها الحزن وقالت :

ـ تفضلوا يا سعادة الباشا . فقال لها الباشا :

ـ إننا متوجهون إلى المطعم في الصالون ، إن كنتِ ترغبين ، فيمكنكِ

تناول غدائك هنا في مقصورتك .

وأمسكت سارة بيد جمال باشا وسحبته بهدوء إلى الداخل ، وأغلقت الباب ثم اندفعت إلى صدره ولفت ذراعيها حول عنقه . وقالت :

ـ كنت مستغرقة في النوم ، وقد رأيتكم في حلمي .

ثم قبلته . وتابعت :

ـ كنت أرغب بتناول الغداء معكم يا سعادة الباشا .

ـ لايمكن ذلك ، قال الباشا ، فضيوفنا موجودون في الصالون ، ونحن نجري محادثات بالغة الأهمية . أرجوك أن تبقي هنا .

ـ كما تأمرون يا باشا ، ثم تابعت :

ـ ولكن أرجوكم أن لا تنصتوا إلى ذلك الأمير ولا تعيروا اهتماماً لما يقول . إن هؤلاء خونة أرجوكم أن تصدقونني .

ـ حسناً .. حسناً ... يا سارة ، قال الباشا ، إنكِ لم تستطيعي أن تحبي هذا الأمير بشكل أو بآخر .

ـ أنا لا أحب من يضركم يا باشا ، ولو تمكنت لقتلته أمامكم يا سعادة الباشا .

وعانقت سارة الباشا من جديد وقبلته عدة مرات .

وتملص الباشا من ذراعي سارة، وذهب إلى المطعم وانضم إلى مدعويه الأمير فيصل وعلي فؤاد باشا والشقيري .

سارة تسلمت نبأ هاماً

بعد خروج الباشا من مقصورتها ، بدأت سارة تتمتم أغنية جميلة .

لقد كانت هذه أسعد لحظات حياتها . فلقد كانت قد انصتت إلى كل ما جرى من حديث بين جمال باشا والأمير فيصل أثناء تحدثهما في مقصورة الباشا .

ـ إذاً سوف يخلون المدينة من القوات المقاتلة ، وسوف يرسلون تلك القوات إلى فلسطين .

لقد كان هذا نبأً هاماً جداً أفزعها ، ولكنها كانت مسرورة لحصولها على هذه المعلومات الهامة ، ولاشيء أجمل من هذا . والآن وقد بدأت الترتيبات لإرسال الجيش إلى القدس واخلاء المدينة ومكة   رأت أنه لابد إذن من ارسال هذا النبأ إلى قائد الجيوش الانكليزية الجنرال اللَّنْبي بالسرعة القصوى .



الفصل الخامس

حلم
بناء الدولة الموسوية

« آن للانكليز أن يظهروا على ساحة فلسطين وبسرعة » قالت سارة في نفسها ، « إن تأخرهم أكثر من هذا ، ليس في مصلحتهم » .

ونظرت سارة من نافذة القطار ، وتأملت الأراضي الفلسطينية التي كانت تبتعد مع جريان القطار . وتخيلت هذه الأراضي وكأنها أراضي الدولة الموسوية . المفروض أن ينتصر الانكليز في هذه الحرب ، ويطردوا الأتراك منها ويبني الموسويون وطنهم عليها ، ويجتمع شمل الأبناء فيها .

وظلت سارة غارقة في أحلامها تلك لفترة وجيزة .

وعند محطة الوصول ، كان حشد كبير بانتظار جمال باشا لاستقباله. وعلى رأس الضباط الالمان والأتراك الذين قدموا لاستقبال جمال باشا الكبير، جمال باشا المرسيني الملقب بالصغير .

قام جمال باشا بتفتيش حرس الشرف ، وصافح مستقبليه ، محافظ القدس ، ومتصرف المنطقة ، وشخصيات عديدة من المدينة ، فرداً فرداً .

كما قام جميع المستقبلين بالترحيب بالأمير فيصل بالحفاوة ذاتها .

وتعالت النداءات : يحيا جمال باشا ، يعيش جمال باشا ، يحيا الأمير فيصل .

انتشرت الجموع في كل شوارع القدس

كانت الهتافات والتصفيق تتعالى هنا وهناك ، فمعظم أهالي القدس قد خرجوا إلى الشوارع والكل يريد رؤية جمال باشا .

شاركت الكنائس والجوامع المنتشرة على التلال في المدينة، المواطنين فرحتهم بحضور جمال باشا إليها ، فعلتْ أصوات أجراس الكنائس وامتزجت مع أذكار المساجد التي راحت تنطلق في كافة أرجاء المدينة .

وشارك رجال الدين ، شيوخاً وأئمة وكهنة ، المواطنين فرحتهم وسط دوي أصوات أجراس الكنائس وأذكار المساجد التي زادت من سحر وجمال هذه المدينة المقدسة .

وكان مقر قيادة جمال باشا على جبل الزيتون . مجرد بناء صغير في الماضي لمدرسة متواضعة ، غير أنه بعد الحرب العالمية الأولى تقرر تحويل هذه المدرسة إلى مقر للقيادة العسكرية التركية والالمانية .

استقل جمال باشا سيارته وتوجه إلى مقر القيادة مباشرة، أما الأمير فيصل وأسعد الشقيري فقد توجها إلى فندق فوست للمكوث فيه في حين توجهت سارة إلى منزل صديقة الطفولة ليديا مرزو يرافقها أحد الخدم .

ليديا المرأة الحسناء

كانت ليديا بجمالها وحسنها ، محور حديث سكان القدس ومحط اعجابهم . وتملك بيتاً للدعارة يتردد عليه معظم الضباط الالمان والأتراك لقضاء أوقات ممتعة فيه . غير أن السيدة ليديا كانت على هامش هذا البيت تملك داراً خاصةً بها . وكان هؤلاء الضباط الالمان والأتراك الذين يترددون على السيدة ليديا من كبار ضباط الأركان وذوي الرتب العسكرية الرفيعة ، يجدون ضالتهم المنشودة في منزلها .

فكانوا يمارسون هواياتهم الفنية في هذا المنزل الذي تمتلكه السيدة

ليديا . فبعضهم كان يعزف على البيانو والآخر يرسم لوحات وينسون بذلك ألمهم وتعبهم من حياتهم في الجبهات العسكرية .

عندما لمحت ليديا سارة قادمة إليها ، تملكها العجب والدهشة وصاحت بلهفة : سارة ، أهذا أنتِ ، لقد اشتقت إليكِ ، واندفعت تعانقها بحرارة ملؤها الشوق والمحبة .

ثم جلست الامرأتان الجميلتان تتبادلان أطراف الحديث في الصالون ، وتشكوان همهما كل للأُخرى .

ـ لقد أتيت برفقة جمال باشا قالت سارة .

ـ توقعت ذلك يا سارة ، أجابت ليديا ، إن أخبار انتصاراتكِ أسمعها كل يوم وألمس نتائجها . سيمون وكومباس يزودانا بالأنباء وبأخبارك يوماً بيوم ، لقد قدمتِ للملة الموسوية خدمات جلّى ، وإن شاء الله سيفي الانكليز بوعدهم بعد انتهاء الحرب .

ـ ماذا تقصدين بقولك إن شاء الله سيلتزم الانكليز بوعدهم لنا ؟

لو أنهم فكروا بعدم الوفاء بوعدهم واحترام كلمتهم عند انتهاء الحرب وعدلوا عن بناء دولة موسوية على أرض فلسطين هذه ، فسوف نخنقهم بأيدينا هذه ... فالانكليز يعرفون تماماً من هم الموسويون ، أنسيت كيف قتل شعبنا في روسيا ، ورُمي اخوتنا في بولونيا وفي المجر رمياً بالرصاص ، وكم من المشقات تحملنا للوصول إلى هنا .

هل تعتقدين أنني مسرورة لقضاء أيامي مع جمال باشا ؟ ألا تعتقدين أنني أكره الأتراك ؟ فأنا لا أتحمل كل هذه المشقات من أجل حبي لجمال باشا أو للانكليز ، بل أتحمل كل الصعاب ، وأتخطى الخطر تلو الخطر والمصيبة تلو الأخرى ، من أجل اخوتي ، لكي أؤمن لهم قطعة أرض ، وطن صغير ، يعيشون فيه بسلام ، من أجلهم فقط أتحمل كل هذا العذاب . لقد قدمت أغلب الفتيات الموسويات أغلى ما عندهن في أحضان الضباط الالمان

والأتراك للحصول على أبسط وأتفه المعلومات منهم من أجل حفنة من التراب نعيش فيها بحرية وسعادة ، هؤلاء الضباط الذين لا يساوون خمسة قروش ... علينا تطهير هذه الأرض من الأتراك والاستيلاء عليها ، أليس هذا هو ما يجب أن يكون ؟

لاتهتمي ، سأذهب قريباً إلى الاسكندرية لمقابلة صاحب السعادة القائد العام للقوات الانكليزية اللنبي ، وأبصق في وجهه . فإما أن يتحرك ويرمي هؤلاء الأتراك من على وجه هذه الأرض إلى الخارج مثل خرقة بالية ، وإما أن يدعنا نتحرك نحن بأنفسنا ونتصرف .

إن جمال باشا ينوي جلب قواته من المدينة ومكة إلى فلسطين ، وإن حصل ذلك ، فإن الانكليز سيواجهون صعوبة في الدخول إلى فلسطين لذلك، لابد لنا من حث الانكليز على التحرك السريع والفوري .

لقد ذكرت لهم هذا مراراً ، لست أدري كم مرة ، ولكن هؤلاء الانكليز سوف يجعلونني أفقد صوابي ببرودة أعصابهم .

وجوابهم مثل المرات السابقة : «لاتتعجلوا الأمور، ولا تنفعلوا، عليكم بزرع روح العداوة والانشقاق بين العرب والأتراك، وعليكم اجهاض حركات الخلاص في البلاد .»

ماذا يريدون منا أن نفعل أكثر مما فعلنا ؟ فرجالنا، ونساؤنا، وشبابنا ، وكهولنا كلهم مسخرون لهذه الغاية ، ونحن مثابرون على النضال ومصممون عليه ، حتى آخر قطرة من دمائنا .

ألم نرسل فتياتنا اللواتي لم يبلغن سن الرابعة عشر إلى أحضان الضباط الأتراك والالمان للحصول على معلومات سرية منهم ؟ ألا نرسل كل يوم الأنباء والمعلومات إلى القيادة العسكرية الانكليزية؟

وأنا بالقرب من جمال باشا أحصي لهم عدد المرات التي يتنفس فيها؟ فماذا يفعل الانكليز على شواطىء البحر ، هل يستحمّون ؟ .

نعم إنهم يستحمون يا ليديا ، إنهم يستحمون ...

سارة تطلب كأساً مزدوجاً من الكونياك

جمدت ليديا وهي تسمع من سارة هذه الكلمات ، وكلها انفعالٌ وغضب، يائسةً فاقدة الأمل وكأن مصيبة قد ألمت بها .

فقالت : سارة يا حبيبتي ، إنكِ على حق ، من الأرض وحتى السماء ، إني أعلم ذلك ، لابد وإنكِ تعيشين في أجواء من التوتر والخوف من الموت المرتقب . أنتِ وأنا ، كلنا كذلك . والفتيات الثلاثون العاملات عندي يشعرون شعورك هذا ولديهن مخاوفك ذاتها ، كلنا نعيش أياماً قلقة ونفسيتنا متوترة .

هل تعتقدين أننا نتحمل رائحة أفواه هؤلاء الضباط الأتراك والالمان كل ليلة من أجل متعتنا ؟

ألا نحارب كلنا ، في جبهة واحدة ، ومن أجل غاية مشتركة ؟

سأقدم لكِ بعض الشراب لعله يخفف من حالتكِ هذه .

ـ أريد كأساً مزدوجاً من الكونياك قالت سارة .

توجهت ليديا بخطى ثقيلة إلى الغرفة المجاورة ، وعادت حاملة كأسين من الكونياك قدمت أحدها لسارة ورفعت الثاني عالياً وقالت : ذهب الكثير وبقي القليل يا سارة، لنشرب نخب مستقبل الدولة الموسوية .

ـ نخب الدولة الموسوية قالت سارة ، وأفرغت كل منهما كأسها حتى الثمالة .

عادت ليديا إلى الغرفة ثانية وجلبت معها زجاجة الكونياك . وعلى أثر تناولهما لكأسي الكونياك ، شعرت الامرأتان بارتياح قليل في داخلهما .

وتابعت سارة حديثها وهي ترشف كأسها الثاني :

أرسلي في طلب التير ليفي هذه الليلة . يجب أن أتكلم معه . سوف

يذهب إلى مصر بناء على طلب جمال باشا وبتوكيل منه ، ليؤدي مهمتين ، احداها أن يحاول التفاهم في مصر مع محرري الصحف للكف عن إشاعة ودس الأنباء المؤذية بحق جمال باشا ، والثانية نقل الانباء من مصر ، ومن قيادة أركان الجيش الانكليزي إلى جمال باشا .

باختصار ، فإن التير ليفي سيرسل كجاسوس لجمال باشا إلى مصر .

ـ ألا يشكل هذا خطراً على حياة التير يا سارة ؟ سألت ليديا وحدقت سارة بليديا وصاحت :

ألا يشكل كل شيء نقوم به خطراً على حياتنا ؟

ثم نظرت في عيني ليديا وتابعت :

ـ هل تحبين التير إلى هذا الحد ؟

ـ طبعاً أحبه يا سارة ... قالت ليديا

ـ وهل يغار عليكِ ؟ لأن امرأة جميلة مثلك، لابد لحبيبها أن يغار عليها ...

لاتغاروا على بناتكم ونسائكم

ـ إنه يغار عليّ ، ولكنه لايظهر ذلك ، فلا حيلة له ، فقد أمرتنا بأن لا نغار على بعضنا البعض ، حتى أنه ، في يوم الأحد الماضي قال لنا الحاخام، « إن الذين يعملون ويناضلون من أجل هذه الأرض عليهم ألا يغاروا على بناتهم ، لأنهن يعملن لغاية وطنية مطلقة » إن جميع تعلياتك موجودة في عقولنا ولو اقتضى الأمر أن يحمل الرجل زوجته من مضجعه ويضعها في حضن ضابط تركي أو ألماني ، فلن يتأخر فهذا عمل مشرف ونحن لا ننسى هذه التعليات أبداً يا سارة .

ـ لاتنسوها يا ليديا ... لاتنسوها ... عليكم بعدم ارتكاب أي خطأ ، وأخذ الحذر الدائم ، من الالمان والأتراك فهم يعتقدون أننا نضاجعهم من

أجل المال والمتعة وأننا فاشيّون[1] دعوهم يعتقدون ذلك حتى انتهاء الحرب ، ففي نهاية الحرب ، سيذكر التاريخ كيف انتصرت أمة لاتملك سلاحاً ولا مقاتلين ، وسوف ينظر إلينا العالم نظرة دهشة وتعجب لهذا النصر الكبير الذي سنحققه.

- إن شاء الله إن شاء الله يا سارة رددت ليديا ثم أضافت :

- إن هذه الأيام لقريبة ، أليس كذلك يا سارة ؟

- طبعاً قريبة ، إنها آتية لا محال ، فالحرب قاربت على النهاية، والانكليز والروس والفرنسيون يريدون وضع نهاية لها .

غير أنهم يعتمدون علينا كلياً في أداء هذه المهمة ، فالانكليز يريدون منا نشر روح الصراع والعداء بين الأتراك والعرب في الداخل . وعلينا إعلامهم يومياً بكل مجريات الأحداث التي تقع ، وبعد أن يبيد العرب والأتراك بعضهم بعضاً يأتي الانكليز ملوحين بأيديهم وكأنهم في نزهة ... هل هذا أمر مقبول ومعقول ؟

هذه حرب يا ليديا ، هذه حرب ، وعلى الانكليز أن يذوقوا طعم الموت كما نذوقه نحن ، لابد لكي ننتصر ، من أن نقدم الشهداء ، وهل يمكن احراز النصر من دون شهداء ؟

ذلك الخنزير اللَّنْبي جالس في شواطىء الاسكندرية ، يعيش مترفاً ويستجم في أجوائها الحالمة ، في حين أن عليه طرد الأتراك أولاً ، ثم التحرك على الأراضي التركية .

---

(١) كلمة فاشية لم تكن معروفة ومتداولة إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، لاسيما بعد صعود حركة موسوليني في إيطالية اعتباراً من عام ١٩٢٢ .

هل تمكنت القوات الانكليزية من اجتياز المضيق ؟

قالت ليديا : أنتِ محقة يا سارة .. اسمعي نبأ سيئاً .. لقد فرت القوات الانكليزية في غزة الغربية وانهزمت أمام القوات الالمانية والتركية، فلم يعد بإمكانهم شن أي هجوم وموقفهم العسكري أصبح بوضع الدفاع فقط ...

ـ فقالت سارة : لو استمر الانكليز على هذا النحو فستصل القوات الموجودة في مكة والمدينة غداً إلى هنا، وجمال باشا، لن يحارب بهذه الجيوش القوات الانكليزية فقط ، بل سيعمل على طردهم من مصر أيضاً .

من يظنون أنفسهم هؤلاء الانكليز بحق الله !؟

ألم يتعلموا من المرة الماضية عندماحاولوا دخول المضائق[1] ؟

سأخبرك أنا الآن بنبأ مفرح ، يا ليديا ، ستكلف الحكومة التركية بطل حرب المضيق مصطفى كال باشا بالذهاب إلى المدينة ، حيث سيقود القوات المتواجدة هناك إلى فلسطين وستقوم القوات المشتركة بحملة ثانية على القنال لإفناء القوات الانكليزية .

يا إلهي ـ قالت ليديا ، إن هذا الخبر خطير ومهم يا سارة ...

يجب ابلاغه فوراً للقيادة .

ـ كلا يا ليديا ، هذا الخبر سأحمله بنفسي إلى الجنرال اللنبي وأبلغه اياه بالذات ، سوف أتحدث أنا معه ، فبعد أن أعطي لالتير ليفي التعليمات اللازمة ، سأسافر إلى الاسكندرية وسوف أقابل هذا الجنرال العظيم بنفسي .

فقالت ليديا متعجبة : أليس هذا عمل مليء بالمخاطر يا سارة ؟

---

(١) المقصود هنا مضائق الدردنيل والبوسفور ، حيث حاولت الأساطيل الانكليزية والفرنسية عام ١٩١٥ اجتيازها والوصول إلى البحر الأسود لمد يد المساعدة لحليفتها روسية القيصرية ، ولكنها كا رأينا أعلاه ، فشلت في اختراقها ، أمام صمود حصن جناق قلعة .

طبعاً خطير ـ قالت سارة: ولكن لم يبق لنا طريق آخر نسلكه غير هذا فنحن، لسنا صبورين كالانكليز، إن الانكليز يريدون احراز النصر وهم قابعون في مكانهم، ويريدون لهذه الأراضي أن تكون مستعمرات ومناطق لاستثمار البترول، في حين أننا نريدها وطناً ومزاراً لنا. طبعاً هم يحاربون ليستعمروا ويمتصوا خيرات هذه الأرض، ولكننا نحارب من أجل قضية وطنية .

املئي الكأس يا ليديا

ملأت ليديا كأس سارة وقالت : ألا تشربين كأساً أخرى يا سارة ؟

فردت سارة : املئي يا ليديا املئي ... فأنا حزينة جداً .

منذ وقت طويل لم أجالس صديقاً مثلك يا ليديا أبثه همومي .

ففي الشام لا أقابل سيمون إلا نادراً ، والأخبار تصلها بواسطة الأطفال الصغار ، وكومباس لم أره سوى مرة واحدة .

ـ معك حق ـ قالت ليديا ، فإن تسريب المعلومات وأنتِ بالقرب من جمال باشا ليس أمراً سهلاً ، فليمدك الله بالصبر ، من يدري كم ليلةٍ قضيت وأنت مستيقظة ، ومن يدري كم تعرضتِ لمواقف خطيرة .

فأنتِ تواجهين الموت في كل دقيقة وأنت تقفين وجهاً لوجه مع الباشا وهذا عمل ليس بالسهل . سارة ، لو علم الباشا بالأمر ، هل تعتقدين بأنه يشنقكِ ؟

ـ هل تمزحين يا ليديا ، إن جمال باشا لا يتردد لحظة في قتل أبيه وشنقه في ساحة المدينة ، إذا علم أنه خائن للوطن ...

ـ ألا تخافين منه يا سارة ؟

ـ نعم ولا . كل ما أخشاه هو أن يكتشف الأمر ، وطالما أن الأمر لم ينكشف بعد ، فإني استطيع خدمة أمتي بكل سهولة ودون خوف . ثم لا تنسي أنه في حال القبض علي فإن الأمر سيكون سيئاً لكم جميعاً .

عندها ، لن يدع جمال باشا حجراً فوق حجر في فلسطين ، هذا الأمر أعرفه تماماً .

ـ لعنة الله عليه ، إن شكل جمال باشا أصلاً يدعو إلى الفزع ، كيف تتحملين كل هذا يا سارة ؟ فليكن الله بعونك ، ...

هل يجيد جمال باشا التعامل مع النساء ؟

فضحكت سارة وقالت : ليس كما تظنين يا ليديا فيجب ألا ننقص من حقه في هذا المجال ، إنه كأي رجل أو ضابط ، إلا أنه مغرور جداً ويثق بنفسه كثيراً ويظن أنه يفهم بالسياسة ولكنه لايعرف منها إلا القليل .

لقد دعا الأمير فيصل ليرافقه برحلته إلى القدس ، فهو يعتقد أن الناس سوف يسرهم رؤيتهما جنباً إلى جنب وسوف يقولون أنه لا خلافات بينهما تلك هي الصورة التي يريد الباشا أن يراه عليها أعضاء حزب الخلاص العرب، في حين أن والد الأمير فيصل يجري لقاءات مع الانكليز سراً ، ولو علم بهذا الأمر ، من يدري ماذا سيصيبه حينئذٍ .

فقالت ليديا : هؤلاء الأتراك ساذجون وأبرياء جداً .

في الحقيقة هم كذلك يا ليديا ـ قالت سارة ، حتى أن طفلاً صغيراً يستطيع أن يخدعهم .

دعي كل هذا جانباً يا ليديا ، وأرسلي في طلب التير ، ولتأت لمقابلتي الليلة . فخرجت ليديا وكلفت أحد الصبية بأن يذهب ويستدعي التير .

ثم عادت قائلة :

ـ إنكِ متعبة يا سارة ، اصعدي إلى غرفتي وخذي قسطاً من النوم واستريحي .

ـ كلا يا ليديا ، لاوقت للنوم ، أخبري فتياتك على الفور بأن جمال باشا سيعقد اليوم بعد الظهر ، اجتماعاً هاماً في مقر القيادة التركية ، وسيحضر هذا الاجتماع عصمت ميرلاي بك وفوزي باشا وجمال باشا المرسيني

وحسن حسني باشا وعدد كبير من قواد الفرق العسكرية، وسوف تتم في هذا الاجتماع دراسة وتحضير خطة الحملة الثانية على القنال واتخاذ القرارات بصددها. يجب أن أحصل عل كل هذه الخطط .

في حضن جيش النساء

فضحكت ليديا وقالت : يا صغيرتي العزيزة سارة ، إننا لانستطيع مجاراتك ، ولكن لاتقلقي ، فسوف تأتي كل تلك الخطط إليكِ هنا .

ـ هل فتياتك أهلٌ للثقة يا ليديا ؟

ـ طبعاً يا سارة ، ولمعلوماتكِ فقائد المئة أدهم بك ، وقائد الألف عارف حكمت بك ، وقائد المئة عادل بك سيحضرون الاجتماع أيضاً .

وهؤلاء الضباط أركان حرب هم الذين يقومون بوضع وإعداد الخطط العسكرية اللازمة ويعرضونها على القادة . وهؤلاء بالذات يقضون لياليهم مع فرقة فتياتنا الحسناوات ، فلا داعي للقلق ، كل تلك الخطط العسكرية ستصل إليكِ ، بعد أن تسرقها فتياتنا من منازلهم .

ـ ولكن يا ليديا ، حذار من أن يحصلن على خطط مزيفة .

ـ كلا ... كلا ، إطمئني أنتِ يا سارة، فحتى هذه الساعة كل الخطط التي حصلت عليها فتياتنا كانت صحيحة وأصلية، نحن لانحصل على خطط مزيفة .

ـ حسناً ، في هذه الحال ، أستطيع أن أخلد إلى النوم قليلاً .

ـ طبعاً ، أرجوكِ أن تستريحي قليلاً الآن يا سارة .

ولو سمحت لي فسأعرفكِ على ضابط شاب هذه الليلة .

كلا ... كلا ، فجمال باشا لايقبل أن تتعرف حبيبته على قائد مئة أو قائد ألف ولا يرضى لها صحبة أحد منهم .

ففي الشام ، حتى الباشاوات يقدمون لي التحية ويقفون احتراماً لي .

ـ طبعاً سيقفون احتراماً لك يا سارة ، فأنتِ رمز الجمال في هذا البلد.

ـ وأنتِ أيضاً كذلك يا ليديا . إني ذاهبة إلى غرفة النوم ، أرجو عند قدوم أي نبأ من جمال باشا أن توقظونني في الحال . لقد أبلغته بأنني سأمكث عندك وسأكون بضيافتك . في حين سينام هو في مقر قيادته ، وسوف أقابله بعد ظهر غد ، لمعرفة رأيه بعد ارسال ألتير إليه ، إني أوكل إليك مهمة الحصول على مجريات الاجتماع اليوم . وسأتمكن من النوم مرتاحة البال يا ليديا .

ـ أحلاماً سعيدة يا سارة ، ونوماً هنيئاً .

ـ أشكرك يا ليديا .

اتجهت سارة إلى غرفتها ، وتأثير الكونياك واضح عليها كالنار تتوهج في داخلها وتمددت على السرير الناعم واستسلمت لنوم عميق .

وعندما استيقظت كان التير قد عاد منذ وقت طويل ، وجلس في الصالون ينتظرها .

وعندما شاهدت سارة التير ، عانقته بقوة .

ـ إنك تزداد شباباً يوماً بعد يوم يا التير ، وتزداد تألقاً ، لاشك أن لليديا يد في ذلك ، فأنت مدين لها بهذا .

كان التير وليديا ، قد اتفقا على الزواج قبل نشوب الحرب غير أن الحرب أجلت مشروعهما هذا ، وها هما اليوم عضوان في مجموعة سارة ، يعملان مع جهاز الاستخبارات الانكليزية ، ويعتبران همزة وصل بين سارة والمستوطنين الموسويين في فلسطين .

المستوطنون الموسويون

كان المستوطنون الموسويون يلعبون دوراً فعالاً في فلسطين . يأتون للاستيطان والعمل في الزراعة ، في بادىء الأمر ، ثم ينضمون بعد أن يستقروا إلى الحركة الموسوية الهادفة لانشاء وطن موسوي في فلسطين ، ورغم المصاعب

التي يواجهونها في حياتهم اليومية ، فإن أملهم كبير بأن يعيشوا برفاه وسعادة عند قيام دولتهم الموسوية عما قريب .

والجدير بالذكر أن معظم هؤلاء المستوطنين قد جمعوا ثروة كبيرة وأصبحوا من أصحاب الأموال ، ويعيشون حياة رفاه وسعادة ، وطبّقوا نظام الزراعة الحديثة ، وزرعوا أنواعاً كثيرة من الفاكهة والحبوب ، وقاموا بتربية المواشي على اختلاف أنواعها ، ويدير كل منهم مركزاً للاتصالات مع أجهزة الاستخبارات الانكليزية .

وكانت الحركة الصهيونية ، بدعم من هؤلاء المزارعين والمستوطنين ، تساعد أجهزة الاستخبارات الانكليزية وهكذا جند التير وليديا نفسيهما تحت إمرة سارة والاستخبارات الانكليزية ، تضامناً مع بقية المستوطنين .

إن لم نصبح جسداً واحداً

توجهت سارة والتير إلى غرفة مجاورة للصالون ، وجلست على أريكة في زاوية الغرفة وأشعلت سيكارتها ، وبعد أن سحبت منها بعمق قالت :

ـ التير . لقد انهكت هذه الحرب الجميع . وعكرت علينا صفو أيامنا ، وأنا أعرف هذا جيداً ...

أنت تعمل بجد ونشاط وترهق نفسك وحققت إنجازات مهمة . لكن عليك القيام بمهات أكبر لترفع من معنوياتك ولتكون بقدر المسؤولية .

وقد تُقتل ، أنت وأنا وجميعنا قد نُقتل ، ولكن لا تنسَ أن مصلحة الدولة الموسوية فوق كل اعتبار وفوق كل شيء ، لم يخدعنا الانكليز حتى الآن ، غير أن دولاً تعد خططاً لهذه المنطقة ، مثل فرنسا ، وايطاليا ، والعرب والروس . أما أمريكا فما زال موقفها مجهولاً بالنسبة لنا ، قد تتوصل هذه الدول إلى قرار بشأننا ، غير أننا لا يمكننا أن نتحمل نتيجة قراراتهم هذه ، فنحن بشر لنا طاقة محدودة .

فالانكليز استقروا في مصر بعد حرب دموية كلفتهم العديد من الضحايا والخسائر . وبصفتك أحد رجال جمال باشا ، سوف تذهب اليوم إلى مصر وتقابل هناك أصحاب دور الصحافة وتحاول منع كتابة ما يشوه سمعة الباشا، وبمؤزارة أجهزة الاستخبارات الانكليزية ، ستوهم جمال باشا بأنك تمده بمعلومات عن خطط القوات الانكليزية ، وسترسل له خططاً مزيفة وبذلك سيقع جمال باشا في الفخ وينحدر الأتراك إلى الأبد .

وبرحيل الأتراك ستصبح أحلامنا حقيقية ، أما في حال حدوث عكس توقعاتنا ، فستستمر هذه الحرب إلى ما لانهاية ولا أحد يعرف عاقبتها. غير أنني سمعت من جمال باشا أن هناك العديد من القتلى الالمان على الجبهة مع فرنسا يومياً .

فأجابها التير ببرودة : سارة ، ألم نقسم اليمين على أن نفدي هذه الأرض، بكل قطرة من دمائنا ، في سبيل اقامة وطن موسوي عليها ؟ أنا لم أنس قط هذا القَسَم ! لاأنا ، ولا أي موسوي ، يمكنه أن ينسى هذا القَسَم . فكوني مطمئنة البال سأنفذ أوامر جمال باشا في التوجه إلى مصر ، وسوف أعمل على تحقيق ما يريد وانجاح مهمتي .

ـ سلّمك الله يا التير ، إني أعتمد عليك ، تعال ، اقترب مني ، لاقبلك وأهنئك .

سارة تهنىء التير

وانحنى التير فقبلته سارة من وجنتيه .

ثم خرج من الغرفة وعاد برفقة ليديا حاملاً زجاجة مشروب .

ملأت ليديا الكؤوس ورفعت سارة كأسها عالياً وقالت :

ـ نخب دولة اسرائيل الحديثة .

ـ نخب الموسويين

- نخب جمال باشا

فقاطعتها ليديا قائلة : دعينا من ذلك الخنزير يا سارة ، أم أنك تعشقين ذلك الرجل يا سارة؟

فأطلقت سارة عدة ضحكات ثم وضعت يداها على خاصرتيها وراحت تضحك ثم قالت لليديا :

- لقد ظننتكِ أذكى من هذا يا ليديا. إننا ندين لجمال باشا بسلامتنا. لو أنني لم أكن إلى جانبه كل ليلة ، ولو أن العرب لم يكونوا جهلاء إلى هذا الحد ، ولو لم أكن أطلع على كل أسراره يوماً بيوم ، هل تدرين ما قد يحصل ؟ نطلب من الله أن لايحرمنا جمال باشا ، هيا فلنشرب ثانية نخبه.

جواد أدهم بك قادم

فقالت ليديا : أرجو المعذرة يا سارة ، إنكِ تقولين الحق ، أنا لم أفكر بهذا ، هيا فلنشرب نخب جمال باشا ...

كان الثلاثة يحتسون شرابهم سعداء ، حين قرع الباب شاب صغير وقال : وصل قائد المئة جواد أدهم بك يا سيدتي .

فأسرعت ليديا بتسريح شعرها وضبط هندامها ، ثم نظرت إلى نفسها في المرآة ووضعت لمسة خفيفة من أحمر الشفاه على شفتيها ثم غمزت سارة ونظرت إلى التير وقالت : « لقد وصل حبيبي ، لو سمحتم لي ، سأقابله » وتوجهت إلى باب الغرفة ثم دخلت إلى الصالون .

كان القائد الشاب واقفاً في وسط الصالون وبيده قبعته ، وكله هيبة وأناقة ، فاقتربت منه ليديا قائلة :

- سيد جواد ، أهلاً وسهلاً بكم .

فردّ عليها : أهلاً بك يا ليديا .

واستندت ليديا على ذراع جواد بك، ورافقته إلى الأريكة التي اعتادا

الجلوس عليها ، في المناسبات الشاعرية العديدة ، كانت هذه الأريكة المحشوة بريش النعام ، تصلح كسرير عند اللزوم ، أي أنها بالاختصار زاوية عشق صغيرة .

ـ تفضل بالجلوس هنا ، سأعد لك كأساً من الشراب .

وعند عودتها تحمل زجاجة مشروب وكأسين ، كان جواد بك قد أخذه النوم . ووقفت ليديا عند الباب وقالت :

ـ آه ... أنتم أيها الأتراك تستحقون الشفقة !

يا سيد جواد ، قم قليلاً لنتحدث ولنحتسي الشراب ، ولنتجالس قليلاً ، هل يعقل أن تنام فوراً هكذا ؟

ـ إني متعب قليلاً يا ليديا دعينا من الحديث هنا .

ـ آه ... آه لا يمكن ذلك . فأنا أعرفك جيداً ، إنك تتحول في السرير إلى نمر أخرس فلنجلس قليلاً وبعد ذلك ننام ، أرجوك ، اجلس قليلاً .

ـ إني متعب جداً يا ليديا ، إننا نتكلم منذ الصباح . لقد نفدت قواي في هذا الاجتماع . إن اقناع القادة الكبار والباشاوات أمر صعب للغاية. أرجوكِ تعالي إلى جانبي لنرتاح قليلاً ، وأحضري لي معك كأساً من النبيذ .

فقربت ليديا الكأس في يدها إلى شفتي قائد المئة جواد أدهم بك ، ارتشف منها قليلاً ، ثم قربت شفاهها إليه . كانت ليديا جميلة مثل سارة ، غير أنها أكثر خبرة منها في عالم العشق وتركت ليديا جواد ايتام بعد برهة بمفرده ، ودخلت الحمّام ثم توجهت بعد ذلك إلى الغرفة التي تضمُّ سارة والتير .

سألتها سارة بلهفة :

ـ هل علمتِ شيئاً ؟

ـ كلا ، لم يتكلم حتى الآن ، هكذا هم هؤلاء الضباط الأتراك ، يجب

أولاً أن تلبي لهم مطاليبهم ، ثم تجلسي بعد ذلك وتثرثري معهم وتمازحيهم ، عندها يتكلمون مثل البلابل ، حتى أنهم يُقصون عليك ما لم تطلبي معرفته. يكفي أن تلمحي فقط إلى تلك الأمور التي تريدين معرفتها .

ـ أين هو الآن ؟ سألت سارة .

ـ إنه نائم في سريري .

نظرت سارة إلى التير الذي كان عابساً يحتسي الشراب دون توقف إلا أن وسامة وجهه غطت على مسحة التجهم التي ارتسمت على محياه .

سارة تريد تزويج التير وليديا

فقالت سارة :

ـ بماذا تفكر يا التير ؟

ـ لاشيء ، لا أفكر بشيء .

ـ ألم تكن تريد الزواج من ليديا ؟

ـ هل تمزحين يا سارة ؟

ـ كلا ، كلا ، إني جادة فيما أقول .

كانت ليديا تستمع إلى الحديث مذهولة وقالت لسارة :

ـ ماذا تقولين ، بحق الله ، من أين أتت هذه الفكرة إليكِ الآن .

فقالت سارة : «أجل يا ليديا ، سأزوجكما قبل رحيل التير إلى مصر ، يجب أن تصبحي زوجة التير هنا ، والتير يجب أن يصبح زوجك في مصر» .

وتشابكت نظرات ليديا والتير واندفعت ليديا تعانق التير قائلة : التير يا حبيبي ، إني لا أقبل أي انسان بديلاً عنك في هذه الدنيا ، سأظل أنتظرك هنا ، وإن كنت ترغب ، فلنتزوج في الحال .

والتفتت إلى سارة وقالت :

وماذا بشأن الأمور التي تقع على مسؤوليتي ؟ هل سأتابع عملي ، أم أنني سأرافق التير إلى مصر ؟

ـ كلا يا ليديا ، إن مقرك هنا ، ومهمتك إدارة هذا المكان ، سوف تتابعين عملك ، على كل حال ذهب الكثير وبقي القليل .

إن الانكليز سيجدون الحلول المناسبة لأجلنا وسوف يعمل التير على تسهيل مهمتهم هذه . لن تمضي بضعة أشهر إلا وسيأتي الانكليز إلى هنا وعندها سيعود التير حاملاً لقب البطل .

والتفتت ليديا إلى التير وقالت له :

ـ حسناً يا حبيبي ، هل ستسمح لي ، وأنا زوجتك ، أن اصطحب الأتراك والالمان كل ليلة وأقوم على ترفيهم .؟

ـ فسألها التير ببرودته المعهودة :

ـ وهل تقومين بهذا العمل ، بدافع اللهو والترف ، أم من أجل قيام دولة اسرائيل ، وقيام دولة الموسويين وتحررهم ؟

فصرخت ليديا دون أن تبالي قائلةً : أقسم لك ، ويهوه شاهد عليّ ، أنني لا أحصل على أية متعة مع أي شخص كان ، إنني أقوم بذلك بدافع واجبي تجاه أمتي وشعبي ، ولتحقيق حلمنا بإنشاء دولة اسرائيل . ربما يستطيع أولئك الغرباء أن يمتلكوا جسدي أما روحي فمستحيل .

فقال التير :

ـ أعرف ذلك يا ليديا . لاتقلقي لهذا وبعد أن نتحرر أرجو أن تكوني صادقة معي . أما الآن فلا أنتظر منكِ شيئاً سوى خدمة سارة .

فأخذت ليديا بيدي سارة والدمع في عينيها :

ـ أقسم أنني لن أخرج عن طوعك أبداً يا سارة . إني أومن بأن سارة آرونسون وعائلتها ، سوف تعطينا دولة موسوية وتبني لنا وطناً حراً نعيش فيه .

فقالت سارة : إن شاء الله يا ليديا ، وليكن يهوه بعوننا .

بلّغوا الحاخام ، ليعد مراسم الزواج في زمارين غداً ، وسوف نقيمها في مقرنا الصغير هناك .

بدأت ليديا تجمع الاخبار والمعلومات

خرجت ليديا بعد ذلك وعادت إلى غرفة النوم حيث كان جواد أدهم مستلقياً ، فرأته يلبس ثيابه ويهم بالخروج . فقالت له :

ـ إلى أين يا عزيزي القائد ؟

فأجابها قائلاً : لدي أعمال هامة وكثيرة هذه الليلة ، علي الذهاب فوراً ، وسأعود إليك ثانية بعد ظهر يوم غدٍ . فقالت له ليديا :

ـ ألا يمكنك البقاء هنا الليلة ؟

ـ لايمكنني ذلك ، الأمر ليس كما تتصورين ، إننا نعد لهجوم شامل .

ـ أحقاً هذا ، وهل أنت أيضاً ستذهب إلى الجبهة ؟

ـ أجل أنا أيضاً ذاهب إلى الجبهة .

ـ يا الهي ، كن حذراً يا قائدي العزيز ، هل أنت ذاهب عما قريب ؟

ـ كلا ، فالتحضيرات سوف تستمر أسبوعاً على الأقل .

ـ في تلك الحالة ، فلتكن زياراتك مكثفة يا سيد جواد ، أرجوك ...

ومسحت ليديا دموعها وهي تردد تلك الكلمات ثم قالت :

ـ قائدي العزيز ، أرجوك أن تقضي ليلتك الأخيرة معي ، إني أتوق لتلك الليلة .

فقال لها : لاتبكي يا ليديا ، ستكون لنا زيارات عديدة ، لاتقلقي ، أعدك بأن أقضي آخر ليلة قبل رحيلي معكِ ، هل أعجبك هذا !

ـ سأنتظرك يا جواد بك ، ولكن عفواً يا جواد بك ، هل يمكنني أن أرافق والدتي خارج هذه القرية أثناء بدء الحملة ؟ قد يصل الأعداء إلى هنا ، لقد سمعت من البعض أن الانكليز سوف يأتون قريباً إلى هنا .

فضحك ايتام بك بصوت عالٍ ثم قال :

ـ هل فقدت صوابك يا ليديا ؟ لا داعي لأن تذهبي إلى أي مكان .

سوف نرمي الانكليز قريباً في مياه البحر المالحة .

إن كانوا يجرؤون فليدخلوا إلى القدس ! هل تعرفين ماذا تعني القدس لنا ؟ إن دخول الانكليز إلى مكة أو المدينة أو القدس، هو ذاته بالنسبة لنا.

ـ نعم يا جواد بك ، إني أعلم ذلك . فالقدس أيضاً مقدسة عندنا .

فنحن نموت من الخوف عند سماع أن الانكليز سيأتون إلى هنا ، إني أكره هؤلاء الوحوش ، في الواقع لا يوجد شعب مجرم مثل الانكليز . وإن جاؤوا إلى هنا ، فإنهم حتماً سيذبحوننا . وسوف ينكّلون بنا أكثر من الروس .

ـ لاتقلقي يا ليديا ، فالانكليز لن يأتوا إليكم ، اطمئني واستمري في حياتك الطبيعية ، ولن يمضي أسبوع حتى نرمي الانكليز خارج غزة .

قرار الحملة

بعد خروج جواد بك ، أسرعت ليديا إلى سارة والتير وقالت :

ـ سارة ، الأتراك سيباشرون حملتهم بعد أسبوع ، والأغلب أنهم سيتوجهون إلى غزة وهم ينوون قذف الانكليز إلى البحر .

ـ هذا نبأ ممتاز . إذاً اتخذ جمال باشا قراره بالتحرك ، وإلى أين ؟

إلى غزة بالذات ، أريد الحصول على كل الخطط المتعلقة بهذه الحملة في أسرع وقت ممكن . يجب اعلام الفتيات بضرورة العمل سريعاً والحصول على تلك النسخ من الخطط العسكرية . وسوف يقوم التير، عند توجهه إلى مصر بتسليمها إلى القيادة الانكليزية .

والتفتت إلى التير .

ـ أليس كذلك يا التير .

ـ نعم ، طبعاً .

وتابعت سارة قائلة :

ـ ليديا ، عليكِ بالتحرك فوراً ، وأعلمي الفتيات ليتخذن التدابير

اللازمة وليعملن على اطلاق لسان الضباط هذه الليلة ، وليعرفن من كل منهم ، اتجاهه ، ووجهة مهمته ، وحجم قواته التي بامرته ، وليتحققن من كل هذه الأمور بالسرعة القصوى .

ـ كما تأمرين يا سارة ، لاتقلقي أبداً ، سوف أحصل لك على كل المعلومات التي تريدينها مساء غدٍ وسوف تسير الأمور كما تشائين .

ـ عليكنّ بالتحرك بحذر ...

ـ لا تشغلي بالك قط .

الفتيات الجاسوسات يتلقين الاوامر والتعليمات

في تلك الليلة، قامت ليديا بإبلاغ الفتيات، بتعليمات وأوامر سارة . فقالت لهم : الأتراك ينوون شن حملتهم بعد اسبوع على منطقة غزة ، انكنّ مطالبات بالحصول على كل المعلومات التي تخص هذه الحملة ، وعلى نسخ من خطط الحملة العسكرية . أريد العمل الحذر والسريع في الحصول على هذه المعلومات اعتباراً من هذه الليلة .

وكان جواب الجميع : نحن رهن أمركنّ يا آنسة ليديا .

كانت حوالي ثلاثين فتاة موسوية بالغة الجمال يعملن تحت إمرة ليديا وكن يلقبن بالمومسات عند الضباط الأتراك والالمان .

غير أنهن يعملن لصالح جهاز الاستخبارات الانكليزية بتوجيه من المنظمة الصهيونية . وكان اعتقاد الأتراك والالمان أنهن يعملن للحصول على المتعة والمال .

كما كان بعض القادة الأتراك والالمان مسرورين لوجود تلك الفتيات عندهم . فهم يعتبرونهن مجرد وسيلة تسلية وترفيه لضباطهم وجنودهم .

وفي اليوم التالي ، أرسلت سارة ، التير ، لمقابلة جمال باشا .

فاستقبله جمال باشا بلباقة زائدة قائلاً :

لقد حدثتني سارة عنك ، غير أنك أكثر بكثير مما وصفتك ، والآن بعد أن رأيتك ، فهمت سبب اعجاب سارة بك .

فرد عليه التير باللباقة ذاتها بل زاد عليها قائلاً :

ـ لقد غُمرت بلطفكم يا سعادة الباشا ! إنـي أشكركم على لطفكم وثقتكم بي، إن خدمتكم وتلبية أوامركم ، حتى ولو كلفتني حياتي ، هو شرف عظيم لي.

فقال جمال باشا : مهمتك لن تكون سهلة ، غير أن الجنسية الأمريكية التي تحملها ستسهل عليك قليلاً مهمتك تلك حسب اعتقادي . سوف تعطى مبلغاً كبيراً من المال ، تقضي به وقتاً ممتعاً في مصر ، وستكون مهمتك اعلامنا على وجه السرعة بخطط الانكليز العسكرية ، وعلى أي الجبهات ينوي الانكليز شن معركتهم ومتى ينوون القيام بها ، سوف تُعطى شيفرة خاصة ، لكي تتمكن من الاتصال بنا على أساسها . وعلاوة على ذلك ، يمكنك الاستعانة بوسائل البريد الأجنبية ، أما عند حدوث أمر هام وخطير فعليك بالقدوم فوراً إلينا .

هناك أمر يشغل بالي وتفكيري ، إذ أن سواحلنا واقعة تحت الحصار ولا يمكننا الحصول على أي دعم أو مساعدة عبرها ، ونتيجة لهذا الحصار فالبلاد تعيش في الجوع والفقر . فكيف لكم أن تغادروا إلى مصر وسط هذه الظروف ومن خلال هذا الحصار ؟

فأجابه التير وكله ثقة بنفسه : كونوا مستريحي البال يا سعادة الباشا، فأنا أمريكي الأصل وعلاوة على ذلك ، إن سمحتم لي أن أتجاوز حدودي ، فإن هناك أمراً لا تعرفونه ، فأنا رجل غني ومقتدر ، أعمل في التجارة وأعمال التأمين مع عدد كبير من الشركات الضخمة العالمية ومستودعاتي الكبيرة في بيروت مليئة بالحديد .

ولدي يخت كبير يرسو على شواطىء بيروت . وأنتم أعلم بوجود تلك

البارجة الأمريكية الراسية على تلك الشواطىء ، هذه السفينة التي أتت إلى بلادكم بحمايتكم ودعمكم ، ولكن هذه السفينة لم تأتِ فقط بهدف الزيارة وتوثيق عرى الصداقة إنما أتت لحماية الجالية الأمريكية الموجودة في بيروت ، وأنا واحد من هذه الجالية الأمريكية .

وبناءً على ما ذكرته لكم ، فسأتوجه إلى بيروت وسأستقل يختي إلى الاسكندرية ، ولابعاد الشكوك فقد ينظر الأميريكيون إلى رحلتي هذه بالشك والحذر، رغم كوني أمريكياً ، ويعتقدون أن رحلتي هذه مدعومة ومرسومة من جهات فرنسية أو انكليزية ، لذلك ، سأضطر للقيام بعدة رحلات بين الاسكندرية وبيروت بحجة إنجاز اعمال تجارية، فذلك مسموح لي مرة في الأسبوع على الأقل .

وسر الباشا كثيراً عند سماعه ذلك حتى كاد أن يعانق التير ويقبله .

ادفعوا للسيد التير ألفي قطعة ذهب

نادى الباشا غلاماً من خدمه وقال : ادفعوا للسيد التير ألفي قطعة ذهب بموجب هذا الوصل .

فنهض التير وحيا جمال باشا تحية عسكرية ورافق الغلام إلى غرفة مجاورة حيث استلم القطع الذهبية الألفين ، ثم عاد مباشرة إلى بيت ليديا ، حيث كانت سارة بانتظاره .

ـ أخبرني على الفور بما حصل يا التير ، كيف كانت مقابلتك للباشا؟ هل كانت ناجحة ؟ سألته سارة عند قدومه .

ـ ناجحة جداً ، بالإضافة إلى هذه القطع الذهبية .

لقد أعطاني جمال باشا سلفة لرحلتي إلى مصر قدرها ألفي قطعة ذهبية.

نظرت سارة وليديا بسرور إلى القطع الذهبية العثمانية في أربعة

أكياس كبيرة .

وصرخت سارة من شدة فرحها « يا الهي ، لقد وفقنا في هذا أيضاً »

فقال التير : يبدو أن الأمور الجدية قد بدأت يا سارة ، أعتقد أن الانكليز لن يتعبوا معي كثيراً في مصر . إن أمكن ، جهزي لي أنت أيضاً رسالة توصية أصطحبها معي في رحلتي إلى مصر ، موجهة للجنرال اللنبي .

ـ طبعاً سأكتب له رسالة يا التير .

وسوف تقابل هناك أخي الكسي ، وإن دعت الضرورة ، فأنا أيضاً يمكنني السفر إلى مصر ، لاتخشَ شيئاً . ولا تحزن بشأن ليديا ، فغداً سوف تتزوجان ولن تذهب إلى مصر إلا وأنت زوج لها .

ـ أشكرك يا سارة ، أجاب التير .

فقالت ليديا :

لقد أعطيت كل الفتيات ، التعليمات اللازمة ، فإلى أن يحين موعد رحيل التير ، تكون الخطط العسكرية كلها قد وصلت إلينا .

وأجابت سارة :

ـ إنشاء الله ، علي بالذهاب فوراً ، فجمال باشا ينتظرني الآن .

وصعدت سارة في العربة متجهة إلى مقر قيادة جمال باشا في جبل الزيتون .

سارة تسلب ألباب الضباط الشبان

انبهر الضباط الشبان واندهشوا حين رأوا سارة ... فلم يروا في حياتهم امرأة في هذا الجمال .

وانتشر الضباط العاملون مع جمال باشا في بيروت والشام هنا وهناك ينظرون إلى سارة باعجاب بالغ ، ومعظمهم لم يكن يعرفها حتى الآن ،

ولم يشاهدها عن قرب . فضباط مدينة القدس كانوا يشاهدون سارة ، صديقه جمال باشا للمرة الأولى .

وتساءل الكل :

- من هي هذه الحسناء ؟

ورد بعضهم قائلاً : لاندري ... والآخر يقول : إنها ضيفة جمال باشا .

وآخرون يقولون : إنها إحدى نساء الأمير فيصل وذهب البعض أبعد من هذا فقال: إنها جاسوسة جمال باشا ضد الانكليز .

وصعدت سارة الدرج دون أن تلتفت إلى أحد ودون أن تعير انتباهاً لأحد ، وقالت للحارس الواقف أمام مكتب جمال باشا :

- أريد مقابلة جمال باشا !

- ومن حضرتكم لأبلغه ذلك ؟

- قل له سارة ..

- وبعد برهة جاءها ضابط وقال :

- تفضلي يا آنسة سارة ، سعادة الباشا بانتظارك ، فسارت سارة ، والضابط في المقدمة إلى المكتب حيث رافقها خادم إلى مكان اقامة جمال باشا .

- أهلاً وسهلاً بكِ يا سارة، كيف حالك، كيف وجدتِ هواء مدينة القدس ؟

- إني بحالة جيدة ، إن الهواء في كل مدن فلسطين جميل بالنسبة لي ، ولكني اشتقت إليكم ، فلم أنم البارحة طوال الليل ، إلى حد أنني كنت سأرتكب حماقة يا سعادة الباشا .

فضحك جمال باشا وسألها قائلاً :

- أية حماقة هذه التي تتكلمين عنها ؟ فقالت سارة :

- كنتُ أنوي المجيء إليكم هنا ، في منتصف الليل ، كنت أريد أن

أفاجئكم ولكنني خفتُ أن يقبض علي أحدهم ...

ـ طبعاً يقبضون عليكِ ، فمن لا يعرف كلمة السر ، يرمى بالرصاص .

ـ أحقاً هذا يا باشا ؟

ـ طبعاً ، طبعاً ، إنكِ لا تعرفين هؤلاء الجنود . فالذي لا يرد على كلمة السر يقتلونه حتى ولو كان الباشا بنفسه .

ـ يا الهي ، الحمد لله أني لم آتِ . ثم ابتسمت سارة والتفتت يمنة ويساراً ، وقالت للباشا بلهجة طفولية :

ـ فليقتلونني ، ماذا أفعل ، فأنا لا أقوى على العيش بعيداً عنكم .

ـ وهل أنتِ بعيدة عني؟ انظري انكِ بالقرب مني ، بل قريبة جداً مني.

هذا صحيح ، إنما في الليل ، وخاصة في تلك الليلة كنت بعيدة عنكم ، لكننا سنكون سوياً هذه الليلة أليس كذلك يا باشا ؟

ـ إن أعمالي ومسؤولياتي كثيرة يا سارة . ولكن يمكننا أن نكون سوياً لفترة من الزمن ، ثم تابع بلهجة جادة :

ـ سارة ، هذا الشاب الملقب التير هل يمكن الوثوق به ؟

ـ طبعاً ، كل الوثوق ، وهو علاوة على ذلك إنسان خدوم .

ـ أنا أيضاً أظن هذا ، ترى هل تعتقدين أنه سوف يفيدنا بشيء ؟

ـ لا أدري ما هي المهمة التي أوكلتموها له ، يا سعادة الباشا ، ولكن إن كانت مهمة اسكات الصحافة المصرية ، فكونوا مطمئنين ، فسوف تنقلب كل تلك الشائعات التي تنشر بحقكم إلى سلة المهملات ، في أقرب وقت ممكن.

ـ أرجو أن يكون ذا فائدة لنا .

ـ إن شاء الله يا باشا .

ثم تابعت تقول :

ـ ماذا فعلتم بصدد الأمير فيصل يا باشا ؟

ـ لم أره بعد حتى الآن ، ولكننا سنتقابل الليلة في حفل العشاء .

ـ وهل تدعونني يا سعادة الباشا ؟

ـ كلا ...

ـ وهل سأكون وحيدة هذه الليلة أيضاً ، يا باشا ؟

ـ نعم ولا ...

ـ لم أفهم قصدكم يا سعادة الباشا .

ـ سوف تمضين قسماً من الليل بمفردك والقسم الآخر معي .

ـ أحقاً هذا يا باشا ، ولكن كيف ذلك ؟

ـ سآتي إليك بعد العشاء ، إلى حيث تقيمين .

فنظرت سارة إليه مندهشة ، ثم قالت :

ـ أإلى منزل ليديا ؟ عند ليديا يا سعادة الباشا ؟

ـ نعم ، ولم لا ، هل هناك مانع ؟

ـ كلا ، كلا يا سعادة الباشا ، واسمحوا لي أن أذهب باكراً ، لأخبر ليديا بالنبأ ونقوم بإعداد بعض الترتيبات .

ـ لا داعي لذلك يا سارة ، سآتي بعد حفلة العشاء مباشرة ، ولا أريد أن تعدّي شيئاً لي .

ـ سعادة الباشا ، لدي فكرة ، إن سمحتم لي ، أعرضها عليكم ؟

ـ تفضلي ، طبعاً .

ـ إن فلسطين بلدي ووطني ، والأمير فيصل من كبار ضيوفكم فإن سمحتم لي بالذهاب لزيارته ، سوف أشاركه كأساً من الشراب ، وأسليه بعض الشيء ، إنكم تعلمون مدى كرهي له ، ولكنني من أجلكم ، سأذهب ليشعر أنني مهتمة به وبصداقته .

لقد ذكرت لكم أثناء وجودكم في الشام رغبتي بدعوة الأمير إلى بلدي، وها قد تحقق ذلك ، فهل لي بزيارته والترحيب به .

ضحك جمال باشا عالياً ثم قال لها :

ـ آه منكِ يا سارة ، يمكنك الذهاب ، واحملي إليه تحياتي .

سارة عند الامير فيصل

ذهبت سارة برفقة ضابط ، إلى الفندق الذي يقيم فيه الأمير فيصل ، الذي كان جالساً برفقة المفتي أسعد الشقيري في الشرفة ، يتحادثان والشمس قد قاربت المغيب على سفوح جبال القدس ، وكانت نسمة عليلة تنعش القلوب. وبينما الأمير فيصل والمفتي الشقيري مشغولان بحديثهما دخل عليهما الضابط قائلاً :

لقد قدمت الآنسة سارة لزيارتكم ، وأصابتهما دهشة بالغة وقال الأمير فيصل .

ـ قل لها أن تتفضل يا سيد .

ودخلت سارة وعلى وجهها ابتسامة صغيرة وقالت أرجو أن لاأكون قد سببت ازعاجاً لسعادة الأمير وسعادة المفتي بقدومي فرد عليها الأمير قائلاً :

ـ استغفر الله بالعكس حصل لنا الشرف بقدومك .

وبدخول سارة إلى الشرفة، قال المفتي وهو يهمّ بالخروج والانسحاب : «أستودعكم الله» .

فقالت سارة : إلى أين يا سعادة المفتي ؟ لقد أتيت لزيارة سعادة الأمير لبرهة ، ولا يوجد أمر هام في الحديث الذي أنوي التكلم معه فيه ، أرجوكم ألا تذهبوا ، لقد أتيت لادعو سعادة الأمير إلى حفل العشاء نيابة عن سعادة الباشا ويشرفنا قدومكم يا سعادة المفتي أيضاً .

فوقف المفتي الشقيري عند باب الشرفة وقال : سيدتي ، حاولي أولاً إقناع سعادة الأمير بالموافقة على القدوم وأنا بالمعيّة ، سيكون لي الشرف

العظيم لتلبية دعوتكم، ثم خرج تاركاً سارة بمفردها مع الأمير فيصل .

قالت سارة بعد برهة صمت :

ـ هل ضاق سعادة الأمير ذرعاً من مدينة القدس ؟

ـ كلا ، كلا يا سارة ، لم أتضايق من إقامتي هنا في القدس ، هل هناك أخبار هامة ؟

فقالت سارة : الأخبار ، سيئة وجيدة في الوقت نفسه ، فابتسم الأمير فيصل ، ولم يعد يشعر بذلك الحرج والخجل اللذين كان يشعر بهما عند لقائه بسارة ، فلقد استأنس بوجودها كامرأة حسناء جميلة ، وكإنسانة تساعده وتأتيه بالأخبار المفيدة . فلقد كانت تتجسس لحسابه على أقرب الناس إليها جمال باشا ، ولكن هل هذا الأمر خطير بحد ذاته ؟ خصوصاً بأن جمال باشا لم يظهر أية مشاعر عدوانية تجاهه ، غير أن الأمير كان يؤمن بأنها كانت تقوم بهذا ، بدافع مصلحتها أيضاً وليس مصلحته فقط.

الانباء سيئة يا سعادة الامير

قالت سارة : الأنباء سيئة يا سعادة الأمير ، لأنكم لم ترحلوا إلى مكة، ووالدكم ، بسبب عدم ذهابكم ، لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع الانكليز فهو يقول : « ابني موجود عند الباشا كرهينة ومادام على هذه الحال فلا يمكنني اجراء أي اتفاق معكم » .

والأخبار سيئة جداً . فالانكليز عما قريب سوف يفتحون جبهة في فلسطين ، ويتمكنون من السيطرة على مدينة القدس في فترة وجيزة . ولما كان الانكليز لم يروا من طرفكم أية مبادرة أو دعم في السابق ، فإنهم سيعاملونكم مثل أي مواطن عادي ، فلن يمنحكونكم بالمستقبل لا سلطة ولا لقباً تملكونه اليوم . عليكم الاستفادة من الأوضاع الراهنة يا سعادة الأمير.

مسح الأمير فيصل لحيته ، ثم قال :

ـ لا . لا داعي لاستعجال مثل هذه الأمور يا آنسة ، فإننا سنواجه ما قدر لنا ولا مفر من القدر ، وما أراده الله يكون، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا إننا مخلوقات فانية، إنما نعيش ونتحرك بلطفه ورحمته تعالى .

فلننتظر قليلاً ، ولننصت إلى مشيئة الله تعالى وأمره .

ـ إن الله تعالى لا يريدكم أن تنتظروا أكثر من هذا ، يا سعادة الأمير! لأنك أحد أحفاد رسول الله وعليك أن تنقذ الإسلام ؟ وهذه الأراضي المقدسة لكم ؟ انكم تغضون النظر عن ملايين المسلمين الذين يعيشون تحت وطأة أسر الأتراك . إنكم تفرضون أنفسكم وامارتكم على ملايين المسلمين العرب ، هل يرضى الله عن هذا ؟

فرد عليها الأمير فيصل بلهجة أقل جدية من السابق :

ـ لاتستعجلي الأمور يا آنسة ، لا تستعجلي الأمور ، فإننا لا ندري ما سيأمرنا به الله تعالى .

ـ لا تدرون ما كتب الله لكم ولكن يكون قد فات الأوان يا سعادة الأمير ، فالانكليز يجهزون أنفسهم للتحرك في وقت قريب جداً .

ـ ولكني يا آنسة ، سمعت عكس ذلك . لقد علمت أن الدولة العثمانية مقدمة على تحرك كبير في المنطقة والأراضي المجاورة ترى أي الخبرين صحيح وأيهما خطأ .

ضحكت سارة قائلة : لن تمضي عشرة أيام حتى تعرفوا أي الخبرين صحيح يا سعادة الأمير .

ثم أضافت : إني قادمة من عند جمال باشا لتوي ، ولقد استأذنت منه أن أدعوكم لزيارة قريتي وقد سر لذلك ، فهل ترغبون بتشريفي ؟ سوف أذهب غدا إلى قريتي وإن سمحتم تفضلوا بمرافقتي غداً ...

ليديا مندهشة

فقال لها الأمير : أشكرك يا آنسة سارة ، أعدك بهذه الزيارة في مرة

قادمة إنشاء الله .

ـ حسناً ، إذاً هل تسمحون لي بالانصراف الآن ؟ سوف نلتقي في القريب العاجل وسوف أبلغ مضمون هذه المحادثات التي جرت بيننا للقيادة الانكليزية وعند حصولي على نبأ جديد فسأعلمكم به فوراً .

ـ أشكرك يا آنسة .

وخرجت سارة من فندق أدميرال متوترة الأعصاب ، وصعدت إلى العربة التي كانت بانتظارها ، وتوجهت على الفور إلى منزل ليديا .

وعندما دخلت المنزل صاحت منادية : ليديا ... ليديا ... أين أنتِ .

وأسرعت ليديا إلى الصالون وقالت :

ـ آه ... يا سارة ، هل عدتِ ؟ لقد شغلتِ بالي كثيراً اعتقدت بأن الباشا لن يدعك تعودين إلى منزلي اليوم .

ـ كلا يا ليديا ، بعد مقابلة جمال باشا ، ذهبت إلى الفندق الذي ينزل فيه الأمير فيصل وقمت بزيارته .

ـ إذاً لقد أنجزت أموراً هامة اليوم .

ـ لا تسألي ، أهم هذه الأمور آن جمال باشا قادم اليوم إلى هنا .

وارتبكت ليديا كأنها أصيبت بالبكم ثم تمتمت : لم أفهم يا سارة ، هل سيأتي جمال باشا الليلة إلى هنا ؟

ـ ولم لا يأتي ؟

ـ يا إلهي ، لعل في قدومه إلينا ، أمر لا نعرفه .

ـ لا تقلقي ، ليس هناك ما يشغل بالك ، ولا تفكري بهذه الطريقة يا ليديا بالله عليك . كل ما في الأمر ، أن الباشا قد اشتاق إليّ ، فبعد تناول العشاء في منزل الوالي سيأتي الباشا إلى هنا ، وسيبقى بصحبتي ساعة تقريباً ثم يذهب ثانية . هذا كل ما في الأمر .

ـ آه، هذا حسن جداً . فسيعلم الجميع بقدوم الباشا إلى هنا وهذا شيء

لمصلحتنا ، فلن يجرؤ بعد اليوم ، أي ضابط أو شرطي على الاقتراب من منزلي .

ـ وهل هناك من يأتي إليك يا ليديا ويضايقك .

ـ كلا ، كلا ، لا يوجد أحد ، ومع ذلك فإن قدومه إلى منزلي بالذات شكل من أشكال الحماية لنا .

وتابعت ليديا : علينا إذاً تحضير بعض الأمور والترتيبات لاستقبال الباشا.

ـ كلا يا ليديا ، فهو لا يرغب بأن نحضر شيئاً .

وبينما كانت سارة تنتظر قدوم جمال باشا كان هذا الأخير ، يتناول العشاء في منزل والي مدينة القدس ، مع الضباط والعسكريين وقادة أركان الجيش ويتبادل معهم أطراف الحديث .

فبالإضافة إلى الأمير فيصل ، كان جمال باشا قد دعا ضباط الجبهة، الذين حضروا إلى القدس من أجل الاجتماع العسكري المزمع عقده ، وهم اليوم مدعوون لحفلة العشاء هذه في منزل الوالي ، ومن بين هؤلاء الضباط فوزي باشا وعلي فؤادجيبيسوي، وجمال باشا المرسيني، وحسين حسني باشا، وعلي فؤاد أردم باشا، وضباط آخرون كثر .

وأثناء تناول العشاء ألقى جمال باشا كلمة بدأها قائلاً :

أعزائي اخوتي في السلاح !

إنكم ، في سبيل إبقاء راية الدولة العثمانية عالياً ، والحفاظ على راية الاسلام خفاقة ، تبذلون أرواحكم ودماءكم رخيصة على أرض هذا الوطن . فليكن الله تعالى دائماً عوناً لكم وبجانبكم ، وعليكم أن تؤمنوا بوجوده دوماً معكم .

إني أعرف أن هناك نقصاً كبيراً في العتاد والإمدادات في جبهتكم غير أن إيمانكم وإيمان جنودكم بالنصر القريب وإيماني بنصركم سوف يجعلنا

نتجاوز هذه المحنة . وسيذكركم التاريخ بكل فخر واعتزاز .

شكاوى الضباط

كان جمال باشا يهدف من وراء كلمته هذه ، رفع معنويات قادته، لأن مطاليب قواد الجبهات ، هذا الصباح في مقر قيادته ، كانت كثيرة ، ولذلك أراد جمال باشا رفع معنوياتهم ريثما يجيب على طلباتهم ويؤمن لهم مستلزماتهم . لقد كانوا يستعدون للحملة . غير أنهم يفتقرون لأبسط الأسباب والامكانيات التي تجعل تحقيق هذه الحملة أمراً واقعاً .

فالضباط قالوا للباشا في اجتماعهم صباح اليوم : « أن الجنود في الجبهات جياع ومرض الديزنتيريا يودي بحياتهم ، إن كل تحركاتنا مكشوفة فكيفيا توجهنا ، كانت قوات الأعداء بانتظارنا ، وكلما قمنا بحملة نجد أنفسنا نقع في الفخ المرسوم لنا. لذلك نطالب بإبقاء سرية كبيرة على الخطط العسكرية التي نرسمها . »

لم يعد جمال باشا ، في اجتماعه هذا الصباح، قادة الجبهات بأي شيء . غير أنه قال : قوموا بالاستعدادت اللازمة وباشروا التحرك خلال أسبوع . فلم يكن أحد يعرف كيف ، ومتى ، وأين تبدأ ، وأين تنتهي هذه الحملة ، ولم يكن أحد قد وضع دراسة لها .

ذهبوا إلى منزل ليديا

بعد تناول العشاء قال الباشا : سوف نرمي عما قريب الانكليز والفرنسيين وسط البحر خارج بلادنا وبعيداً عن وطننا ، ليرفرف علم الدولة التركية عالياً فوق الأرض المصرية وينتشر في كل أرجائها عندئذ تعالت أصوات.التصفيق من كل جانب مصحوبة بالدعاء إلى الله لتحقيق ذلك .

واستقل جمال باشا عربته التي تجرها الخيول وتوجه إلى منزل ليديا

المستقر في أعلى التل، وبرفقته خدمه ومرافقوه يحيطونه من كل جانب .

والتفت عند وصوله إلى ضباطه المرافقين قائلاً ، أنتم أيضاً ادخلوا واستمتعوا بعض الوقت .

كان منزل ليديا مؤلفاً من قسمين ، أحدهما البانسيون بيت الدعارة أما الثاني فكان مبنى مستقلاً أشبه بالفيلا .

ودخل جمال باشا مباشرة إلى الفيلا ، بينما دخل الضباط المرافقون إلى البانسيون .

جمال باشا يلتقي بليديا والتير

وأمام الباب ، قابل الباشا التير وليديا ، وفوجىء بوجود التير فسأله قائلاً :

ـ خيراً إن شاء الله مسيو التير أهناك شيء ما ليس على مايرام ، ماذا تفعل هنا ؟

انحنى التير محيياً جمال باشا وقال :

لقد قدمت لاستقبالكم يا سعادة الباشا . إن ليديا خطيبتي وإن تكرمتم ، فغداً سوف نتزوج ، وعندما سمعت بخبر قدومكم إلى هنا أسرعت بالمجيء لاستقبالكم ، هل من خدمة أؤديها لكم ؟

سر جمال باشا لهذا الكلام فقال لالتير :

ـ أشكرك يا التير ، ثم التفت إلى ليديا الواقفة جانباً تنظر إليهما بعينيها الزرقاوين ووجهها الأسمر البرونزي يلمع تحت الضوء الخافت عند مدخل المنزل وقال :

ـ إن الآنسة ليديا أيضاً في غاية الجمال ، لقد سمعت الكثيرين يمدحون جمالها ، أهنئك يا التير فلقد وجدت لنفسك زوجة في آية الجمال . فرد التير قائلاً :

- أشكركم يا سعادة الباشا .

وعند دخوله الصالون ، رأى الباشا سارة وقد ارتدت ثوب نوم شفاف، واقفة وسط الصالون تنتظره وقد انعكست صورتها على كامل جدرانه المليئة بالمرايا الكبيرة فبدت ، تحت الثريا الضخمة المتلألأة بالنور ، كجوهرة فريدة نادرة وجعلته نظرة عيونها البراقة ، يمتلئ بأحاسيس رائعة ، كما لوأنه يرى هذه الفاتنة للمرة الأولى .

اقتربت سارة من جمال باشا مرتعشة كطير ، وعانقته ، في حين كانت ليديا والتير قد غابا عن الأنظار منذ وقت طويل ، وهمست بغنج :

- هل أعد لكم كأساً يا سعادة الباشا ؟

- يمكنني أن أتناول كأساً واحداً .

ففتحت سارة زجاجة النبيذ الفاخر وملأت كأساً قدمته له :

- تفضلوا يا سعادة الباشا .

احتسى جمال باشا كأسين من النبيذ على التوالي ثم تمدد على الأريكة وثبتّ نظره على السقف وبدأ يفكر مع سريان مفعول النبيذ .

الذين مرّوا أمام أعين جمال باشا

تخيل جمال باشا وهو مستلقٍ يحدق في سقف الصالون ، أصدقاءه في استنبول ، فرأى طلعت باشا وأنور باشا والعديد من أصدقائه يمرون أمامه، وعادت إليه ذكريات أيام زمان ، فتذكر كيف تم تعيينه حاكاً على سوريا ولبنان ، وهزيمته في حملته الأولى على القناة ، وبدأ يفكر بالحملة الثانية التي يعدها ، فلقد بدأت قواته بالاعداد للتحرك ، غير أنها لا تملك السلاح ولا الذخيرة الكافية لهذه الحملة ، وعجزه عن تأمين لقمة الغذاء

والعلاج لجنوده الذين سيشتركون في هذه الحملة .

لقد عدد له القواد ، هذا الصباح ، في اجتماعهم معه بمقر قيادته ، كافة متطلباتهم ، وهو على علم بها ، ولكن ماذا يفعل إزاءها ؟ وكيف سيؤمن لهم احتياجاتهم ؟

هل كان عليه أن يجمع قواده قبيل قيامهم بالتحرك للحملة ويقول :

يا قوادي ، ويا ضباطي ، مهما فعلتم ومهما حاولتم فأنتم خاسرون لا محالة. لذلك أطلب إليكم أن تنسحبوا من هذه المهمة وان تنسوا الأمر من أصله ، واطلبوا من خصومكم القدوم إلى هنا لتسلموا أنفسكم إليهم ؟

كانت تلك الأفكار تراوده وتتعبه وتثقل كاهله .

لقد قدم إلى منزل ليديا لقضاء بضع ساعات من المتعة ، وكان مقرراً أن يعود فوراً إلى مقر قيادته ، غير أن الخدم والمحافظين الذين ينتظرون، اضطروا للبقاء حتى الصباح لملاقاته ثانية .

صباح ليلة عاشقة

عند آذان الفجر ، كان جمال باشا قد استحم ولبس ثيابه وتوجه إلى المسجد الأقصى ، واستقبله عند باب المسجد رجل عجوز تعرف عليه .

ولم يشأ جمال باشا أن تقام له أية مراسم استقبال عند ذهابه إلى المسجد . وتقدم حتى وصل إلى الصف الأول قرب المنبر وخلف الإمام ، وأقام صلاته ، ثم جلس بعدها يقرأ القرآن الكريم مدة طويلة . كان جمال باشا مؤمناً متعصباً ومسلماً متديناً ، يؤمن بالقدر وما كتبه الله له ، فوقف في خشوع يدعو ربه مطولاً .

ثم ، نزل إلى الطابق الأرضي للمسجد وقام بزيارة صخرة المعراج التي عرج من عليها سيدنا محمد (ﷺ) إلى السماء . وامتلأ المسجد أثناء ذلك بالعديد من المؤمنين الذين أمّوا الجامع ، غير أنه لم يكترث بوجودهم فلقد

كان خاشعاً وكل حواسه متجهة لمناجاة ربه .

الضباط أعدوا الخطط

وعند عودته إلى مقر قيادته ، لمح جمال باشا بعض الضباط يعملون في غرفة مجاورة ، وهم المكلفون بإعداد خطط الهجوم على غزة الغربية المقرر تنفيذها والقيام بها ، فتحدث إليهم قليلاً ، ودخل معهم في مناقشة بعض الأمور التي أثارت حدته ثم قال : عليكم بالاستفادة من كافة نقاط ضعف العدو ، لا تنسوا هذا ، وأعدوا خططكم بناءً على هذه المعطيات .

توجهت ليديا عندما استيقظت إلى غرفة نومها ، فلم تجد سارة هناك. فأسرعت بالبحث عنها في باقي الغرف ، لكنها لم تعثر على أثر لها . ووجدتها أخيراً في الحديقة فقالت لها :

ـ يبدو أنكِ استيقظتِ باكراً يا سارة .

ـ نعم ، هو كذلك ، وأنتِ متى أخلدتِ إلى النوم .

ـ لقد انتظرت رحيل الباشا طويلاً ، وعندما فقدت الأمل من ذلك، رافقت التير إلى غرفة النوم ، هل رحل الباشا في وقت متأخر من الليل ؟

ـ نعم ، لقد رحل مع أذان الفجر . كان يريد زيارة المسجد الأقصى . وبعد رحيله استيقظت أنا أيضاً ونزلت إلى الحديقة لاستنشاق الهواء العليل.

ـ أحسنتِ صنعاً يا سارة .

ستكون مدينة القدس عاصمةً لنا

كانت الشمس قد بدأت بالبزوغ على أطراف تلال مدينة القدس .

وكانت قبة المسجد الأقصى الملونة بأشعة الشمس ومآذن المساجد المحيطة بها ، والأشجار الخضراء المنتشرة هنا وهناك تشكل منظراً خلاباً .

فنظرت سارة ملياً إلى مدينة القدس وهي في هيئتها هذه، وقالت وهي تدعو في قلبها : إن شاء الله، سوف تكون القدس عاصمة لدولتنا الموسوية في القريب العاجل .

وعندما جاءت ليديا ، ذكرت لها ما تتمناه ، فقالت :

إن القدس مدينة جميلة ، وسوف تكون لنا عاصمة جميلة ، كما أن مركز معالمنا الدينية متواجدة فيها ، نرجو من الله أن لا تضيع جهودنا سدى وتذهب أدراج الريح .

فقالت سارة : إن شاء الله يا ليديا .

توجه جمال باشا إلى غرفته ، بعد اعطائه التعليمات اللازمة لضباطه العاملين بإعداد خطط الهجوم للحملة الثانية ، حيث وجد على مكتبه ، العديد من البرقيات المرسلة إليه مشفَّرة ، فجلس يقرؤها ، واحدة واحدة ، ولفتت نظره برقية مرسلة إليه من وزير الحربية أنور باشا .

كانت البرقية تطلب من جمال باشا تعيين جمال باشا المرسيني بدلاً من فخر الدين باشا الموجود في المدينة ، لعدم كفاءته وسوء تفاهمه مع الشريف علي بن حسين ، فمنعاً لحدوث أية خلافات يطلب أنور باشا من جمال باشا في هذه البرقية اجراء التعديل المذكور .

كان من المفروض أن يغضب جمال باشا عند قراءته لهذه البرقية غير أنه لم يغضب ولم ينفعل . إذ يبدو أن لوزير الحربية أنور باشا سبباً وجيهاً في طلبه هذا ، وإلا لما طلب مثل هذا التبديل وكتب جمال باشا جواباً لبرقية أنور باشا قال له فيها :

إن فخري باشا قائد جيد ويعرف كيف يخدم وطنه ، فهو يعمل ليلاً نهاراً في تلك المنطقة الحارة من البلاد ، فإن كنتم ترون ضرورة تغييره واستبداله بشخص آخر ، لمصلحة الوطن والأمة ، فإني اقترح تعيين عصمت

ميرلاي بدلاً عنه ، لأن لجمال باشا المرسيني[1] ، مهام عديدة وهامة عندي في جبهة فلسطين فأنا بحاجة إليه .

أرسل جمال باشا هذه البرقية لأنور باشا ، ثم طلب من دائرة الاتصالات التلغرافية ، تأمين الاتصال بالمدينة ، مع فخر الدين باشا ، فقد كان في تلك الآونة بإمكان القيادة في القدس الاتصال مباشرة مع قيادة المدينة على الخط التلغرافي والتحدث إلى المسؤولين هناك ، غير أن هذا الاتصال لا يمكن أن يتم إلا في مركز الدائرة بالذات وليس خارجها . لذلك طلب جمال باشا استدعاء فخري باشا إلى الدائرة ، للتحدث معه .

وبعد عدة ساعات ، وصل فخري باشا إلى مركز دائرة الاتصالات وبدأ بالتحدث مع جمال باشا .

فبعد أن سأله جمال باشا عن صحته قال له :

ـ كيف هي علاقتكم مع الشريف علي ؟

فأجاب فخري باشا : جيدة يا سعادة الباشا . فالبارحة تناولنا الغداء سوياً

ـ أقصد ألا توجد بينكما أية خلافات ؟

ـ كلا يا سعادة الباشا ، كلا ، فليس لدي أية شكوى ، إنما إن كان ممكناً ، أن ترسلوا لنا بعض المال والأرزاق ولا مطاليب لي غيرها. إني عاهدت نفسي أن أقاتل في المدينة من أجل رب العالمين أولاً ومن أجلكم ثانياً .

وبعد قليل، استقبل في مكتبه، جمال باشا المرسيني فقال له متسائلاً :

---

(١) لا يميّز البعض بين (جمال باشا المرسيني) قائد القوات العثمانية في فلسطين و (أحمد جمال باشا) القائد العام للجيش العثماني الرابع في المشرق العَربي ، صاحب قرارات مجلس عاليه العرفي .

لقد استلمت برقية من وزير الحربية يطلب فيها تعيينكم في المدينة ، ولكنني رفضت هذا الطلب ، ما رأيك لو أرسلت إلى هناك عصمت مرلاي ؟

- « الأمر منوط بكم يا سعادة الباشا ، فأنتم أدرى بذلك ، غير أن عصمت مرلاي يقوم بمهام كبيرة على الجبهة ، فمن سيكون خلفاً له ، وليس لدينا مرلاي آخر بين أيدينا . »

- « إذاً في هذه الحالة ، لاداعي لاجراء التبديلات ، ولكني منذ قليل، تكلمت مع فخري باشا ، واعلمني بأن الوضع هناك جيد ، وأنه لا يشتكي من أحد » .

- يبدو أن وزير الحربية قد وصلته معلومات خاطئة إذاً .

- من المحتمل أن يكون الأمر كذلك ، وقد يكون هذ الاقتراح من أنور باشا شخصياً ، ولا يستند إلى شكوى أحد . لولا أن (البرقية) أنيقة ومرتبة، لما لفتت انتباهي، غير أنني أعرف أسلوبه تماماً، فلو كان يقصد أمراً من وراء هذه البرقية لما كتبها بالشكل الذي أرسلها فيه . لا أعتقد بوجود أي سوء نية في هذا الموضوع من طرف أنور باشا. أم تراه ينوي ابعادك عني يا ترى ؟

فرد جمال باشا المرسيني :

« لا أعتقد ذك يا سعادة الباشا . ولا تنسوا أن فخري باشا أحد الضباط الذين هم تحت امرتكم في المدينة ، وأنا تحت امرتكم هنا .

أخذ جمال باشا البرقية وقرأها ثانية . ثم قال بهدوء :

أجل ، لا أعتقد أن هناك أي هدف من وراء هذه البرقية .

غير أننا في حال تبديل فخري باشا ، علينا ايجادمن يحل مكانه .

فقال جمال باشا المرسيني :

فلنترك مسألة التعيين للوزارة يا سعادة الباشا ، وإذا كان أنور باشا لا يرغب بفخري باشا فليعيّن هو أحداً بديلاً عنه .

ـ هذا ممكن ، ولكن أنا أيضاً ، يجب أن يعجبني من سيكون خلفاً لفخري باشا ، فلو تم تعيين شخص لا أرغب فيه ، ولا يعجبني ، فلن أوافق على تبديل فخري باشا ولن أدعه يتزحزح من مكانه . فليعلم أنور باشا جيداً أن تعيين قائد جديد يجب أن يتم بموافقتي ورضاي .

ـ معكم حق يا سعادة الباشا ، في هذه الحال فلننتظر رد وزارة الحرب إذاً .

ـ أجل فلننتظر لنرى ...

بينما كان جمال باشا منهمكاً في تحضير وإعداد ترتيبات الحملة العسكرية إلى غزة ، كانت سارة وليديا والتير يعملون جادين للحصول على خطط هذه الحملة العسكرية .

وكانت ليديا وفتياتها الثلاثون، يعملن بجد ونشاط ، ويحاولن بكل ما لديهن من وسائل للحصول على تلك الخطط ، من خلال معاشرتهن للضباط الأتراك الذين يأتون إليهنّ .

وكانت ليديا ،كل ليلة ، تمازح جواد باشا الذي كان يزورها دون انقطاع، محاولة انتزاع المعلومات والخطط العسكرية . فتردد أمامه عبارته مقلدة أسلوبه بالكلام : سنرحل كلنا من هنا خلال أسبوع ...

وكان التير مشغولاً بإعداد رحلته المرتقبة إلى مصر . فاتصل ببيروت وأعلمهم بضرورة تجهيز يخته للسفر إلى مصر . وكان عليه في الوقت نفسه الذهاب إلى زمارين لعقد زواجه على ليديا .

وكانت سارة قد أعدت كافة مراسيم الزواج قائلة وهي تضحك : لا يمكن لليديا والتير أن يموتا قبل أن يرتبطا واحدهما بالآخر .

مباشرة إلى زمارين

في الصباح ، بعد أن ودعت سارة جمال باشا ، توجهت برفقة ليديا

والتير إلى زمارين إحدى أوائل المستوطنات الموسوية التي أُنشأت هناك واستقبلت سارة في زمارين استقبال الفاتحين والملوك ، وكان الحاخام داوود شخصياً بين مستقبليها من الشبان والشابات والنساء والرجال والكهول والأطفال في فرحة عيد عارمة .

ورافقت سارة ليديا والتير، رويداً رويداً بين الجموع واتجهوا جميعاً إلى الكنيس .

كان الجميع يتوقون لحضور حفل زفاف ليديا والتير . فأقيمت في الكنيس مراسيم زواج رفيعة المستوى . وقرأ في مستهل هذه المراسيم، الحاخام أدعية بالعبرية وبارك لهما منزلها .

الكل كان يعلم بالعلاقة بين الباشا وسارة

وبعد إجراء مراسم الزواج ، توجه موكب الزوجين والمدعوين إلى منزل سارة . لقد كان كل شيء معداً بشكل رائع كا زينت مداخل المنزل بباقات الزهور من كل جانب ، ووزعت في الحديقة الأمامية الكراسي والطاولات بشكل منتظم .

كانت الموائد مليئة بزجاجات النبيذ ، وبعض السكان العرب يرقصون ويعزفون على المزمار ويدقون الطبل فرحاً وابتهاجاً بالعروسين . والشبان والشابات الموسويات يرقصون على أنغام فولكلورية موسوية[1] فالكل كان يرقص ويشرب ويتمتع بهذه الحفلة .

وجلست سارة برفقة ليديا والتير في زاوية من زوايا الحديقة ، وبدأ الدرك وأفراد الشرطة والمخاتير يتوافدون من القرى المجاورة لزمّارين[2]،

---

(١) الموسوية حسب تعبير الكاتب دين ، أما الفولكلور فتقاليد اجتماعية ، ولم نفهم ماذا يعني بمصطلح « الفولكلور الموسوي » هذا !! ـ المترجم ـ .

(٢) في عام ١٨٩٣ اشترى البارون (أدمون روتشيلد) أراضي بالقرب من زمّارين وعتليت ، حيث أقيمت فيها بعد مستعمرتا عتليت و (زخرون يعقوب) زمّارين وتقعان جنوبي حيفا .

فالحفلات التي تقيمها عائلة أرونسون ، غالباً ماتكون ملفتة للأنظار . ويدعى إليها كبار شخصيات القرى المجاورة . ولقد أقام العديد من تلك الشخصيات حفلة زواجهم في منزل عائلة أرونسون .

وكانت الأقاويل قد انتشرت في زمارين حول سارة وجمال باشا والكل كان على علم بهذه العلاقة .

فالجميع كان يعلم أن سارة عشيقة جمال باشا ولم يكن أحد يجهل هذا الأمر . فالكل يتحدث ويهمس ويلمز ، والبعض يحاول أن تقع عين سارة عليه لكسب رضاها وودها كما كان البعض يتهافت لتنفيذ أوامرها في الحال .

وكان قائد شرطة المنطقة يتودد لسارة ويقول لها من حين لآخر :

ـ هل تأمرون بشيء يا آنسة سارة ؟ وترد عليه بلهجة الملوك ، قائلة : أشكرك كثيراً .

أضفت سارة بجمالها الساحر مسحة خاصة على المكان والزمان ، وحضر جميع المدعوين محملين بهداياهم المتنوعة والكثيرة ، واستمر حفل الزفاف حتى طلوع الفجر غير أن سارة وليديا والتير كانوا قد انسحبوا من الحفل في وقت مبكّر ، وبعد أن عقدت اجتماعاً مصغراً في بيتها ، قالت سارة :

ـ ليديا يا حبيبتي ، إننا مضطران لتركك في ليلة زفافكِ وحدكِ هنا ، فعلينا أن نتوجه إلى الساحل ونحاول الاتصال بالغواصة الانكليزية . فأنا سأذهب بالغواصة لمقابلة الجنرال اللنبي . وغداً مساءً سأكون هنا ثانية . وعليكِ بانتظاري مع التير هنا حتى أعود .

قبلت سارة ليديا من وجنتيها ، ثم خرجت بهدوء ودون لفت انتباه المدعوين ، برفقة التير من الباب الخلفي للمنزل وتوجها إلى الساحل ، حيث كان ابراهام بولم بانتظارهما يتبادل الشارات الضوئية المتفق عليها مع الغواصة . وسر لقدوم سارة والتير .

فقالت له سارة : حسناً ، قل لهم أني آتية على الفور .

والتفتت إلى التير ، سوف نلتقي ليلة غد استودعك الله .

سارة تتوجه إلى الغواصة

صعدت سارة إلى الزورق الذي أعده ابراهام وبدأا يجدفان ، سارة في المقدمة وابراهام في المؤخرة . واتجها إلى حيث الغواصة الانكليزية راسية بانتظارهما على بعد ميلين من الشاطىء .

كانت سارة متعبة من حفل الزفاف، وقد سبب لها الخمر الذي شربته، ودوار البحر ، نوعاً من الغثيان ، جعلها تتصبب عرقاً حتى غدت لاتقوى على حمل المجداف .

وعند اقترابهما من الغواصة ، قام أحد الجنود الانكليز برمي حبل إلى الزورق . فربط ابراهام الحبل وشده الجندي إليه والتصق الزورق بجسم الغواصة العائمة ، غير أن الأمواج كانت تشد الزورق إليها وتعيد قذفه إلى جسم الغواصة ، ثم امتدّت ذراع إليهما ، أمسكت سارة بها ووجدت نفسها على ظهر الغواصة .

فقالت سارة لابراهام الذي بقي في الزورق :

ـ انتظرني غداً في مثل هذه الساعة على الساحل .

ـ حسناً ، حسناً ، لا تقلقي .

ـ قل للذين يسألون عنّي أنني أعمل في المختبر .

ـ لا تقلقي يا آنستي ، نحن سنتدبر الأمر حتى يوم غد .

وظهر ضابط على سطح الغواصة، فحياها ورافقها إلى داخل الغواصة بعد أن طلب منها أن تستند على ذراعه .

الغواصة في أعماق البحر

وقام أحد القواد بإعطاء أوامره ، وبعد لحظات كانت الغواصة قد غاصت في أعماق مياه البحر المتوسط .

لم تكن سارة قد استعادت رشدها ونشاطها الكاملين بعد . ولازال

العرق يتصبب منها ورأسها يدور من أثر الخمر وموج البحر ، إلا أنها لم تفقد صوابها تماماً فاستدارت إلى الضابط الوسيم الواقف بقربها وقالت له :

إني أرتجف أيها القائد ، هل يمكنكم أن تعطوني كأساً من النبيذ ؟

فقال لها القائد : تحت أمرك يا آنسة . أرجوك التوجه إلى قمرتي حيث تغيرين ثيابك وتضعين عليك غطاء السرير فبذلك لن تشعري بالبرد ورافق القائد سارة ، وهي مستندة على ذراعه ، إلى قمرته حيث مكثت هناك مدة طويلة .

سارة شاهدت السفن الحربية

عندما استيقظت سارة ، على أثر هزّة عنيفة شعرت بها ، وجدت نفسها بمفردها في السرير ، وكأنها لا تذكر شيئاً مما حدث . فلقد كانت لاتقوى على الحركة من التعب والخمر الذي تناولته في الليلة السابقة .

وعندما حاولت التحرك في السرير ، شعرت بألم شديد في رأسها .

وبصعوبة كبيرة استطاعت أن تقف على رجليها لترتدي ثيابها ، وبعدها خرجت من مقصورتها وصعدت إلى غرفة القيادة لترى من هناك السفن الحربية على سطح البحر الواحدة بجانب الأخرى ، وهي مشدوهة ، فكادت تفقد صوابها من شدة فرحها . هذا يعني أنها قد وصلت إلى مقر الأسطول .

فسألت قائد الغواصة عن الجنرال اللنبي وأعربت عن رغبتها بمقابلته. ثم راحت تجول بنظرها وتستمتع بمشاهدة السفن الحربية الراسية في كل جانب .

رأت سارة ساحلاً من بعيد ، بدا لها أنه الساحل المصري ثم تابعت تأملها للسفن الحربية الراسية .

وفكرت في نفسها قائلةً : هذه السفن ستصل يوماً ما إلى فلسطين ، ولكن ترى ماذا ينتظر الجنرال للذهاب إلى فلسطين ؟

كانت أمواج البحر تتلألأ والشمس تتوسط السماء وترسل أشعتها وحرارتها إلى سطح الأرض ، فشعرت سارة برغبة في الغطس في البحر ، ووقفت تتأمل مسحورة موج البحر المتلألىء ، ولكن صوتا مرافقاً لصوت محرك قطع عليها أحلامها وتأملها ، فالتفتت ، فرأت قائد الغواصة على متن زورق يجري بجانب الغواصة يناديها قائلاً :

هل أنت جاهزة يا آنسة سارة ، فالجنرال اللنبي بانتظارك في المطعم.

اقترب قائد الغواصة بزورقه من الغواصة وساعد سارة على النزول إليه ثم قال لسارة :

- أرجو أن تكوني قد أمضيتِ ليلة هنيئة .

- بفضلكم يا سيدي القائد .

- لقد قلق الجنرال كثيراً من أجل صحتك ، وأمر برعايتكِ وتأمين كافة وسائل الراحة لكِ . فإن كنتِ بحاجة لشيء ، أرجو أن تعلميني به .

- طبعاً ، طبعاً ، وسوف أنقل إلى الجنرال كيف أوليتموني رعاية واهتماماً بالغين كما أنني سأطلب العودة معكم ، إن لم يكن لديكم مانعاً ...

واقترب الزورق من الأسطول الحربي حيث مقر الجنرال اللنبي .

تسلقت سارة السلّم بمساعدة قائد الغواصة حيث كان قائد الأسطول بانتظارها في حين أبحر قائد الغواصة بزورقه عائداً من حيث أتى ، وترك سارة بضيافة الأسطول الحربي .

رافق قائد الأسطول سارة إلى الشرفة المجاورة لمقر الجنرال اللنبي وأجلسها إلى طاولة ، فاستندت سارة على زاوية المقعد وأشعلت سيجارة وسحبت منها سحبة عميقة فقال لها قائد الأسطول :

- سوف يأتي سعادة الجنرال بعد قليل ، وقد طلب مني كوبين من القهوة لكما ، كيف تريدين قهوتك يا آنسة سارة ؟

- أريد قهوة بالحليب ...

بعد برهة قصيرة ، اقترب رجل على وجهه نمش ، وبيده عصا يلوح بها. واستناداً لما سمعت من أوصافه تعرفت سارة على الرجل المرتدي زياً عسكرياً مميزاً ، إنه الجنرال اللنبي دون شك . قالت في نفسها ، ثم نهضت وتقدمت نحوه بضع خطوات .

قال الجنرال وهو يقترب منها .

ـ الطقس جميل ، أليس كذلك يا آنسة ؟

ـ أجل يا سيدي الجنرال الطقس والبحر أيضاً ، إلا أن البحر الأسود ليس بهذا الجمال .

وكانت سارة قد دعمت الجنرال الكبير في الحملة الأولى بما قدمه من معلومات .

ولكن الجنرال ، ورغم اشارة سارة لها ، لم يعطِ الأمر اهتماماً ، بل تظاهر بعدم فهم قصد سارة وقال : طبعاً ، فاقليم البحر الأسود جاف بطبيعته .

صافح الجنرال سارة بكلتا يديه الكبيرتين ، فضاعت أصابع يدها في كفيه لكبرهما ، وقال الجنرال :

ـ يا آنسة ، لقد نقلوا لي صورة خاطئة عنكِ ، إذ قالوا لي أنك جميلة وذكية ، كان عليهم أن يقولوا لي أنك جميلة جداً وذكية جداً .

ـ أشكر لكم لفتتكم يا سيدي الجنرال. ولكني لا أعتقد انكم قلتم شيئاً جديداً فأنا اسمع هذه الكلمات كل يوم ممن حولي، وسأظل أسمعها حتى مماتي .

فرفع الجنرال حاجبيه وأطلق ضحكة كبيرة وقال :

ـ لقد قالوا لي أيضاً أنكِ سريعة البديهة ، وجوابكِ على لسانكِ .

ـ نعم يا سيدي الجنرال ، وجمال باشا أيضاً ، في كل يوم ، يلاحظ فيَّ هذه الصفات .

عند سماع لفظ اسم جمال باشا ، قال الجنرال بلهجة جادة :

ـ أيتها الفتاة الصغيرة ، صفي لي هذا الذي اسمه جمال باشا ؟

فتنهدت سارة قليلاً ، ثم اراحت كتفيها على المقعد ، وقالت :

ـ سيدي الجنرال : إن جمال باشا إنسان كغيره من الناس ... يشبهني ويشبهكم . إنه لا يختلف عن أي إنسان آخر ، فهو يفكر ، ويعشق ، ويشعر مثلنا تماماً ...

ـ هذا أمر سيء يا آنسة سارة ، إذا كان جمال باشا يفكر بطريقتنا ، ويتصرف مثلنا ، فهذا أمر سيء جداً ...

سكت الجنرال برهة ، ثم تابع : إني سمعتهم يقولون انه إنسان شديد وصارم وظالم . غير أنه لم يظهر هذه الشدة وهذا الظلم في وجه العرب . فهو يتعامل معهم بكل رفق ، وعلاقته جيدة معهم، فلقد وصلني ، أنه لم يعدم الجواسيس العرب الذين تعاملوا مع الفرنسيين ما سبب ذلك يا ترى ؟

ـ لا تتفاءلوا يا سيدي . فسوف يعدمهم قريباً . إن من واجبات القائد ، أن يعدم مثل هؤلاء الخونة . إلا أن جمال باشا يتريث قليلاً .

ـ ولكن استعجاله للأمر ، سيكون في مصلحتنا . فنحن نريد أن تتأزم العلاقات بين جمال باشا والعرب ، وأن تسود العداوة بينهما . فبعد مغادرتنا والد الأمير فيصل ، كنا نتوقع اعلان « حركة الخلاص العربية ».

ـ يا سيدي الجنرال : هل تعتقد أن العرب والأتراك سيشنون الحرب لوحدهما ، أم أنكم أنتم الذين سوف ترمون الأتراك خارج هذه البلاد ، أنا لا أفهم ما يحصل .

ـ سارة ، يا ابنتي ، أنتِ فتاة ذكية ، هناك نقاط استراتيجية في الحروب . وتقدير أهمية هذه الاستراتيجية وكيفيتها أمر عائد للقائد فقط . فأنا تحت مسؤولية وحمل كبيرين .

فلن انطلق إلى الأراضي الفلسطينية ما لم أكتشف واعزز نقاط ضعف الأتراك ، خصوصاً في الداخل ، وما لم أجعل العرب والأتراك يحاربون

بعضهم بعضا وما لم أبث الخلافات والتناحرات بين صفوف القواد الأتراك ، وما لم أخلق سوء تفاهم وخلافات بين الالمان والأتراك أنفسهم، فطالما لم تتحقق كل هذه الأمور ، لن أتحرك باتجاه فلسطين ولن أقوم بأي حملة تطهير على أراضيها .

لا تنسي ، أن هؤلاء الأتراك البسطاء الطيبين الذين ترينهم ، ينقلبون أسوداً في جبهات القتال . إن اندحار قواتنا في (جنق قلعة) أساء إلى هيبتنا العسكرية في نظر العالم ، علي أن أفكر بإعادة اعتبار الإمبراطورية الانكليزية . إنني متفهم ومقدر لغضبك وهيجانكِ ولكن علي أن أذكرك أن النصر لا يأتي إلا بالعقل والتفكير والمنطق ، وبالذكاء .

ولا تنسي أيضاً أن سبعة اضعاف ما بذلناه من مال على الجبهة الفرنسية قد صرفناه على « جهاز الاستخبارات » في الأراضي العربية . فالنصر على جبهة فلسطين وفي الأراضي العربية سيأتي على يد جهاز الاستخبارات هذا . بمعنى أن شرف الانتصار هذا سيكون لكِ يا آنستي ، فأنتِ ورفاقكِ بمثابة عيوننا وأيدينا ، ومثابرتكم على عملكم سيوصلنا إلى النصر النهائي الكبير .

لذلك علينا بالتريث ، فبعد أن تصبحوا العيون والآذان بشكل كامل، لنا عندها نعرف كيف نتحرك ، لا تقلقي لهذا الأمر .

علينا منع جمال باشا من أن يعفو عن هؤلاء الذين اعتقلهم في بيروت والشام ، إذ أن اطلاق سراح هؤلاء المعتقلين العرب ، سيؤخر اعلان حركة الخلاص العربية .

وإحدى شروط ومستلزمات اندلاع هذه الحركة هو رحيل الأمير فيصل إلى مكة .

- سيدي الجنرال : إن الأمير فيصل مالم يحصل منكم على ضمانات لن يأتي بأية حركة . أنا متأكدة من ذلك .

لقد تحدثت معه مراراً حول هذا الموضوع . إنه يريد أن ترسموا حدود العربية ، وتحددوا حجم المساعدات التي ستقدومونها لهم منذ الآن ، وفي اعلان العصيان ، هل ستتركونهم يواجهون الأتراك بمفردهم ؟

فقال الجنرال :

ـ إنه محق في هذا ! إنما أريد أن أذكر لكِ أننا سنضطر لترك الأمير فيصل وقواته تواجه القوات التركية لفترة وجيزة . إنه تكتيك حرب يا آنستي. فالحرب لا نديرها نحن ، بل المصالح هي التي تسيّرها يا آنستي !

فطالما أننا لسنا واثقين من سيطرة العرب على هذه الأراضي ، ولطالما أننا لم نرَ بعد قيام هذه الدولة العربية ، فإننا لا نرى لزوماً لأي اجراء بهذا الصدد ، لذلك ، أرى أن لا تعيري اهتماماً كبيراً لهذا الأمر ، بل انصحكِ بإهماله ومضاعفة جهودكم .

فوضعت سارة فنجان القهوة الذي كان بيدها على الطاولة ثم ضربت بيديها عليها قائلة :

ـ يا جنرال ... يا جنرال ...أأنا التي تحارب أم أنتم . فنحن لسنا سوى جهاز استخبارات وليس جنوداً ، إننا نرسل إليكم المعلومات يوماً بعد يوم ، غير أنكم خائفون لا تقوون على التحرك ، فهل علينا نحن أن نتحمل هذا الذنب ؟ يجب أن تعرفوا جيداً أنه مالم تريقوا الدماء فلن تستطيعوا اجلاء القوات التركية من البلاد . إننا نطالبكم بدماء الأتراك أولاً والعرب ثانياً ، إننا نطالبكم بدمائهم ...

فإن لم ترق هذه الدماء ، فلن تكون هناك دولة موسوية ، يجب أن يراق الدم التركي ، يجب طرد الأتراك من بلادنا ، ومن بعدها سيتحقق وعدكم لنا ، فنحن لا علاقة لنا بتفاهمكم أو عدمه مع الأمير فيصل ، إننا نجاهد لتطهير فلسطين . إننا مقابل اعطائكم لنا حفنة من التراب نؤدي لكم كل هذه الخدمات . يجب على الإمبراطورية الانكليزية أن تعلم هذا ! ...

فرد عليها الجنرال :

ـ معكِ حق يا آنسة ، ولكن لكي نطرد الأتراك من فلسطين ، عليكم تحقيق ما طلب منكم . وإلا فستستمر الحرب سنين عديدة أُخرى .

لقد ضربنا الحصار على السواحل لمنع وصول الامدادت الالمانية إلى الأتراك . واستمرار الحرب يضرنا بل يضر الأتراك والالمان أكثر ، ومع مرور الوقت ، سوف تضعف قوة أعدائنا ، إننا ، كقادة ، نفهم ونقدر هذه الأمور، لذلك ، ساقول لكِ الآتي :

إن القوات الالمانية حققت انتصاراً كبيراً على القوات الفرنسية المتواجدة في الجبهة الغربية ، ونحن كانكليز ، علينا مساعدة الفرنسيين ، لذلك فإن قسماً كبيراً من هذه القوات التي شاهدتها ، سوف ترسل إلى الجبهة الغربية لمساعدة ومساندة القوات الفرنسية .

وبناءً على هذه الاعتبارات ، أطلب منك المزيد من الصبر ، فالعرب ، رويداً رويداً ، سيتحركون ضد الأتراك ، عليكِ بمتابعة أمر إعدام أولئك المعتقلين العرب ، وسوف ترين كيف سيرحل الأمير فيصل في اليوم التالي إلى مكة وسيُعلن العصيان في كل شبر من الأراضي العربية .

ثم ، هناك أمر آخر يقع على عاتقكِ يا آنسة سارة ! حسب المعلومات التي وردتنا ، فقد تقرر ارسال قائد جبهة جنق قلعة إلى جبهة فلسطين لاستلام قيادتها هناك . لقد حصلنا على هذا النبأ من مصدره من استنبول . كما أن زيارة أنور باشا متوقعة قريباً ، للشام وللمدينة ، ولعلمكِ فإن غياب أنور باشا ـ يضعف القيادة التركية ، لأنه القائد التركي الوحيد المتعاطف مع الالمان . فقتل أنور باشا معناه الغاء الاتفاق الألماني ـ التركي. وعندها سيرضى الأتراك بصلح منفرد .

أصغي إليّ جيداً ، علينا إنهاء أنور باشا مهما كلف الأمر وبأي ثمن ويجب أن يتم قتله بأيدٍ عربية ، لكي تثور ثائرة الأتراك ويصبوها على العرب.

ـ هذا ليس بالأمر السهل يا سيدي الجنرال ، إحباط تعيين مصطفى كال باشا أمر ممكن ، أمّا قتل أنور باشا وفي مقر جمال باشا ، فأمر صعب تنفيذه يا سيدي الجنرال .

ـ سوف تقدم لكِ (الشبكة) كل المساعدة اللازمة .

إني واثق بأنكِ تستطيعين القيام بهذه المهمة بكل سهولة .

ـ سوف أحاول يا سيدي الجنرال . سوف أقابل الرفاق وأبحث معهم هذا الأمر . ثم تابعت سارة : سيأتي التير إليكم قريباً ، أرجو مساعدته وتسهيل مهمته . وسوف نرسل معه خطط القتال على جبهة غزة الغربية التي أعدها جمال باشا .

ـ أجل ، يجب أن نحصل على هذه الخطط حتماً ، ثم لا تقلقي بشأن التير ، سوف نساعده على تهدئة الصحافة والإقلال من نشر مقالات تندد بالباشا . ونزوده بمعلومات عن قواتنا وفعالياتنا ، حسب المستطاع ، لكي يثق الباشا بالتير ويعتمده عميلاً له . لا تقلقي بهذا الشأن مطلقاً .

ـ أشكرك يا سيدي الجنرال .

دعم مادي لاعلان العصيان

قال الجنرال : عند مقابلتك للأمير فيصل ، ارجو أن تؤكدي دعمنا له والتزامنا بمساعدته ، وقولي له أن هذا وعد .

على كل حال ، منذ عدة أيام توجه سكرتير وزارة الخارجية المسؤول عن الشرق الأوسط السيد رونالد ستورز واجتمع في القاهرة مع رئيس المكتب العربي البروفيسور هوغارتن الذي سافر برفقة وفد إلى الحجاز لمقابلة الشريف حسين ، وقد اجتمع هذا الوفد مع ابنه زيد وجرت مباحثات انتهت إلى ترتيبات واتخاذ بعض القرارات ، لذلك سنرسل لهم ثلاثة آلاف بندقية وعُدداً حربية وبطاريات مدفعية وستة رشاشات وسوف نمدهم بالأغذية والتموين ،

وبمجموعة من الجنود المسلمين من مصر .

لقد تقرر إرسال هذه المساعدات وهذه الإمدادات للاستعداد لبدء العصيان ، أما فيما يتعلق برسم حدود بلادهم ، فهم يعلمون أننا ننوي اعطاء فلسطين للموسويين بعد انتهاء الحرب ، واتفقنا على ترك سوريا ولبنان للفرنسيين ، سوف نترك مكة والمدينة والحجاز للشريف حسين ، ولايمكننا التخلي عن أية أراضٍ أخرى ، ولا مجال للبحث فيها .

عليكِ بإبلاغ الأمير فيصل بقراراتنا هذه ، وإفهامه بأنها قطعية لا مجال للجدال فيها . علماً بأن والده قد قبل بهذا التقسيم في مستهل محادثاتنا معه ، أرجو ابلاغه هذا الأمر واحاطته علماً بالوضع والقرارات المتفق عليها .

أما فيما يتعلق بالحرب ، فهناك تدابير سيتم اتخاذها ، لا تشغلك هذه الاجراءات ، وسوف نقوم ببعض الأعمال الهجومية في غزة .

إن تنفيذ مثل هذه الخطط يعود اقراره إلى تقديراتنا العسكرية . في حين أننا نرغب بشد انتباه الباشا إلى أمر آخر ، وإلى طرف آخر . فسوف نقوم بهجوم على طريق اسكندرون ـ أضنا ، وأنتم في الشام عليكم بإفهام جمال باشا أن الانكليز ينوون قطع طريق اسكندرون ـ أضنا ، لمنع وصول الإمدادات القادمة إليه ، هذا الأمر يجب أن يعلمه الباشا وضباطه . أما نحن فسنقوم بالتحرك ، بمؤازرة القوات الفرنسية في تلك المنطقة ، وطبعاً سيكون تحركنا صورياً ، لأننا في حقيقة الأمر ، سوف نوجه قواتنا إلى جبهة فلسطين وغزة .

ـ فهمت يا سيدي الجنرال .

ـ لنستعرض معاً ما ستقومين به وما قررناه سوياً :

١ ـ احباط رئاسة مصطفى كال باشا للقوات المتواجدة في مكة ، ومنع وصول هذه القوات إلى فلسطين .

٢ ـ التأكيد على التحاق الأمير فيصل بوالده في مكة ، وضرورة تنفيذ ذلك في أقرب وقت ممكن .

٣ ـ العمل على تنفيذ حكم الإعدام بالمعتقلين العرب الذين تعاملوا مع الفرنسيين .

٤ ـ ارسال خطط تحركات القوات التركية المرتقبة إلى غزة .

٥ ـ التحضير لاغتيال أنور باشا وإعداد الخطة اللازمة للتنفيذ .

٦ ـ ترويج نبأ قيام الفرنسيين والانكليز بقطع طريق أضنا ـ اسكندرون.

أرجو يا آنسة سارة العمل على تنفيذ هذه البنود الستة التي ذكرتها لكِ والتقيد بها .

ـ كما تأمرون يا سيدي الجنرال . يمكنكم الاعتماد علينا في ترجمة هذه البنود الستة على أرض الواقع . وأرجو أن تعذروني على انفعالي وغضبي منكم . إن آلاف الموسويين الموجودين في فلسطين ، ينتظرون بفارغ الصبر أن تطأ أقدامكم أرض فلسطين . لقد أردت فقط أن أطلعكم على الظروف القاسية التي نعيشها من أجل تحقيق هدفنا باقامة دولة موسوية لنا .

لا يمكنني أن أصف لكم شعورنا ونحن نرمي شرفنا وكرامتنا وعفتنا ، تحت أرجل الضباط الأتراك ، لنحصل على كلمة واحدة منهم تساعدكم في القضاء عليهم . لذلك ، أرجو قبول اعتذاري لانفعالي وغضبي المنبعثين من هذا الشعور المر الذي يقبع في داخلي وداخل كل موسوي .

ـ إني أفهم ذلك ، أفهم ذلك ، ولكن لا تنسي أن حصاد هذا الجهد وهذه التضحيات سيكون النصر الأكيد .

ـ انشاء الله

ـ متى ستعودين ؟

ـ الليلة بالذات .

ـ ذلك حسن ، فلتعيدك الغواصة إلى فلسطين .

أول كأس نبيذ سأشربه من مخزنكِ

وهكذا تم اللقاء التاريخي بين سارة والجنرال اللنبي ، فصافحت سارة الجنرال قائلة :

ـ إلى اللقاء في فلسطين .

ورد عليها الجنرال :

ـ أول كأس نبيذ أشربها في فلسطين سوف تكون من النبيذ المعتق في مخزنكِ .

ـ وأنا ، منذ اليوم ، سأبدأ بتخزين أفخر الخمور لكم ، فهذا شرف عظيم لعائلة آرونسون يا سيدي الجنرال .

يا آنسة نحن لسنا بليدين باردين

ركبت سارة زورقاً صغيراً وتوجهت نحو الغواصة ، حيث استقبلها قائد الغواصة ، ورافقها مباشرة إلى قمرته . وسألها :

ـ كيف وجدتِ جنرالنا يا آنسة ؟

ـ إنه إنسان رائع ، غير أن دمه كبقية الانكليز بارد .

فضحك قائد الغواصة وقال :

ـ يا آنسة ، إنكِ تفترين علينا ، إننا نظهر وكأننا بليدون باردون ، لكن في الحقيقة لسنا كذلك . وإذا شئتِ فإني استطيع اثبات ذلك لكِ .

لم تنتبه سارة إلى ما قصده قائد الغواصة في بادىء الأمر ، فضحكت قائلة : كيف يمكنك اثبات ذلك ؟

فعانق قائد الغواصة سارة بحركة رشيقة ، وبدأ يقبلها .

فوجدت سارة نفسها في موقف لم تكن تتوقعه. فقالت له : لو أن قوات الحلفاء ، والجنرال اللنبي كانوا مثلك ، وبهذا الاندفاع ، لكانت الآن القوات الانكليزية قد احتلت فلسطين .

فضحك قائد الغواصة وقال :كلا يا آنسة ، فالأمر يختلف . إن احتلال النساء ليس كاحتلال البلاد. فالبلاد يحتلها القواد الكبار ، الناضجون بتفكيرهم وذكائهم وحنكتهم . أما الاستيلاء على الفتيات وقلوبهن فيحتاج إلى حس مرهف بالحياة ، وهذا ما نتميز به نحن الضباط الصغار .

ـ في تلك الحالة ، أنا أرغب بالاثنين معاً . فاتحي الفتيات والبلدان .

ـ إذاً الجنرال اللنبي سيتولى مهمة البلدان ، وأنا الفتيات ، هل يمكن ذلك يا آنسة .

ـ نعم يمكن ، عند وصول الجنرال إلى فلسطين سأعد له زجاجة نبيذ فاخرة معتقة ، أما لك ، فسأعد غرفة نومي ، هل يكفيك هذا ؟

خرج قائد الغواصة من القمرة وقام بإعطاء جنوده التعليمات اللازمة ثم عاد ثانية وقال :

ـ إننا نغطس يا آنسة ... سوف نصل في منتصف الليل إلى شاطىء زمّارين سيكونون بإنتظارك أليس كذلك ؟

ـ طبعاً سيأتي ابراهام للقائي .

كلمة السر : النصر

عند صعود الغواصة إلى سطح المياه ، شوهد ضوء يتوهج ثم يخفت على الشاطىء .

فقال قائد الغواصة للجندي العامل على سطح الغواصة والذي يقوم بإرسال الإشارات الضوئية والرسائل .

ـ اسأله عن كلمة السر ؟

فأرسل الجندي اشارات طالباً ممن كانوا على الشاطىء إعطاءه كلمة السر . وبعد برهة قال الجندي : كلمة السر صحيحة وسليمة يا سيدي ، كانت كلمة السر : النصر .

وبعد نصف ساعة سُمع صوت ابراهام وهو ينادي من زورقه ، فعانق قائد الغواصة سارة ، وقبّلها من وجنتيها ، وأمسك بيديها ، ثم ساعدها على النزول إلى الزورق .

وبدأت سارة وابراهام ، كلٌ من جانب ، بالتجديف بأقصى سرعة للوصول إلى الشاطىء ، دون أن يتبادلا أية كلمة وبالكاد رمت سارة نفسها على الشاطىء وتوجهت برفقة ابراهام نحو عربة تجرها الخيول كانت بانتظارهما تحت الأشجار .

صعدت سارة العربة ، وتنفست الصعداء . وقالت :

ـ أخبرني يا ابراهام عما جرى أثناء غيابي ؟

ـ لا توجد أية أنباء مهمة يا آنستي .

ـ ماذا يفعل التير وليديا .

ـ إنهما في شهر عسلهما يا آنستي ، فقد أقاما الاحتفالات لمدة يومين لكي يتمكن المخاتير والدرك في كافة أرجاء زمارين من الحضور .

ـ هل مازال كل المدعوين في قريتنا ؟

ـ نعم يا آنسة ، لو أنكِ فقط ترينهم .

سارة تدخل إلى البيت

أثناء عودتها إلى كوخها ، من الباب الخلفي الذي يطل على الحديقة، قابلت سارة العديد من الشبان والفتيات السكارى ، الذين شربوا الخمر حتى الثمالة ، ومرت دون أن يلاحظها أحد .

وسرت سارة لهذا الوضع ، ولأن الدرك ، والمخاتير ، وأفراد الشرطة ورؤسائهم الذين قدموا إلى منزلها ، لم يلحظوا دخولها وخروجها من الكوخ ، ولم يلحظوا غيابها .

دخلت سارة إلى غرفتها واستدعت ليديا والتير .

فقالت ليديا : آه سارة ، هل عدتِ ، لقد اشتقتُ إليكِ كثيراً . وكنت قلقة جداً بشأنكِ .

ـ لماذا هل هناك ما يستدعي القلق ؟

ـ لقد كنت أخشى أن يطلبك جمال باشا .

ـ قولي له أنني صعدت إلى الجبال ، ذهبتُ لجمع النباتات ، أو أنني أعمل في المختبر ، وبذلك يمكنكِ ابعاده يوم أو يومين على الأقل .

ـ معك حق يا سارة ، ولكن مع ذلك كان لابد لي أن أقلق عليكِ .

وشارك التير في الحديث وقال :

ـ عندنا لكِ أخبار سارَّة ...

ـ ما هي ؟ سألته سارة .

ـ لقد تمكنت فايستر هايم من الحصول على كل خطط حملة جمال باشا إلى غزة الغربية ، ففرحت سارة ، وصاحت :

ـ مرحى لك يا فايستر ... مرحى لكِ ...

إنها على كل حال فتاة لعوب شقية ، وكيف تمكنت من الحصول عليها .

ـ سرقتها من منزل قائد المئة جواد أدهم .

ـ لحسن الحظ لم تكوني في القدس أثناءها يا ليديا ، فهذه الفتاة تعمل لديكِ ، وفي حال اشتباههم بالأمر ، فسوف تكونين أول من يمسه الأذى.

ـ نعم ولكن لا تنسوا أن فايستر نمساوية ولا يعلم أحد بأنها موسوية.

ثم التفتت سارة إلى التير وسألته :

ـ هل قمت بتحضير كافة أمورك ؟

ـ نعم يا سيدتي ... غداً صباحاً سوف يأتون باليخت من بيروت إلى يافا ، وسوف أغادر يافا بعد ظهر يوم غد ، وأتوجه إلى الاسكندرية .

ـ حسناً ، لقد أعلمت الجنرال اللنبي بقدومك ، وسوف يعمل على مساعدتك وتسهيل أمورك .

سوف يتأخر قدوم الانكليز النيام ، لذلك علينا أن نتحلى قليلاً بالصبر والثبات .

فقال التير : سوف تكون هذه الخطط العسكرية ذات فائدة كبيرة للانكليز .

ـ طبعاً .

قالت ليديا : هل ترغبين بأن ترتاحي قليلاً يا سارة !

ـ كلا كلا يا ليديا فلننزل إلى الحديقة ، ولنشارك المدعوّين فرحتهم .

فأطلقت ليديا ضحكة عالية وقالت : كلهم مخدرون ، لقد دسسنا في كؤوس النبيذ قليلاً من الأفيون ، فكل أركان الدولة الآن مغمى عليهم في الحديقة .

ـ أحسنتم صنعاً ، فزواجكم كان خير وسيلة لنا .

ونزلت سارة يتبعها التير وليديا إلى الصالون ، ووجدوا الفتيات الموسويات والعديد من الضباط سكارى ونصف نائمين هنا وهناك . فقد تحول كوخ سارة إلى بيت للعشاق .

نظرت سارة إلى ما حققته وأبدعته فرقة الفتيات الموسويات وقالت لالتير : إن قوة هؤلاء الفتيات يفوق قوة جيش الجنرال اللنبي تأكد أنه من دوننا لن يستطيع الانكليز الدخول إلى فلسطين واجلاء الأتراك ، إنهم مازالوا يتذكرون نكستهم في جنق قلعة التي أصابتهم ، لقد تركت هذه النكسة أثراً كبيراً في نفوسهم وعلى معنوياتهم .

الفتيات الموسويات عاريات

أشارت ليديا بإصبعها للفتيات الموسويات شبه العاريات

والمنتشرات في أركان الصالون برفقة الضباط وكبار الشخصيات التركية ، بالانسحاب إلى غرفهن وقالت لسارة :

ـ الحق معكِ يا سارة ، فمن يستطيع أن يقاوم هذا الجمال ، جندياً كان أم ضابطاً ، إن كل واحدة منهن أجمل من الأخرى .

وبعد أن تأملتهم سارة واحدة واحدة ، قالت :

ـ أرى أن فتياتنا يتمتَّعن في أداء مهماتهنّ .

فضحك التير وقال :

إن فريق فتياتنا المؤلف من أجمل فتيات العالم ، سيكبر ويعلو شأنه، ولن تجدي لهنّ مثيلاً في أشهر ملاهي العالم !

فقالت سارة : معك حق إن سمحتم لي فأنا ذاهبة إلى غرفتي لاستريح .

ـ فرد التير : لاتقلقي ، فإننا سنكون مشغولون مع المدعوّين حتى الصباح ، اذهبي أنت وارتاحي .

ودخلت سارة إلى غرفتها ، وفكرها مليء بصور الأحداث التي جرت اليوم ، وتذكرت قائد الغواصة وتخيلت وجهه أمامها ، ثم تمددت على سريرها واستسلمت لنوم عميق .

سارة تعطي التعليمات

عند استيقاظها قرابة الظهيرة ، رأت سارة الخدم في الحديقة مشغولين بتنظيفها وترتيبها وازالة الأوساخ منها .

ونزلت إلى الصالون حيث وجدت ليديا والتير بانتظارها فقالت :

ـ استعدّا للرحيل بعد قليل ، إن كنت تريد ، أستطيع ايصالك حتى حيفا .

فقال التير : كما تشائين يا سارة .

فردت سارة : حسناً ، سأوصلك إذاً حتى حيفا ، استعدّ للرحيل .

نترك سارة منهمكة في اعداد الفخ للعثمانيين ، لنعود إلى حيث ننصت لما يقوله جمال باشا الصغير لجمال باشا الكبير .

ـ أنا لست ضد فكرة الهجوم، على العكس فأنا من أنصار أن يتم في أقرب وقت ممكن ، إنما أرى أن خططنا الحربية لم تكتمل بعد ولا مستلزماتنا ولا استعدادات جيشنا على الجبهة . باختصار لم نكمل استعدادات جيشنا بعد، فأنا على اتصال دائم بالالمان ، إنهم سيقومون بتسليمنا هذا اليوم قسماً من مستلزماتنا وحاجاتنا العسكرية ولكنها لم تصل إلينا بعد .

ـ جمال باشا : ما أبطأ الألمان في تنفيذ وعودهم .

ـ هؤلاء الالمان بالمختصر أناس جديّون وذوو شأن ونفوذ هذا كل ما يقال عنهم ، وتابع الباشا الصغير قائلاً :

ـ من ناحية أُخرى ، لدي ملاحظتين أود ذكرها لكم يا سعادة الباشا.

ـ تفضل إني منصت لك .

ـ لم نستطلع بعد جميع المعلومات الكافية عن قدرات جيوش الانكليز والفرنسيين فنحن نتابع تقدم وتقهقر هذه الجيوش على الجبهات . ونجهل حقيقة قوة عدونا العسكرية .

إن جهاز استخباراتنا ضعيف جداً ، وهذه حقيقة مُرّة يجب الاعتراف بها . فكثير من المعلومات التي تصلنا منهم متضاربة في مضمونها .

فنحن في حيرة لمعرفة أي الأنباء صحيح وأي الأنباء يجب أخذها بعين الاعتبار . فالمعلومات التي تصلنا عبر أقنية التجسس التي نملكها متشابكة ولا رابطة بينها .

فالمعلومات الواردة إلينا تقول بأن الانكليز سينسحبون من المنطقة ولكن علينا الحصول على معلومات سليمة وجديدة عن قوات عدونا .

ـ معك حق يا باشا ، بهذا الخصوص لدينا شخص يدعى التير ليفي أعتقد أنه سيكون ذو فائدة كبيرة لنا ، إنه أمريكي الأصل ، سأقوم بإرساله إلى الاسكندرية ، سأُفهمك بالتفصيل المهمة التي أوكلتها إليه . هذا الشخص التير أعلق عليه آمالاً كبيرة . فلن يمضي يومان أو ثلاث على رحيله إلى الاسكندرية إلا وسترى ما سيرسله لنا من معلومات ذات شأن وأهمية بالغتين .

ـ يا إلهي ، يا سعادة الباشا ، هذا رائع ، ولكن ، هذا المدعو التير كيف ومن أي طريق سيتوجه إلى الاسكندرية وإلى مصر .

وضحك جمال باشا الكبير قائلاً :

ـ لاتقلق يا باشا ، قد رتب التير كل أموره . إن جنسيته الأمريكية ستسمح له باختراق الحصار الانكليزي الفرنسي بكل سهولة ، وبالإضافة إلى ذلك، فإن له في مصر أصدقاء ومعارف كثر . لا أعتقد أنه سيثير الشبهات من حوله .

ـ في هذه الحال ، وبانتظار ورود الأنباء منه ، علينا التريث قليلاً ، وتأجيل موعد تحركنا .

ـ أتعتقد ذلك ؟

ـ نعم ، سنرى ما سيقوله لنا التير هذا ، بشأن الانكليز ، وما سيرسله من معلومات عنهم .

سنعلم منه صيغة قرار الجنرال اللنبي ، وسوف نعلم منه توجهات وأهداف القوات الانكليزية المتوقعة ، ومدى استعداداتها وحجمها .

كا سيطلعنا على نوايا القوات الانكليزية في هذه الآونة، إذ أننا وحتى يومنا هذا ، لم نشهد من قبل القوات الانكليزية سوى المواقف الدفاعية . ولاأعتقد أن قواتنا قادرة أن تجعلهم ينسحبون من أمامها وأنا مقتنع بهذا يا حضرة الباشا .

علينا أن لانرى الانكليز أكبر من حجمهم

فقال جمال باشا الكبير لمحدثه :

ـ كلا يا باشا ، كلا ، لو كانوا قادرين على مهاجمتنا ، لما تأخروا أبداً عن تنفيذ ذلك . غير أن قوة وشراسة الجيش التركي تصدهم وتمنعهم من التقدم ، ولو خطوة واحدة . لاتعط القوات الانكليزية حجماً أكبر مما نتصوره ، مما هم عليه . لماذا اندحروا إذاً في جنق قلعة هل كان ذلك تكتيكاً عسكرياً أيضاً ؟ بالعكس ، فهدف قوات الحلفاء الأول هو الاستيلاء على المنافذ والمعابر البحرية لكي يضيقوا الخناق حول عنقنا ، ويقضوا على الإمبراطورية العثمانية، ذلك هو مخططهم الرئيسي وهدفهم الأول والأخير . غير أنهم لم يوفقوا في ذلك .

ـ هذا صحيح يا سعادة الباشا ، لكنني أعتقد أن استراتيجيتهم وتكتيكهم في هذه المنطقة يختلف تماماً عما كان عليه هناك .

لقد لاحظنا عدم تحركهم باتجاه أرض فلسطين ، يجب أن نبحث عن سبب ذلك ، وعن طريقة تفكيرهم حول هذه المنطقة .

ـ يا باشا ، يا باشا ، لاتوجد أسباب ولا أي شيء آخر . كل ما في الأمر أن الانكليز يحرضون العرب على العصيان ودفعهم إلى مواجهتنا وبعد أن نتقاتل نحن والعرب ويفني واحدنا الآخر ، بعدها سيدخلون هذه الأراضي بمساعدة القوات الفرنسية ، ملوحين بأيديهم وكأنهم في نزهة .

فالكثير منا لا ينتبه لهذا الأمر ، خاصة أولئك المسؤولين عن حركة الخلاص العربية ، فهم لا يقدرون خطورة الموقف . إنهم يعتقدون أنهم بمجرد اجلائنا عن هذه الأراضي سيقيمون دولتهم العربية الكبرى تحت راية الشريف حسين في مكة بمؤازرة ومساعدة القوات الانكليزية والفرنسية ، وسيكون ذلك ثمن عصيانهم الذي سيقبضونه من الفرنسيين والانكليز . غير أن هؤلاء المساكين لا يعلمون أن الانكليز والفرنسيين يخدعونهم . هذه هي وجهة نظري .

ـ إنكم محقون في هذا يا سعادة الباشا . لذلك ، وبناءً على ما تقوله ، علينا تأجيل تنفيذ أحكام الاعدام بحق المعتقلين العرب في الشام . ماذا تأمرون في هذا الصدد يا سعادة الباشا ؟

ـ أتعتقد أنني لا أفكر في هذا . ولكن علينا أن لاننسى أن للامبراطورية العثمانية هيبة يجب فرضها واظهارها . سأعيد النظر في هذا الأمر عند عودتي إلى الشام . يمكنك الاطمئنان إلى أنني لن أتخذ قراراً فورياً بهذا الصدد . فأنا وأنتم ملزمون بالحفاظ على شرف وهيبة الامبراطورية العثمانية ، غير أننا في حالة حرب ، نخوض معركة بقاء ، نحن في حالة حرب ضارية مع أعدائنا . إن لم نعدم هؤلاء الخونة في ساحات البلاد ، فإن هيبة وشرف دولتنا ، سوف تداس ، ولن يبقى للدولة العثمانية أية سلطة ولا هيبة في البلاد .

ـ في هذه الحال ، أي القرارين نتخذ ؟ أننقذ شرف وهيبة الإمبراطورية العثمانية ؟ أم نعفو عن هؤلاء الخونة ؟ وتذهب بذلك سدى دماء شهدائنا الذي قُتلوا في الجبهات دفاعاً عن شرف وهيبة هذا الوطن ، ودافعوا عنه في ظروف قاسية وتحملوا الأمرّين من أجله ؟

ـ أنا لست بالحاكم المطلق ! فأنا لست ديكتاتوراً ولا سفاحاً . إننا نناضل لدحر هذه القوات الانكليزية التي نواجهها . إن الانكليز يدفعون باخوة لنا مسلمين ساقوهم من الهند إلى جبهات القتال ، يدفعونهم لمقاتلتنا . ألا نعدم إذاً الخونة الذين أهانوا الامبراطورية وحاربوها في الداخل ، حتى ولو كانوا مسلمين ؟

إننا نعدم الجنود الفارين رمياً بالرصاص يا باشا . ألا تعتقد إذاً أن علينا معاقبة أولئك الذين خانوا هذه البلاد وسببوا لها الأذى والدمار ، أجبني بحق السماء يا باشا ؟

كانوا يلقبون الباشا بالظالم

كان جمال باشا المرسيني من بين الضباط المعروفين باستقامتهم وشرفهم. ولم يكن في الوقت نفسه من مؤيدي اللجوء للعنف ، غير أنه لا يمكنه السكوت على اهانة مثل هذه ، خصوصاً وأنه أحد باشاوات الدولة وعليه أن يحرص على المحافظة عليها ، وفي تلك الآونة ، كانت ألقاب «الظالم» و «السفاح» تتردد هنا وهناك بحق جمال باشا الكبير ، وكان لابد لجمال باشا المرسيني من أن يلفت نظر الباشا الكبير إلى هذا الأمر .

فأراد استغلال فرصة الحديث معه ، لإعلامه بهذا الموضوع .

ومن ناحية أخرى كان جمال باشا المرسيني مؤيداً لجمال باشا في تصرفاته ومبرراً له كل الإجراءات التي كان يتخذها ، والتي أدت إلى شيوع تلك الألقاب بحقه .

جمال باشا المرسيني على علم بنشاط سارة

هناك أمر هام آخر . ففي الأيام الأخيرة المنصرمة ، لم يبد جمال باشا المرسيني ارتياحه لوجود الموسويين في فلسطين .

وبصفته قائد هذه المنطقة فإنه يريد أن يسيطر على أمن هذه المنطقة وجعلها في قبضته . لذلك كان يفكر في ارسال الموسويين المشتبه بهم من مدينة القدس إلى الشام للتخلص منهم . غير أنه لم يكن يجد الجرأة الكافية ليبحث هذا الأمر مع جمال باشا . خاصة وأن الباشا الكبير متعاطف مع هؤلاء الموسويين، وهذا واضح بعلاقته مع سارة صديقته وحبيبته الأثيرة لديه.

ولكي تبقى مصلحة الدولة عالية كان لابد لجمال باشا المرسيني من أن يفاتح الباشا بهذا الموضوع ويتناقش معه بهدف إيجاد طريقة للتخلص من هؤلاء الموسويين المشتبه بهم .

فقال لجمال باشا : سيدي الباشا ، إن في القدس وأطرافها ، حوانيت

خمر ، ودور دعارة وأماكن موبوءة لممارسة الأعمال اللاأخلاقية ، يديرها الموسويون ويتردد إليها ضباطنا والضباط الالمان والنمساويون كل ليلة ، ولقد تحققنا من صحة الأمر . ففي كل حانة من هذه الحوانيت المخصصة لشرب الخمور وممارسة الدعارة تعمل فتيات موسويات يقضي ضباطنا معظم لياليهم معهنّ .

فكل موسوية لها ضابط تصاحبه وتكون له خليلة، هؤلاء الموسويات القادمات من أطراف العالم ، كلهن ، وأرجو المعذرة، فاحشات وساقطات، ولانعرف من هم وراءهن، فهن ينصتن إلى أحاديث ضباطنا ويستقون منهم المعلومات ويرسلونها إلى أعدائنا ، علينا معرفة ما يرسلونه إلى أعدائنا.

من ناحية أخرى ، ولعشرات المرات ، الفتيات الموسويات فرضن سيطرتهن على ضباطنا مؤخراً . ولا ندري من منهنّ البريئة ومن منهن الجاسوسة ، وصعب جداً التحقق من ذلك ، لذلك ، أرى أن أفضل وسيلة للتخلص منهنّ إجلاؤهنّ عن المدينة .

رفع الباشا الكبير نظره رويداً رويداً ثم قال لجمال باشا المرسيني .

ـ يا باشا ، إنك محق في كلامك ، ورأيك سديد ، ولكن لا أعتقد أن الضمير الانساني يرضى بأن نجمع هؤلاء الموسويات ونرسلهن إلى الشام ونشردهن من بيوتهنّ. ففي الأصل شردت هؤلاء الفتيات من بلادهنّ وتعرضن لشتى ألوان الاضطهاد والعذاب ، حتى وصلن إلينا وسكنَّ في أراضينا . فهل نأتي نحن اليوم ، وبغير سبب ، لنطردهن خارج بيوتهن ونشردهن من جديد . أين هي عدالتنا إذاً ؟

إنما لا بأس أنا أوافقك الرأي ، أن تُبعد إلى الشام من تشك في أمرها من الفتيات الفاحشات اللواتي يشكلن خطراً على أمن دولتنا ، وأعارض فكرتك في ارسالهنّ كلهنّ إلى الشام ، فهذا أمر لا يمكن حدوثه .

ـ في هذه الحالة ، أرجو أن تسمحوا لي بتفتيش وتدقيق هذه البيوت

وهذه الحوانيت ، وسوف أتأكد من هوية كل الفتيات العاملات فيها فآمر المشتبه بها بمغادرة المدينة .

ـ هذا ممكن ، ولكن يا باشا ، حذار أن ترتكب أخطاءً وترسل الأبرياء إلى الشام .

ـ كونوا مطمئني البال يا سعادة الباشا. فإنني لن أتهم أحداً ما لم أتأكد وبالبرهان القاطع أنه مذنب .

ـ حسناً ، فليكن كذلك .

ونظر الباشا الكبير إلى ساعته وتابع قائلاً : «لقد مضى الوقت بسرعة» ثم نهض ومشى في غرفته بضع خطوات، ثم قال : أنا ذاهب يا باشا.

لقد كان ينوي الذهاب لعند سارة التي كانت بانتظاره ، فقد مرّ يومان لم يرها فيهما .

لقاء سارة

استقبلت سارة جمال باشا ، في منزل ليديا بشوق وحرارة ، والجدير بالذكر أن جمال باشا كان ينسى كل همومه عندما يلتقي بسارة ويجالسها وهذا ما جعله مؤخراً ، يتخذ قرارات غير صائبة وأحكاماً خاطئة غير مسؤولة .

سأل جمال سارة قائلاً :

ـ كيف كانت الأمور في قريتكِ ؟ هل ما زالت في مكانها ؟

ـ ما زالت في مكانها طبعاً بفضل رعايتكم .

ـ هل أنتِ مرتاحة للإدارة الموجودة في قريتك ؟

ـ نعم جداً ، إلى حد أن كل القرويين الموسويين يدعون لكم ليلاً نهاراً .

ـ ألا توجد أزمة مؤونة ومجاعة في قريتك ؟

ـ كلا يا باشا ، فالأرض في قريتي خصبة ، ثم إنكم لا تأخذون المحصول من أيدينا ، لذلك فالمحصول يكفيهم ويغطي حاجتهم .

ـ حسناً ، لقد طمأنتني لأن باقي المناطق تشكو الجوع وقلة المؤنة والغذاء ، وأنا أفكر ليل نهار لأخلصهم من تلك المآسي .

ـ سيدي الباشا ، هناك فقط بعض الأقاويل التي يرددها سكان قريتي وأطرافها ، لابد أن أقولها لأرتاح .

ـ ما هي هذه الأقاويل ؟ أخبريني بها يا سارة .

ـ أولى هذه الأقاويل ، هي أنكم ستعودون إلى استنبول وسوف يعين مكانكم باشاً آخر اسمه مصطفى كال ، هذا ما يردده الناس في كل مكان .

أما النبأ الثاني فهو أن الانكليز والفرنسيين يَنوون قريباً شن هجوم على طريق اسكندرون ـ أضنا ، ليقطعوا طريق الإمدادات بينكم وبين الأناضول ، فتنقطع عنكم المساعدات التي ترسلها لكم حكومة استنبول ، ويقولون أيضاً انكم بذلك ستجبرون على تسليم أنفسكم وقواتكم للانكليز والفرنسيين .

عند سماعي هذه الأقاويل ، لم أستطع في الحقيقة البقاء في القرية ، وقررت القدوم فوراً إلى القدس لأخبركم .

وتغيرت ملامح جمال باشا وارتسمت على فمه بسمة سقيمة لدى سماعه ذلك.

يا له من بائس جمال باشا هذا ، فهو مخلص ومحب لوطنه ، بريء في حبه لسارة، قد يرتكب أحياناً أخطاءً عن عمد أو عن غير عمد غير أنه لم يكن يرى ما حوله بوضوح ودقة . وثقته العمياء بأصدقائه تجعله يقع في مطبَّات وأخطاء لم يكن يقصدها لو أنه دقق النظر فيها .

لاعلينا ، فعند سماعه كلمات سارة هذه ، تغيرت ملامحه واشتد غضبه وقال : من ؟ مصطفى كال باشا ؟ أهو الذي سيكون مكاني ؟ لا ، لا يمكن أن يحدث هذا ...

ونظر في عيني سارة ثم ابتسم وقال : ربما يحدث هذا ، فلا شيء

مستحيل في هذه الدنيا، فنحن أعضاء حزب الاتحاد والترقي، إذا حاربنا بعضنا البعض، وقضى بعضنا على بعض، يمكن عندها أن يحدث أي شيء.

فأنور باشا، الذي رمى بالرصاص صديقنا يعقوب جميل، أحد أبرز أعضاء حزب الاقتدار، وأحد مؤسسيه، لن يصعب عليه أن يجرني أنا أيضاً من هنا. ولكن قبل أن يفعل هذا، عليه أن يرميني أنا أيضاً بالرصاص. لن يستطيع أنور باشا ازاحتي من هنا إلا جثة هامدة!

فلنسلم بأن بين الأقاويل التي ذكرتها، شيء من الصحة، مصطفى كمال سيأتي فعلاً إلى هنا، بناءً على أوامري ليعمل بجانبي. إنهم أوكلوا إليه قيادة «المدينة» وليس مكاني، إنما ما يثير العجب، في الحقيقة هو سرعة انتشار هذا النبأ، فمنذ بضع ساعات فقط أعلمت أنور باشا بموافقتي على ارسال وتعيين مصطفى كمال هنا بأمرتي.

إذاً، فالحكومة في استنبول ابلغت هذا القرار إلى أعدائنا قبل صدوره، فوصول هذا النبأ إلى القرى وتناقله بين الناس دليل على أنه قد سُرب منذ وقت طويل من وزارة الحربية في استنبول.

ـ قد يكون النبأ صحيحاً أو خطأ لايهم الأمر، هل مصطفى كمال قائد كبير يا سعادة الباشا؟

ـ أجل إنه عسكري ممتاز يا سارة!

ـ سعادة الباشا، انكم تحكمون من جبال طوروس وحتى سهول اليمن، وتحملون مسولية كل هذه المناطق على عاتقكم. فالحمد لله والشكر له، انكم تحسنون إدارتها. هل تعتقدون أن مصطفى كمال يستطيع تحمل مسؤولية كبيرة وعبء ثقيل كهذا الذي تتحملونه؟ وهل يستطيع أن يخرج من تحت هذا العبء؟

ـ لا يا سارة، لا، لن يستطيع إنه يجهل مثل هذه الأمور، إنه مجرد عسكري، إنه ضابط وقائد ناجح هذا كل ما في الأمر...

من تظنين مصطفى كال ؟ شتان ما بينه وبين قائد الجيش الرابع ! ثم إن أنور باشا لا يحب هذا الانسان ، إني أعلم ذلك تماماً ، فلا أحد يدعمه في الحزب . ربما يريد أنور باشا ، بإرساله لمصطفى كال إلى هنا ، أن يضعه في مواجهتي ، لكنني لا أعتقد أنه يفعل هذا .

كل ما في الأمر ، أن مصطفى كال سوف يأتي إلى هنا قبل توجهه إلى المدينة . إنني أحبه ، وهو يحبني ويحترمني ، ولا أعتقد أنه يعصي لي أمراً ، فهو صديق مخلص ووفي ...

ـ أرجو من الله أن لا تكونوا مخطئين في تقديراتكم يا باشا .

إذا رحلتم من هنا ، فلن أبقى وحدي سألحق بكم إلى استنبول، ما رأيكم؟

ضحك جمال باشا وقال لسارة : طبعاً ، يمكن ذلك، لن أتركَكِ وحدك هنا .

ـ أشكركم يا سعادة الباشا . حسناً ، كيف تحللون نبأ نية الانكليز والفرنسيين شن هجوم على خطوط الإمداد بين اسكندرون وأضنة ؟

ـ هذا الأمر يمكن حدوثه ، خصوصاً في هذا الوقت بالذات ، فهو أمر معقول . إن التفكير في قطع طريق الإمدادات القادمة من استنبول إلى الأناضول لدعم أراضٍ تمتد من جبال طوروس إلى سهول اليمن ، تفكير عسكري منطقي ومقبول .

ولكن ، في حال حدوث مثل هذا الهجوم وتعرض خطوط إمداداتنا للتخريب ، بإمكاننا أن نكتفي ذاتياً بما لدينا من مؤن وذخيرة وتأمين احتياجاتنا عن طريق المنطقة المتواجدة بها قواتنا ، قد يسبب لنا ذلك بعض الضيق ، ولكنه لن يجبرنا على الاستسلام ، ولن يكون سبباً لهزيمتنا .

وفي مثل هذه الحالة ، يمكنني طلب مساعدة السفن الحربية الالمانية بالضغط على القوات البحرية الانكليزية والفرنسية التي تحاصر سواحلنا ،

وفك حصارها عنّا . أي أنه في حال حدوث مثل هذا الموقف ، فهذا معناه أن حرباً كبيرة سوف تقوم على امتداد سواحلنا .

فستكون القوات الالمانية البحرية في جانبنا . على كل حال ، لدينا خططٌ حربية حول هذا الموقف في حال حدوثه . إني لا أرى ما يقلقني في هذا الموضوع ، ولا أرى أهمية كبيرة له يا سارة ، غير أن احتمال شن هجوم على خطوط إمداداتنا أمر وارد وقوعه . إن مثل هذا الهجوم إنما يدل على ضعف إمكانيات أعدائنا القتالية ، فلجوؤهم إلى معارك جانبية محدودة ، دليل افلاسهم العسكري .

فالعدو الذي تلقى ضربات وانهزم أمام جبهات غزة وفلسطين سيحاول البحث عن ساحات أخرى لشن معاركه فيها ، فإذا كان هذا الخبر صحيحاً ، فهو لمصلحتنا ، علماً بأن تحركنا سيتم على ضوء المعطيات التي يقدمها ضباط القيادة بعد دراسة كافة المعلومات .

لقد تمكنت سارة ، بحديثها مع جمال باشا ، أن تنقل إليه ما طلبه منها الجنرال اللنبي وأن تفهم ما يدور في خلده . ونجحت في إشغال بال جمال باشا ، وسرت لهذا الوضع ، فعانقت جمال باشا وقالت :

- كم سيطول بقاؤنا هنا يا سعادة الباشا ؟

- لن يطول الأمر كثيراً ، مجرد عدة أيام ، فلدي أمور هامة علي إنجازها هنا ، ومن بعدها ، نتوجه إلى الشام .

جمال باشا في مقر قيادة مدينة القدس

توجه جمال باشا في منتصف الليل إلى مقر القيادة في القدس . واستدعى في الصباح الباكر ، جمال باشا المرسيني إليه ، فقد كان يعتمد عليه كثيراً ويثق به ثقة عمياء .

كان الضباط العاملون مع جمال باشا ينتمون إلى ثلاثة تجمعات في

حزب الاتحاد والترقي . بعضهم كان من رجال جمال باشا ، وبعضهم الآخر من رجال أنور باشا والباقون من رجال طلعت باشا .

حتى داخل مقر قيادته ، كان جمال باشا تحت مراقبة مجموعة الباشاوات الآخرين لذلك لم يكن من السهل الاعتماد على أحد منهم ، وقف الباشا الكبير عند دخول جمال باشا المرسيني إليه وقال : تفضل يا باشا.

صافحه، ثم جلس على أريكة مقابلة له وقال : أوامركم يا سعادة الباشا!

ـ استغفر الله يا باشا ، هل أعلمت أنور باشا بموافقتي على تعيين مصطفى كمال قائداً للقوات في المدينة؟

ـ نعم أعلمته يا سعادة الباشا .

ـ ليتك لم تستعجل الأمر .

ـ أنتم من أمرني بذلك يا سعادة الباشا .

خيراً إن شاء الله ، هل حدث تغيير ما ؟

ـ كلا كلا، لقد اقترح أنور باشا تعيين مصطفى كمال باشا قائداً للقوات في المدينة بدلاً عن عصمت ميرلاي لعدم كفاءة وخبرة هذا الأخير .

ـ وماذا يرمي من وراء ذلك يا سعادة الباشا ؟

ـ القصد واضح، إن ارسال بطل أحرز انتصارات باهرة في حرب (جنق قلعة) مثل مصطفى كمال إلى هنا ، معناه التمهيد لاستلامه مكاني . أثارت كلمات الباشا هذه جمال باشا المرسيني ، فقال :

ـ لاأعتقد ذلك يا باشا ، إنكم تعلمون جيداً أن أنور باشا لايحب مصطفى كمال ، بل يكرهه ، لذلك لن يعطيه منصباً حساساً ومهماً مثل منصبكم يا سعادة الباشا . ثم لكي يتم تعيين مصطفى كمال قائداً للجيش الرابع لابد وأن أذكركم بأن هناك العديد من القادة المؤهلين الجديرين بهذا المنصب . أحق منه به ، هذا الأمر لا يمكن أن يحدث .

ـ بل يمكن أن يحدث ، يمكن ، فأنا أعرف أنور باشا جيداً . ربما قصد أنور باشا بتعينه مصطفى كال باشا هنا ، التخلص منّا ، نحن الاثنين ، أنا وهو معاً . رغم يقينه بأن مصطفى كال ليس أهلاً لاستلام منصبي هذا .

ألا يعلم سعادة أنور باشا ، الوضع العسكري القائم هنا ، فنحن على أكمل وجه من الاستعداد العسكري ، كا أن مؤننا وأرزاقنا كافية لجيشنا القائم هنا ، من يقوى على تحقيق هذا ، وسط الأوضاع التي تمر بها البلاد ؟.

نحن لم ندع العدو ، والشكر لله ، يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام منذ شهور عديدة ، كا استطعنا حل مشاكلنا الداخلية في المنطقة .

ـ أجل يا سعادة الباشا ، أنا واثق من حسن تصرفكم راجياً أن لا تعطوا لتلك الأمور أهمية تذكر ، فجيشنا هنا بحمدالله بوضع جيد .

سأترك مقعدي لك فقط

ـ لا دخان بلا نار يا باشا ، يجب إفهام أنور باشا أنه في حال إرغامي على ترك هذا المكان يوماً ما ، فإني أتخلى عن هذا المقعد لشخص واحد فقط هو أنت يا باشا ، إن كان هناك أحد جدير بأن يحل مكاني فهو أنت .

لم يدر الباشا الصغير ما يفعل من شدة خجله ، عند سماع هذه الكلمات فقال :

ـ يا سعادة الباشا ، إني أرغب أن أكون دوماً تحت أمركم والاستفادة من خبرتكم . فليمد الله بعمركم وحكمكم ، فلم يخطر ببالي أن أكون بمرتبتكم أو أجرؤ على التفكير في شغل منصبكم يا سعادة الباشا .

لقد نذرت نفسي للعمل للوطن والشعب ، طالما أنا بإمرتكم .

ـ أشكرك يا باشا ، حسناً ، دعنا نرى ما تخبئه لنا الأيام .

ـ نعم يا سيدي ، فلننتظر ، فالزمن كفيل بحل كل المشكلات .

ـ يا باشا ، إن جهاز استخباراتنا لا يعمل بشكل صحيح .

فالانكليز والفرنسيون يخططون لشن هجوم على خطوط إمداداتنا بين اسكندرون وأضنة ولا علم لنا بذلك . ماذا تظن ستكون حالة الجيش على ضوء هذا الحدث .

هذه الاخبار من صنع الاستخبارات الانكليزية

فقال جمال باشا المرسيني :

لقد أُطلقت هذه الاشاعات منذ زمن بعيد في أوساط المدينة وهي تظهر إلى الساحة بين فترة وأخرى غير أننا لم نتأكد من حقيقتها. وإن سألتموني، فإنني أرى أن الانكليز والفرنسيين لن يقوموا بمثل هذا الهجوم مطلقاً . كل ما في الأمر، يريدون نشر الذعر والبلبلة بين صفوف جنودنا ، ويجعلونهم يترقبون ما لن يحدث . فهذه القوات لا تستطيع الدخول من جهة أضنة ـ اسكندرون لأنها مغامرة عديمة الفائدة حيث ستقع قواتهم بين نارين ولايستطيعون التقدم أو التقهقر قيد شعرة ، كما أن قواتهم هناك بحاجة إلى دعم وطالما أن هذا الدعم لايمكن أن يصلهم الآن فلا يمكن أن يقوموا بمثل هذا الهجوم علينا هناك .

والانكليز يقصدون من وراء نشر مثل هذه الأنباء الكاذبة ، لفت انتباهنا إلى جبهة مزيفة . وأعتقد أن هذا النبأ قد دسّ مِن قبل أجهزة الاستخبارات الانكليزية .

ـ قد يكون الأمر كذلك، يا باشا، أنا أيضاً أشاركك الرأي ومع ذلك أعط التعليمات لهيئة الأركان الحربية ، بضرورة ابقاء قسم من جيوشنا المتوجهة إلى جبهة بغداد ، للتحرك نحو أضنة، كما أرجو إعلام سليمان باشا ، قائد جبهة بغداد بهذه التعليمات واطلب منه أن يقوم ببعض التحركات والمناورات للفت انتباه الانكليز .

أما القوات التي تحت إمرتنا ، فلتبدأ هجومها على القوات الانكليزية.

سننتظر حتى نرى ما سيحدث في حرب غزة ، وبعدها سنتخذ التدابير اللازمة .

ـ كما تأمرون يا سعادة الباشا . سوف أقوم بإعطاء الأوامر والتعليمات اللازمة فوراً .

غادر جمال باشا المرسيني مكتب الباشا الكبير الذي بقي وحده يتابع أوضاع مؤسساته المختلفة .

سارة تلتقي مجدداً بالأمير فيصل

بينما كان جمال باشا منهمكاً في ايجاد حلول لمشاكل جيشه ، قامت سارة بزيارة الأمير فيصل في الفندق الذي يقيم فيه ثانيةً، وسر الأمير فيصل بقدوم سارة غير المنتظر ، فقد كانت دائماً تسلك هذا المنهج مع الأمير، وتزوره دون سابق انذار .

ـ أهلاً وسهلاً بك يا سارة .

ـ أهلاً بكم يا سعادة الأمير .

ـ ما أخبار قريتك ؟

ضحكت سارة ثم قالت :

ـ لقد قمت بتزويج إحدى صديقاتي ثم ذهبت لزيارة الجنرال اللنبي ، إنه يرسل لكم تحياته .

ـ هل أنتِ جادة فيما تقولين ؟ قال الأمير فيصل . وقد أثار هذا الكلام دهشته .

ـ أخبريني ، كيف استطعت الذهاب إليه ؟

ـ بكل سهولة فائقة يا سعادة الأمير ، إن كنتم ترغبون ، أستطيع رسالكم إليه .

ـ أشكركِ أشكركِ ، وتأمل الأمير فيصل سارة برهة ثم قال في نفسه:

« يالها من شيطانة هذه الفتاة » .

ـ وكيف هي أمور الجنرال اللنبي ؟

ـ ممتازة ، يا سعادة الأمير .

إن والدكم على اتفاق تام مع الانكليز . حتى أن هناك وفداً انكليزياً توجه إلى المدينة قابل أخاكم . ولقد تم تأمين الأموال والأرزاق لكم، كما تم الاتفاق مع والدكم على وضع فرقة من المقاتلين المسلمين تحت إمرتكم .

ففي حين أنكم ستقاتلون الأتراك في الداخل ، سيقوم الانكليز بإخراج هؤلاء الأتراك من البلاد وذلك بشن هجوم عليهم من جهة السواحل ، وعند انتهاء الحرب ، وافق الانكليز على إعطائكم الأراضي التي طلبتموها دون تأخير ولا معارضة .

سبق للانكليز أن واجهوا الأتراك في جناق قلعة

يا آنستي ، بناءً على ما قلته لي الآن ، يبدو أن الانكليز قد غيروا سياستهم تجاهنا ... أقصد أننا بعد أن نُقتل سيأتي الانكليز ، ويمرون فوق أجسادنا لإعلان الدولة العربية الكبرى .

ـ لاسمح الله يا سعادة الأمير ـ قالت سارة . انكم تعلمون كم هم بليدون وباردون هؤلاء الانكليز .

ـ إنهم كذلك لكن عليهم أن يسرعوا ويتحركوا فوراً . وأريد هنا أن أُذكّركِ أن المقاتلين الأتراك أشداء ، ففي الجبهات يتحول الواحد منهم من مقاتل إلى أسد كاسر ، فالجندي التركي يحمل في نفسه ايماناً عميقاً بعقيدته ، التي مفادها « إمّا أن أموت شهيداً أو أن أبقى حياً وأصبح بطلاً . » هذا ما يؤمن به الجنود المسلمون الذين يقاتلون أعداءهم ، ومن أجل هذا المعتقد يحاربون .

والانكليز ، هم أكثر الناس دراية وعلماً بقوة وشراسة المقاتلين الأتراك،

حيث سبق لهم أن واجههوهم في جناق قلعة .

ـ أجل يا سعادة الأمير ، إني مقتنعة تماماً بما تقولونه ، وأؤيد رأيكم ، لكن إسمحوا لي بأن أعلمكم أننا نحن الموسويين لا نناضل من أجل مصلحة الانكليز ، بل من أجل حفنة التراب هذه ، ومن أجل اقامة دولة لنا ووطن لنا نحارب كبشر ونتحمل كل تلك التضحيات . وإلا لما أولينا تحرك الانكليز باتجاه الأراضي التركية أية أهمية .

ـ آنسة سارة ، إني أقدر موقفكم ومتفهِّم لقضيتكم ، وواثق من أنكِ تعملين وتجاهدين من أجل مساعدة اخوانك الموسويين أينما كانوا: فنحن وأنتم نعتبر جبهة واحدة . لذلك علينا أن نتوحد ونناضل معاً لا لمصلحة الانكليز ، بل لمصلحة الطرفين ، العرب والموسويين . علينا أن نجري لقاءات ومشاورات ونتفق مع رؤسائكم حول هذا الأمر ، علينا إبرام اتفاق بينكم وبيننا يضمن لكم إقامة دولة موسوية على الأراضي العربية بعد جلاء القوات التركية منها ، فاعترافنا بوجودكم أهم بكثير من اعتراف الانكليز بحقكم في التواجد في هذه المنطقة[1] .

ـ معكم حق يا سعادة الأمير ، سوف أعمل على ترتيب لقاء بينكم وبين والدكم والقائمين على التنظيم الموسوي في فلسطين. لكن عليكم أن لاتنسوا أن احراز النصر في هذه الحرب منوط بالانكليز . فإذا تمسك الانكليز بهذه الأراضي ورفضوا الجلاء عنها ، فلن يكون لنا ولكم أية حقوق عليها .

ـ ولا تنسي أيضاً ، انه إن لم نقف بجانب القوات الانكليزية فالنصر لن يكون حليفها .

ـ في تلك الحالة ، لابد من إبرام اتفاق ثلاثي بيننا .

---

(١) لاندري ، هل كان ذلك موقف فيصل بن الحسين ، شريف مكة ، علماً أن هذه الأقوال ، إن صحّت ، هي قبل صدور وعد بلفور ، عام ١٩١٧ ، بسنتين .

ـ طبعاً ، يمكننا أن نوقع على اتفاق مع الانكليز تكونون طرفاً ثالثاً فيه ، فبفضل جهاز استخباراتكم وبفضل إعلاننا العصيان في الداخل ، ستتمكن جيوش اللنبي من إجلاء الأتراك خارج البلاد ، في وقت قصير جداً .

عند سماعها هذه الكلمات ، كادت سارة تطير فرحاً .

ـ اهنئك يا سعادة الأمير ، لقد فكرتم بإمعان وأصبتم .

سأدبّر وأرتب للقاء الأطراف الثلاثة لتوقيع اتفاق بيننا . وسوف يتم توقيع هذا الاتفاق فوق أراضيكم في المدينة .

ولكن ، متى سترحلون يا سعادة الأمير ؟

ـ في أقرب فرصة سأرحل، يا سارة، وبرفقتي الاصلاحيون من سوريا ولبنان ، لقد أجريت اتصالات ورتبت أموري معهم .

ولكني سوف أبقى مدة قصيرة إضافية لانقاذ الموقوفين ثم أغادر فوراً .

ـ لنر ما سيقرره جمال باشا .

ـ لقد أعلمت أنور باشا بالموضوع ، كما أن والدي قد بعث إليه برسالة مطولة حوله ، كما علمنا بقدوم أنور باشا القريب إلينا هنا .

ـ سعادة الأمير ، ما رأيكم بأن تصطحبوا جمال باشا وأنور باشا عند قدومه إلى الحجاز بقصد اجراء تفتيش على القوات العسكرية ، وهناك تضعونهما في الأسر ؟ عندها ، ستنتهي الحرب في غضون يومين لا أكثر .

عند سماعه لسارة ، اندهش الأمير بن الشريف حسين ، الذي أعلن منذ قليل موافقته على توقيع الاتفاق الثلاثي، الانكليزي الموسوي العربي، وقال :

ـ آنسة سارة ، إن الضيف الذي نستقبله أو ندعوه إلى بيتنا ، هو بحمايتنا، فنحن لا نسمح لأحد بمس طرف شعرة من رأسه . وأنور باشا وجمال باشا بمثابة ضيوفنا عند زيارتهما للمدينة، وحسب تقاليدنا فالضيف مصون عندنا وعلينا تقع مسؤولية حمايته وإكرامه . إننا نرفض القيام بما ذكرته ،

لأننا نسامح من يطأ عتبة بيتنا ويطلب منا السماح ولو أجرم بحقنا .

فمهما تكن خطط الانكليز ، نحن موافقون معهم ، ولكننا نرفض تنفيذها على أراضينا . فلو حدث شيء من هذا القبيل فإننا سوف نقف في مواجهة الانكليز وليس في صفهم ؟

سارة حائرة في أمرها

تحيرت سارة في أمرها عند سماعها للأمير ، غير أنها راحت في نفسها تتساءل ، هل يعلم الأمير فيصل بما أمر به الجنرال اللنبي ؟

ولكن كيف له أن يعلم ؟ فهي لم تنطق ببنت شفة لأي إنسان حول هذه التعليمات وهذه الأوامر ، وأخيراً توصلت سارة إلى أن ما يقوله الأمير مجرد تصورات واحتمالات من جانبه ليس إلاّ .

فقالت : سعادة الأمير ، نحن في حالة حرب ، ونواجه معركة بقاء أو موت إننا مجبرون على أن نسلك كل السبل من أجل الشعب والوطن ، وما ذكرته لكم ليس سوى فكرة وأنتم أحرار ولكم الخيار في قبولها أو رفضها .

ـ لاداعي لكل هذا يا آنسة يجب أن تبلغي الانكليز أن عليهم ، في أي حال من الأحوال ، وفي معالجتهم لموضوع أنور باشا ، أن يبقوا بعيدين عن أراضينا .

ـ كما تشاؤون وكما تأمرون يا سعادة الأمير .

المتعاونون ينقلون الاخبار

عند عودتها إلى منزل ليديا ، كان أول ما يجب على سارة أن تقوم به هو نقل أحداث ومجريات لقائها مع الأمير فيصل إلى الجنرال اللنبي ، بشأن التخطيط لمؤامرة اغتيال أنور باشا .

كانت سارة توصل المعلومات والأخبار بكل سهولة ويسر، بفضل

المتعاونين معها من أفراد شبكتها ، بالإضافة إلى العملاء الذين يقومون بايصال تلك المعلومات إلى الغواصة الانكليزية التي تبثها بدورها إلى قيادة الجنرال اللنبي .

كان الوسطاء يعتمدون الحمام الزاجل وأحياناً يتركون الرسائل في زجاجات على الشاطىء وكانت سارة تجيب على أسئلة وتعليمات القيادة الانكليزية بالأسلوب نفسه وبالسرعة القصوى .

لقد توصلت سارة ، بعد محادثاتها مع الأمير فيصل ، إلى أن هذا الأخير مقتنع تماماً بقيام العصيان وبتنفيذه ، غير أنه لا بد من بث الخوف في قلب الأمير على الدوام لحثه على القيام بتنفيذ العصيان .

فأرسلت سارة ، رسالة مطولة إلى أحد المسؤولين والقياديين في شبكة التجسس التي تعمل في القاهرة ، السيد وايزمان ، وطلبت منه الشروع بإجراء اتصالات مع الشريف حسين في مكة ، ومحاولة وضع أسس تفاهم معه. كما طلبت أن يسعى لتحقيق تفاهم مع العرب حول الاعتراف المتبادل بينهم وبين الموسويين بالحق الشرعي لإقامة دولة موسوية على الأراضي العربية بعد أن ينتصروا على العثمانيين ويقيموا دولتهم الكبرى .

التير ، رجل كفؤ ذكي

أمضت سارة ، في منزل ليديا ، أسبوعاً حافلاً سعيداً برفقة جمال باشا . وصلت بعده من التير في القاهرة رسالة ، أفقدت جمال باشا صوابه ، من شدة فرحه لما احتوت في مضمونها .

كان التير قد أرسل للباشا معلومات هامة حول تحرك القوات الانكليزية في غزة، كما أرسل للباشا شرحاً لنقاط ضعف الجيش الانكليزي على الجبهة ، بشكل واضح وصريح . كما أعلمه بنية الانكليز والفرنسيين بمهاجمة خط الامداد بين مرسين وأضنة واسكندرون .

من ناحية أخرى ، ذكر التير أيضاً للباشا أن العرب ينوون تنفيذ عملية اغتيال لأنور باشا في سوريا أو لبنان أثناء زيارته المرتقبة إليهما . وأرسل أيضاً قصاصات من المقالات التي تُنشر في الصحف المصرية وكلها تؤكد على أعمال الباشا العظيمة وحسن تصرفه وأن الجيش والشعب يؤيده وراضٍ كل الرضى عن قيادته .

وفي إحدى الأمسيات قال جمال باشا لسارة التي كانت برفقته . في الحقيقة إن رجلكم التير هذا ، ذكي وكفؤ . لقد تمكن ، وفي فترة وجيزة ، أن يرسل لنا أخباراً مهمة ودقيقة ، كما طلبنا منه .

- إني مسرورة جداً لرضاكم عن التير وهذا من دواعي فخري واعتزازي.

- أرجوك يا سارة أن تخبري زوجته ، أنني تحت تصرفها ورهن اشارتها لأي طلب تحتاجه ، فنحن لقاء خدمات زوجها مستعدون لفتح أبوابنا لها .

- شكراً لكم يا سعادة الباشا ، إن ليديا لا ترغب سوى في ارضائكم وتنفيذ مطاليبكم وأوامركم .

عقد جمال باشا اجتماعه الأخير في مقر قيادته مع كافة ضباط وقواد الجبهات القتالية ، وتم وضع الخطط العريضة والأساسية لتحرك القوات التركية على ضوء المعطيات والمعلومات التي أرسلها التير في القاهرة لهم .

فقد كانت الأنباء التي أرسلها التير والتقارير القادمة إلى القادة ، حول غزة متطابقة ، حتى أن التير كان قد عين لهم على خريطة عسكرية ، كافة النقاط الاستراتيجية للجيوش الانكليزية في غزة الغربية ، ولقد دهش القواد لهذه المعلومات التي بين أيديهم .

هل هذه المعلومات صحيحة ؟

لكن علي فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني أبديا بعض الشكوك في صحة هذه المعلومات ،وأرادا تحذير الباشا من مخاوف كون هذه المعلومات فخاً

لهم ، إنما لم يكن بين أيديهما ، أي دليل يثبت عكس ذلك . فالخرائط التي بحوزتهم صحيحة ومطابقة للتقارير التي وصلت لهيئة الأركان ، كما أنها توضح بشكل دقيق النقاط الاستراتيجية العسكرية للقوات الانكليزية .

ولكن ، رغم هذا كله ، لم تتبدد شكوك علي فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني حول صحة هذه المعلومات .

كما تم أثناء انعقاد الاجتماع هذا ، تحديد موعد وموقع وتاريخ بدء التحرك العسكري التركي ، وأُجري التنسيق مع الالمان والنمساويين حول هذا القرار .

كانت المسؤوليات الكبيرة تقع على عاتق فوزي باشا (تشاقماق) و الباي أونونو فيما يتعلق بتنفيذ هذه الحملة ، فبناءً على ما تم إقراره ، كان على فوزي باشا التحرك بقواته باتجاه غزة الغربية ، بينما كان على عصمت مرلاي ، الاشتباك مع الانكليز ، وإشغالهم بفرقته الخامسة والأربعين التي كانت بإمرته. أما القوات الاحتياطية ، فستنتظر حتى ترى ما ستسفر عنه تلك التحركات لكي تبدأ بالتحرك وتشارك القوات الأخرى عملياتها الهجومية .

وكما كان جمال باشا قد خطط لهذه الحملة ، بدأت القوات الالمانية والتركية بفتح النار على الجبهة في غزة ، وكانت معلومات التير التي قدمها لجمال باشا كلها صحيحة ومطابقة لتحركات هذه القوات وتمكنت جيوش جمال باشا في تدمير وسحق الجنود الانكليز في عدة جبهات من غزة. وكانت ساحات القتال مليئة بالقتلى والجرحى، غير أننا لم نكن نعرف من الغالب ومن المغلوب .

ولكن ، وبعد يومين من دخول القوات التركية والالمانية القتال، تحركت القوات الانكليزية براً وجواً وشنت هجوماً ساحقاً على القوات التركية والالمانية المتواجدة على تلك الجبهات، واستطاعت أن تشتت شمل هذه القوات

وتوقع بها خسائر فادحة .

أما فيما يتعلق بالقوات الاحتياطية التي كانت تنتظر في الداخل ، لتتحرك وفق معطيات المعارك ، فقد شن عليها الطيران الانكليزي غارات مدمرة ، أبادتها كلها ، وأحرقت كل آلياتها ، وجعلتها هدفاً سهلاً للقوات الانكليزية .

كيف علم الانكليز بخططنا

على أثر هذه الهزيمة الكبرى ، أصيب القادة الالمان وجمال باشا ، بدهشة بالغة لا يعرفون لها سبباً .

وكان لعلي فؤاد باشا رأي آخر في اخفاق القوات الالمانية والتركية وتغلب القوات الانكليزية عليها . فهو يعتقد أنه تم تسريب الخطط إلى الانكليز عن طريق الالمان . لأن الخطط التي أرسلها التير كانت صحيحة تماماً.

أما الحقيقة المرّة فتكمن في أن الانكليز استطاعوا الحصول على هذه الخطط العسكرية وكان لابد من كشف هذه الحقيقة ، ومعرفة كيف استطاعت القوات الانكليزية الحصول عليها . وقرر علي فؤاد باشا كشف هذه المؤامرة وملابساتها .

كان عدد القتلى من الجنود والضباط الأتراك قد بلغ ألفاً وخمسمائة وعشرين قتيلاً ، وهذه خسارة غير متوقعة للقوات التركية .

ونتيجة لذلك ، وجه جمال باشا تقريراً مقتضباً للقادة الالمان يبين لهم فيه أنهم كانوا السبب في هزيمة القوات التركية ، وكان كتابه موجهاً بشكل خاص إلى قائد أركان القوات الالمانية فالكنهاين .

بينما وجهت قيادة أركان القوات الالمانية اتهاماً للقيادة التركية تتهمها فيها بسوء تقدير الأوضاع والمعطيات العسكرية وتسببها في خسارة القوات الالمانية ، عتاداً ورجالاً .

وهكذا ، كان الاتهام متبادلاً بين الطرفين ، وكل طرف يتهم الطرف الآخر ، فالقائد فالكنهاين يتهم سوء تقدير جمال باشا . وجمال باشا يتهم القيادة الالمانية بأنها كانت وراء هزيمة جيوشه .

وأنور باشا يقوم بدور الوسيط بإبلاغ تلك الاتهامات إلى كلا الجانبين.

ولكن ، بغض النظر عن هذه الاتهامات ، فإن هناك واقعاً لا جدوى من البحث عن سببه ، ألا وهو ألوف القتلى والجرحى الذين سقطوا في هذه المعركة ، وأن القوات التركية قد هُزمت ، ولم يكن أحد غير علي فؤاد باشا ينوي البحث عن سبب هذا كله .

علي فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني مندهشَين حائرين .

بعد الهزيمة بيومين، بدأ جمال باشا المرسيني وعلي فؤاد باشا تحقيقاتهما حول تسرب الخطط العسكرية إلى الانكليز وتحديد هوية الفاعل .

ففي الاجتماع الذي عقده جمال باشا ، لم يكن حاضراً سوى القادة والضباط المسؤولين عن وضع خطط الحرب العسكرية ، كيف تسربت إذاً هذه المعلومات . أعاد فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني النظر في قائمة الضباط الذين حضروا الاجتماع الأخير ، دارت الشبهة حول ثلاثة أسماء أحدهم النقيب عارف حكمت وكان يعمل في رئاسة الأركان . أما الاثنان الباقيان فهما النقيب عادل والنقيب جواد أدهم .

وبعد سلسلة طويلة من التحقيقات علم فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني أنه في ليلة ذلك الاجتماع، اصطحب جواد أدهم بك المصورات والخطط العسكرية معه إلى منزله للتدقيق فيها بناءً على توصيات المجتمعين .

ولقد زارته في تلك الليلة فتاة نمساوية ، كانت تتردد كثيراً عليه ، وقضت معه سهرة حتى الصباح .

على أثر ذلك، تم استدعاء جواد أدهم بك للمثول أمام علي فؤاد باشا

وعند وصول جواد أدهم، ودخوله مكتب علي فؤاد باشا، قال له هذا الأخير: إنكم على علمٍ طبعاً ، أن آلاف الشهداء المسلمين قد سقطوا بسبب خطأ تسببتم به .

أمام اتهام علي فؤاد باشا ، لم يعرف جواد أدهم بماذا يجيب ، ولكنه اعترف أنه اصطحب معه المصورات والخطط العسكرية في تلك الليلة إلى منزله وأن فايستر هاييم ، تلك الفتاة النمساوية الحسناء ، كانت برفقته في منزله في تلك الليلة حتى الصباح . غير أنه أقسم بشرفه العسكري بأنه لم يتعامل مع هذه الفتاة بأي شكل من الأشكال ، وأنه لم يسلمها تلك المصورات قط .

فقال علي فؤاد باشا ، لليوزباشي جواد أدهم : عليك بالتحقق بنفسك من هذا الأمر ، وعليك اصلاحه بنفسك .

وتم اطلاق سراح اليوزباشي جواد أدهم .

قولي لمن بعتِ تلك المصورات .

وتوجه اليوزباشي أدهم إلى منزل ليديا مباشرة ، وطلب رؤية الآنسة فايستر واصطحبها معه إلى منزله . وبعد أن جلس معها قرابة الساعتين يشربان النبيذ ويتسامران ، قال اليوزباشي لفايستر :

ـ المصورات التي سرقتِها مني ، لمن بعتها ، وكم قبضتِ ثمنها ؟

ارتجفت فايستر عند سماعها لهذه الكلمات وكأنها أخذت حماماً بارداً .
وقالت لليوزباشي : أنا يايوزباشي ؟ أنا سرقت منكم المصورات العسكرية ؟

ـ لا تنكري هذا يا آنسة ، كنت على علم بسرقتك للمصورات تلك ، كما أنني أعرف أنكِ تعملين لصالح الاستخبارات الانكليزية ، يمكنك أن تطلبي مني ما تشائين من المصورات بعد اليوم ، لأنني أعشق المال كثيراً ، وأريد الحصول على الكثير منه ... هل تستطيع شبكتكم دفع هذه المبالغ

الطائلة لي .

اعتقدت فايستر أن اليوزباشي صادق في كلامه ، فقالت له :

ـ مال يا سيدي اليوزباشي ؟ يمكنني أن أؤمن لكم ما تطلبونه من الأموال .. كم هو المبلغ الذي تريدونه ؟ يكفي أن تحضروا إلي المصورات العسكرية .

ـ حسناً ، كيف سيمكنك ايصال هذه المصورات إلى الانكليز ؟

ـ لاتقلقوا بهذا الشأن يا يوزباشي ، أعطني المصورات واترك أمر ايصالها إلى الانكليز عليّ .

ـ حسناً يا آنسة ، كونك نمساوية ، هل تعملين مع الانكليز لمجرد الحصول على المال ؟

ـ كلا يايوزباشي ، أجابت فايستر ، أنا حقاً نمساوية ولكنني من أصل موسوي أنا لا أتعاون مع أجهزة الاستخبارات الانكليزية من أجل المال ، أنا أعمل من أجل قيام دولة موسوية على هذه الأراضي ، التي سيعطينا إياها الانكليز .

وفتح الباب فجاة ..

بعد نطقها لهذه الكلمات ، فُتح الباب فجأة ، وظهر البنباشي عارف حكمت برفقة ضابطين ودخل الغرفة وصرح قائلاً : لاتتحركوا من مكانكم .

والتفت إلى اليوزباشي أدهم وقال :

ـ أيها العديم الأخلاق ، لقد وجهت إلي تهمة بسبب طمعك وجشعك وسقط ألوف الشهداء من الضباط والجنود في ساحة المعارك بسببك ، لا سامحك الله ، وليبتليك الله من عنده .

ولم يكد البنباشي ينتهي من لفظ كلماته هذه حتى سُمع صوت طلق ناري في الغرفة ، وسقطت الآنسة فايستر أرضاً مضرجة بالدماء التي كانت

تنزف من رأسها ، ووجه اليوزباشي جواد سلاحه صائحاً :

ـ لاتتحرك يا بنباشي . لقد ارتكبتُ خطأً ، ولكنني مستعد لتحمل نتائج خطئي هذا . وسأعاقب نفسي بنفسي ، ثم وجه المسدس إلى صدره وأطلق النار .

فأسرع البنباشي ومرافقوه إلى اليوزباشي جواد وحملوه وهو يحتضر فسأله البنباشي :

تكلم يا جواد ، تكلم ، مع من تتعامل هذه الفتاة قل لي ، إلى أي شبكة تنتمي . هل علمت شيئاً عنها ؟ فتمتم جواد أدهم وقال للبنباشي عارف، بينما كان هذا الأخير يمسح الدماء على صدر صديقه :

الموسويون، ... الموسويون ... وكانت تلك كلماته الأخيرة التي لفظها.

ومات اليوزباشي جواد أدهم .

جواد أدهم كان ضابطاً شجاعاً

عندما نقل نبأ مقتل جواد أدهم إلى علي فؤاد باشا ، أمر هذا الأخير بكتمان الخبر ، وابقاء السرية التامة في سير التحقيقات التي بدأت تأخذ مجراها.

وقبل موته لم يلفظ جواد أدهم سوى كلمة الموسويين . ولكن لم يكن معلوماً ما قصده جواد ايتام بكلماته تلك ولم لفظها .

من ناحية أخرى كان علي فؤاد باشا غاضباً من البنباشي عارف .

فقال له : لم استعجلتم . لقد أمرتكم بتعقبه فقط لقد كان جواد أدهم ضابطاً مقداماً وشجاعاً.

لقد كان جواد أدهم يعلم بسرقة المصورات ، وكان هو نفسه قد سمح للفتاة بالقيام بسرقتها لكي يتوصل إلى معرفة من وراء هذه الفتاة .

لماذا تدخلتم هكذابسرعة . كان عليكم فقط القبض عليه متلبساً .

فقال عارف بك :

ـ أرجو المعذرة يا سعادة الباشا . لقد توالت الأحداث بسرعة فائقة في تلك اللحظة ولم نكن سبباً في انتحار جود أدهم أو تصرفه عند إطلاق النار وكان ذلك مفاجأة لنا .

ـ الأمر أفضل هكذا ، ولكنني لاأريد أن يعلم أحد بما حصل .

يجب أن يعلم الناس أن الحادثة كانت بين جواد وعشيقته ، فلقد قتل جواد عشيقته وقتل نفسه بعد ذلك ، هذا ما عليكم ترويجه وافهامه للناس. لا أريدكم أن تذكروا لأحد أن جواد ايتام قد قتل فتاته لأنها سرقت منه المصورات العسكرية التي كانت بحوزته .

هل هذا مفهوم ؟

وفي اليوم نفسه ، وجّه علي فؤاد باشا دعوة لمتصرف مدينة القدس مدحت بك ومدير أمن المدينة عارف ابراهيم للمجيء إليه في مكتبه . وعقد معهما اجتماعاً حضره بعض ضباط جهاز الاستخبارات التركية وجمال باشا المرسيني .

وفي تلك الأثناء ، لم يكن جمال باشا المرسيني يكف عن تقديم الشكاوى بحق الفتيات العاملات في الخانات ودور اللهو المنتشرة في مدينة القدس ولكن دون جدوى .

فلم تكن لديه حجة مقنعة ، ولامبرر ولا دليل يستند عليه، لابعادهن عن المدينة . أما الآن ، فبانتحار جواد ايتام ومقتل الآنسة فايستر ، أصبح جمال باشا المرسيني ممسكاً بطرف الخيط الذي سيوصله إلى كشف هوية وحقيقة الفتيات وسيتمكن من ابعادهن عن المدينة .

وكانت هذه الأحاسيس وهذا الموقف بادية بشكل واضح عليه في مستهل الاجتماع ، قال علي فؤاد باشا : إخوتي ، إن وقوع المصورات المتعلقة بالحملة على غزة الغربية وبأدق تفاصيلها ، حقيقة مرّة لابد من الاعتراف

بها. غير أننا ، نحن أيضاً كنا على علم بخطط العدو الهجومية . لكن العدو كان يعلم أكثر مما نعلم وكانت لديه معلومات تفوق المعلومات التي كانت بحوزتنا .

إن الهجوم الذي تعرضت له قواتنا الاحتياطية لأكبر دليل على معرفة العدو بأدق تفاصيل خططنا الحربية وترتيباتها .

لقد ارتكب اليوزباشي جواد أدهم خطأً فادحاً عندما اصطحب معه تلك المصورات إلى منزله بقصد التدقيق فيها ، وعرضها للسرقة من قبل الآنسة فايستر التي كانت بصحبته .

لقد أثبتت تحقيقاتنا صحة هذه المجريات . ولكن للأسف، اليوم اليوزباشي أدهم والجاسوسة فايستر قد ماتا .

وبناءً على هذه المعطيات ، فإننا لا نملك حالياً أية تصورات يمكننا اعتمادها تجاه ما حدث .

غير أنني سأتوجه حالياً ، بالرجاء ، للشرطة المحلية ، للسيد المتصرف مدحت بك ، ومدير الأمن عارف ابراهيم بك . إن المساعدة والتعاون مع الاستخبارات العسكرية أمر ضروري . فنحن نجهل ما يفعله العديد من الغرباء في مدينتنا ، بصحبة ضباطنا وجنودنا .

غير أنني أعتقد ، أن مدير الأمن عارف بك سوف يتمكن من مساعدتنا لكشف مآرب وأهداف هؤلاء الغرباء .

على سبيل المثال ، سوف نكشف قريباً ، أين كانت تعمل الآنسة فايستر ومع من كانت تتصل ، وما هي الأعمال التي كانت تقوم بها ، وسوف نستطيع بذلك التعرف على شبكة التجسس تلك ، ونتوصل لمعرفة من يديرها ، ومن هم أعضاؤها .

في تلك الأثناء ، لم يستطع جمال باشا المرسيني ، كبح جماح غضبه وثورته ، واخفاء شكوكه حول هؤلاء الغرباء ، فقال : أيها السادة ، اليوم في

القدس ، العديد من الفتيات يصاحبن الضباط الأتراك والالمان ، ونحن نجهل هوية هؤلاء الفتيات الأجنبيات .

إنهن ، وأرجو معذرتكم ، مومسات ، فاحشات ، ولاندري إن كنّ جاسوسات . أرجو من السيد عارف ابراهيم بك العمل بسرعة على كشف هوية هؤلاء الفتيات ، علينا اعتبار هذه الدور المنتشرة في أنحاء المدينة على أنها مراكز للنشاط التجسسي ، أليست حادثة جواد أدهم دليل قاطع على صحة تكهناتي .

لقد بحثت الأمر شخصياً مع سعادة الباشا الكبير ، وأمرني آنذاك ، بطرد هؤلاء الفتيات خارج المدينة عند ثبوت التهمة عليهنّ وعدم رغبتنا بوجودهن في المدينة . أرجو ، بناءً على ذلك ، من الشرطة المحلية ، أن تعطي وتولي هذه الناحية اهتماماً خاصاً .

وبعد الاجتماع توجه متصرف المدينة مدحت بك ومدير الأمن عارف ابراهيم مباشرة إلى دار الحكومة .

وفي دار الحكومة ، قال مدير الأمن لمتصرف المدينة .

ـ سيدي المتصرف ، سأتمكن من القبض قريباً على كل الجواسيس العاملين داخل هذه المدينة ، إني واثق من ذلك . سأكشفهم الواحد تلو الآخر ولكن علي تشكيل مجموعة من العاملين بإمرتي لتنفيذ هذا الأمر .

ـ قم بدراسة الوضع ، وقدم لنا كل احتياجاتك وسوف نعمل على تأمينها لك ، لاتقلق بهذا الشأن .

ـ سيدي ، أريد أربعين فرداً ، من أهل الثقة ، وليس لي طلب آخر .

ـ حسناً ، اجمع هؤلاء الرجال ، وأنا سأقوم باصدار أمر تعيينهم . من ناحية أخرى ، فإني سأدعمك بكل الوسائل المادية والمعنوية التي تحتاجونها ، يا عارف ابراهيم بك . كما أنك تستطيع الاعتماد على عناصر الشرطة التي تحت أمرتي ، أعلمني بالوضع ، كلما سنح لك ذلك ، وسوف أقوم

بطلب احتياجاتكم من سعادة الباشا .

سر عارف بك جداً من هذا الوضع . وتوجه على الفور إلى مكتبه ليعد قائمة بأسماء أربعين شخصاً معتمداً للعمل تحت امرته بناءً على توصيات متصرف المدينة .

في تلك الأثناء ، كان جمال باشا في مكتبه ، حزيناً لما يسمعه عن أحوال جنوده في الجبهات . فأغلب هؤلاء الجنود مصابون بالأمراض، منها التيفوئيد ومنها الديزنتاريا ، والجوع كان يفتك بهم ، فكان قلبه يكاد ينشطر لهذه الأنباء الحزينة .

لذلك ، كان جمال باشا يرفض استقبال أي إنسان في مكتبه ، فهذه الأحداث قد مست كرامته وشرفه .

عندما قرر جمال باشا القيام بحملته الثانية إلى القناة ، كان يتصور أنه سيتمكن بقفزة واحدة من اجتيازها ، حتى أن بعض ضباطه ، كان متحمساً جداً لهذه الحملة وينتظر بفارغ الصبر صدور الأوامر إليه بالتحرك .

فالجميع كانوا ينتظرون ويتوقعون أن يحتل جمال باشا القناة ، ثم يجتازها متوجهاً إلى مصر، والضباط يتزاحمون على الاشتراك في هذه الحملة ، لنيل شرف النصر فيها .

أما الآن ، فأحلام هؤلاء الضباط بددتها الرياح ، ومن استطاع الخلاص والنجاة من أرض المعارك ، كان بطلاً .



الفصل السادس

نحو إعلان حركة الخلاص العربية

كان جمال باشا جالساً وراء مكتبه ، يفكر ملياً ويستعرض الأحداث التي مرت . والحدث الأهم في كل ما جرى ، استلامه لرسالة من أحد اصدقائه في استنبول طفح الكيل لما احتوته من أخبار سيئة .

في الرسالة التي أرسلها له صديقه ، نقل إلى جمال باشا فيها أقوال طلعت باشا ، التي أدلى بها أمام مجلس أعضاء حزب الاتحاد والترقي أثناء انعقاد اجتماع له ، حيث سُئل طلعت باشا عن سبب ايفاد جمال باشا إلى هذه المنطقة العربية ، فكان رد طلعت باشا كالتالي .

« ماذا يسعنا أن نفعل ، كان لابد من إبعاد جمال باشا . لقد تقرر ارساله إلى تلك المنطقة . إما ليسقط شهيداً ، وإما نتيجة للعجز والفاقة التي يعيش فيها ويرزح تحتها جيشه ، سيرى نفسه مغلوباً وسينتحر بطلقة مسدس في رأسه . هذا ما ارتأيناه .»

أعاد جمال باشا قراءة هذه السطور مراراً ، وكان مندهشاً للطريقة التي يفكر بها قادة هذه الامبراطورية . فهذه الكلمات لم تخرج من فم إنسان عادي ، إنما من أحد كبار شخصيات القيادة التركية في استنبول .

وطلعت باشا ليس إنساناً عادياً فهو يعلم ما يقول. كيف لقائد يقود الامبراطورية ويحكمها أن يفكر بمثل هذه الطريقة ؟

الحكومة إذن على علم بالأوضاع الوخيمة التي تسود هذه المنطقة قبل ارساله إليها. كما أن إرساله إلى هذه المنطقة كان بهدف أن ينتحر عند مواجهته لها .

« مسكين هو الشعب التركي ، مسكينة أنت أيتها الامبراطورية العثمانية انظري إلى ما آلت إليه حالتك ومصيرك » كان جمال باشا يفكر في نفسه ويردد هذه الكلمات .

وبينما كان مستغرقاً في تفكيره هذا ، قرع باب الغرفة ، ودخل الخادم وقال : مفتي الجيش السيد أسعد الشقيري يريد مقابلة شخصكم يا سعادة الباشا .

فرفع جمال باشا رأسه ، كمن كان يحلم وقال للخادم : فليتفضل ... فليتفضل ...

كان جمال باشا يحب المفتي الشقيري ويعتمد عليه كثيراً .

فاستقبل المفتي بوجه بشوش قائلاً :

ـ تعال إلي يا سيد شقيري ... لم يكن الشقيري قد قابل جمال باشا منذ هزيمة معركة غزة الغربية لقد أتى إليه ليواسيه قليلاً ، وليسمع منه أنباء وتفاصيل هذه الهزيمة التي مني بها الجيش التركي .

وجلس جمال باشا بالجهة المقابلة لمكان جلوس الشقيري .

ـ قل لي ، ما هي الأخبار ؟

فرد المفتي قائلاً : الأخبار سيئة جداً يا سعادة الباشا ، وإني لا أجرؤ على لفظها ، ولكن ، لمصلحة الوطن ، ومصلحتكم ، لابد لي من أن أذكرها لكم .

لقد انطلقت حركة الخلاص يا سعادة الباشا

إندهش جمال باشا قليلاً لما سمعه من المفتي ، وسأل نفسه ترى هل

هناك أخبار سيئة جديدة يحملها هذا الرجل ؟ على كل حال مهما كانت هذه الأخبار تعيسة فلن تكون أسوأ من خبر الهزيمة التي منينا بها . فقال المفتي :

ـ طبعاً بإمكانك أن تخبرني ما تريد يا مفتي ، قل كل ما عندك دون تردد ، أنت تعلم أنني أحبك وأثق بك وأعتمد عليك .

ـ شكراً يا سعادة الباشا ، إني أسعى دوماً لأن أكون أهلاً لثقتكم بي.

ـ قل لي ، ماذا حصل ؟

ـ سيدي ، لقد انطلقت حركة الخلاص العربية بشكل علني . فلقد اجتمع كافة الاصلاحيين ، وقرروا مساندة الانكليز والفرنسيين ، وعزموا على النضال في سبيل اجلاء الأتراك عن الأراضي العربية ، واتفقوا مع الانكليز والفرنسيين حول هذا الأمر .

ـ إن هذا يؤكد صحة شكوكنا ، علينا إذاً الحذر وعدم الوثوق بوعود هؤلاء العرب .

ـ مع الأسف ، الأمر كذلك يا سعادة الباشا .

لقد ذكر لي النائب كامل الأسعد بك [1] هذا الأمر ، وهو كما تعلمون في صيدا ، نائب سابق لمدينة بيروت .

كما ذكر أيضاً أن نائب بيروت رضا الصلح قد اتفق مع زعيم الاصلاحيين عبد الكريم الخليل ، قبل عدة أيام ، على أن يقوما بجولة في صيدا وصور ويدعوان المواطنين فيهما إلى الانضمام إلى حركة الخلاص العربية ، ولقد قاما فعلاً بزيارة هاتين المنطقتين، قرية، قرية، بلدة، بلدة، دون استثناء.

---

(١) من كبار زعماء جبل عامل ، اتصل بجمال باشا وأفشى له أسراراً عن حركات ونشاط رضا الصلح وعبد الكريم الخليل ورفاقهم في جنوب لبنان ، والمعروف أن رضا الصلح من صيدا وعبد الكريم الخليل من صور . إن وشاية كامل الأسعد لم تكن سوى محاولة من قبله لإبعاد منافسيه السياسيين ، وبذلك يكون قد خان رفاقه العرب لصالح جمال باشا .

وفي سوريا ، انطلقت حركة ضد الاحتلال ، لذلك ، يجب اتخاذ التدابير اللازمة لحسم هذه الأمور ومحاصرتها يا سعادة الباشا .

انكم تعلمون مدى فعالية هذين الشخصين ، ومدى نفوذهما على الناس يا سعادة الباشا .

ـ أجل ... أجل ... سوف آمر بتوقيفهما حالاً .

ـ إن تقدير الموقف عائد إليكم يا سيدي !

ضغط جمال باشا على زر وقال للخادم الذي دخل الغرفة : ابرقوا فوراً إلى حاكم الشام خلوصي بك ، وإلى حاكم بيروت عزمي بك بما يلي : « نرجو منكم توقيف نائب مدينة بيروت رضا بك الصلح وعبد الكريم خليل وتسليمهما إلى ديوان محكمة الحرب في عاليه فوراً »

بعد أن كتب الخادم برقية جمال باشا كما أملاها عليه خرج من الغرفة، والتفت الباشا إلى المفتي وقال :

ـ سيدي العزيز ، يجب توقيف كل هؤلاء وشنقهم لم يبق لنا حل سوى هذا .

ـ إنكم على حق يا سعادة الباشا ، أجاب المفتي الشقيري .

فقال جمال باشا متابعاً كلامه :

ـ هؤلاء أناس لايفهمون ، فكلما كانت معاملتنا معهم حسنة قابلونا بالسوء . وأنت أدرى الناس بحسن معاملتنا لهم . ولكن مع الأسف فإنهم لا يفهمون ذلك .

ـ معكم حق يا سعادة الباشا !

وما موقف الأمير فيصل من هذه الأحداث ؟

هل هو على علم بقرار هؤلاء السوريين ؟

ـ أجل يا سيدي .

ـ وهل ينوي العصيان هو أيضاً والانضمام إلى هؤلاء ؟

- لاأستطيع أن أقول شيئاً في هذا الأمر يا سعادة الباشا ! إنما يمكنني القول أن الأمير فيصل عميق التفكير ويعرف كيف يتصرف في مثل هذه المواقف ، غير أنه حزينٌ قليلاً لاعتقالكم العديد من العرب الذين وجدتم أسماءهم في القنصلية الفرنسية .

- إن كان حزيناً فليمنع هذه الاهانات !

- الأمير فيصل لا يستطيع أن يسيطر على الاصلاحيين في بيروت والشام ، فلا سلطة له عليهم .

- أنا أسيطر عليهم ، لاتقلق لهذا الشأن . سوف أشنقهم جميعاً وسوف يرون كيف يكون عقاب من يتعاون مع الانكليز والفرنسيين .

فلنرحل إلى الشام هذا الأسبوع يا سعادة المفتي ، أخبر الأمير فيصل بأننا سنتوجه إلى الشام هذا الأسبوع .

يطالبون بالعفو عن المعتقلين

عند وصوله إلى الشام بعد مضي أسبوع ، كان رجال الدين والعلماء والمشايخ قد اجتمعوا وطلبوا من جمال باشا تحديد موعد للقائهم . فطلب منهم اختيار ثلاثة شخصيات يمثلونهم ، ووافق على مقابلتهم .

كما أعلمهم بقراره بتقديم كل المعتقلين إلى المحاكمة، ولكن، رغم توسط الشيوخ ، ورؤساء القبائل والأمير فيصل بالذات لدى جمال باشا للعفو عن هؤلاء المعتقلين، ورغم قرار أنور باشا بإعادة النظر في قائمة الموقوفين ، إلا أن جمال باشا ضرب بعرض الحائط كل هذه المساعي ونفذ أول اعدام في صباح الخامس من أيار عام ألف وتسعمائة وستة عشر[1] .

---

(١) يوجد فرمان في متاحف استنبول يحمل تصديق الباب العالي على أحكام الاعدام التي صدرت عن محكمة عاليه العرفية مقروناً بتواقيع وأختام دار الفتوى في استنبول . ومن هنا ، يمكن القول إن المسؤولية لا تقع على جمال باشا وحده ، كما يفهم من قول الكاتب .

الجثث المعروضة

في السادس من أيار عام ألف وتسعمائة وستة عشر، كان القادمون من العراق يرون في ساحة المرجة في الشام وساحة البرج في بيروت، جثث الذين نفذ جمال باشا حكم الاعدام فيهم ، وعرضهم من الصباح حتى المساء .

أحدث قرار الاعدام هذا ، بلبلة كبيرة في صفوف المواطنين العرب .

ولم ترحب الدول الأجنبية ولا الحكومة العثمانية بقرار جمال باشا هذا ، الذي لم يميز أحداً ولم يكن قراراً منطقياً .

علاوة على ذلك ، فالذين أعدمهم جمال باشا كانوا ينتسبون إلى عائلات مرموقة ومعروفة في البلاد العربية ، أما الذين أعدمهم جمال باشا وبكاهم العالم العربي أياماً وشهوراً فكانوا: عبد الحميد زهراوي ، شفيق المؤيد العظم ، شكري العسلي ، عبد الغني العريسي ، سيف الدين الخطيب ، محمود المحمصاني ، محمد المحمصاني ، صالح حيدر ، عبد الوهاب الانكليزي، رفيق رزق سلوم ، عمر حمد ، الأمير عارف الشهابي ، عبد الكريم الخليل ، شيخ أحمد طبارة ، علي عمر النشاشيبي، حافظ السعيد ، محمود العجم ، نايف تللو ، سليم الحمد ، سليم الجزائري ، أمين لطفي ، عبد القادر الخرسا ، محمد الشنطي ، جرجي حدّاد ، سعيد عقل ، بيترو باولي ، نور الدين القاضي ، توفيق البساط، الأمير عمر عبد القادر الجزائري ، عمر مصطفى ، رشدي الشمعة ، جلال سليم البخاري ، محمد حافظ .

أما الذين صدر بحقهم قرار الاعدام ولاذوا بالفرار فكان من بينهم :

رفيق العظم ، حقي العظم ، شيخ رشيد رضا ، داوود بركات ، فارس نمر ، دكتور شبلي شميل ، خليل المطران ، ابراهيم النجار، جورج عبد المسيح، جبرائيل ناصيف ، نجيب بك عازوري ، الفريد عازوري ، جورج بحري ، عزيز بحري ، الأمير خليل أبو اللمع ، خليل بولاد ، هنري سمّان ، نجيب قطّان ،

نجيب قريصاني ، جورج دوماني ، جورج قريصاني، جورج خير، أمين البستاني، رزق الله أرقش ، نعمة الله غانم ، يوسف صموئيل ، ميشيل لطف الله ، الأمير أمين مجيد أرسلان ، شيخ يوسف الخازن ، رشيد خياط ، أدمون ملحمة ، دكتور خليل مشاقة ، يوسف سمعان ، الياس حنين ، سليم شميل ، ماريوس شميل ، يوسف حبيب زنانيري ، الياس زهّار ، الفونس زينية، فؤاد الخطيب ، قسطنطين يني ، حسن حمادة ، عبد الحفيظ بن محمود حسن ، رزق الله أرقش ، سليم ثابت ، عزت العابد ، شكري غانم ، عزيز المصري ، وآخرون معروفون في البلاد العربية و آخرون أيضاً غير معروفين كانوا من بينهم .

وكان هناك حكماً آخر بإعدام ثلاثة وستين علاوة على الذين نفذ بهم حكم الاعدام ، وكأنما بات جمال باشا يحارب العرب ، ونسي حربه مع الانكليز والفرنسيين ، وفتح معهم جبهة قتال واسعة ، فكل من كان يُشتبه به ، كان يجد نفسه في اليوم التالي موقوفاً .

وانتشر الجوع والمرض والسفالة في شوارع الشام وبيروت ، وكان جمال باشا يرسل إلى الاعدام كل من يعتقله دون تردد أو تفكير .

سارة مسرورة

كانت سارة سعيدة جداً بما كان يحدث . فجمال باشا يصدر كل يوم قرار إعدام جديد ، وفي المساء كان يأوي إلى فندق قصر الشام برفقة فتاته ليمضي أجمل الليالي .

أما الأمير فيصل ، فلم يعد يتحمل قرارات الإعدام هذه ، فوجد فرصة سانحة وهرب إلى مكة .

وعقد الشريف حسين وأولاده فيصل وعلي وعبد الله وزيد اجتماعاً قرروا فيه على ملأ من الناس إعلان العصيان العام بوجه قائد الجيش الرابع

جمال باشا ورفعوا علم هذا العصيان عالياً .

الهوة بين الأتراك والعرب تزداد عمقاً

بعد اعلان العصيان ، بدأ الشريف حسين بمهاجمة الأتراك في الأوساط الشعبية ، فراح يعلن أن حزب الاتحاد والترقي بعيد عن تطبيق مبادىء الإسلام وأن المسلمين منه براء ، لأن من يرضى بإعدام المسلمين ، ليس مسلماً ، بل هو سفاح .

وهكذا تجسدت الصداقة العربية الانكليزية بعد أعوام طويلة من الانتظار ، خاصة بعد إعدام جمال باشا للعرب الموقوفين .

وهكذا حققت سارة نصراً كبيراً في هذا المضمار . وإثر إعلان الشريف حسين العصيان قررت الحكومة العثمانية عزله وإحلال الشريف علي حيدر مكانه ، أميراً على مكّة .

وبدأ الشريف حسين ، بمساعدة الجنود المسلمين القادمين من الهند والجاسوس لورانس ، الذي يعمل في البلاد ، بشن حرب داخلية ضد القوات العثمانية ومصالحها .

فبدأت الخطوط الحديدية التركية تتعرض لعمليات تخريب واسعة ، كما تعرضت شبكات الاتصالات الهاتفية والبرقية للنسف والتدمير ، وتعرضت أيضاً الدوريات التركية إلى هجمات وكائن عديدة .

مصطفى كمال يصل إلى الشام

وهكذا أصبحت الجبهة في حالة يرثى لها . وكان جمال باشا مندهشاً ومتوتراً من جراء ما يحدث هنا وهناك ، يقضي معظم أوقاته في التنقل من مدينة إلى أخرى ، فتراه يوماً في بيروت ويوماً في القدس ويوماً في الجبهة وتارة يعود إلى الشام .

في حين كانت سارة تحاول بمساعدة أعضاء شبكتها ، إنزال الضربات

الموجعة في صفوف الأتراك وتحضر لهم الهزائم والنكسات .

وكانت سارة تمنح الحماية والمال لكل الجنود الفارين من الجبهات عرباً كانوا أم أتراكاً وتؤمن لهم كل وسائل الاستقرار والهرب من الجبهة .

في حين كان جمال باشا يعدم كل جندي فار من الجبهة يتم القاء القبض عليه . لكن قرارات الإعدام هذه مع الأسف لم تكن تحد من مشكلة فرار جنوده من الجبهات .

أثناء هذه الفترة ، وصل مصطفى كال باشا إلى الشام ، وكان وصوله أشبه بوميض أمل ، فالكل كان ينتظر منه شيئاً جديداً ويترقب حدوث شيء جديد على يديه .

زار مصطفى كال الجبهة في فلسطين وتفقد القوات العسكرية المتواجدة هناك ، ودقق التفتيش في كل المناطق وتوقف في كل موقع على حده وأمعن النظر في أحواله وتجهيزاته .

وكان ما شاهده على تلك الجبهات قد سبب الألم والحزن في داخله . فالقوات متفرقة ، مفككة ، وقد تدنى مستوى تجهيزاتها وقتالها .

مصطفى كمال يتعرف على سارة

في فندق قصر الشام التقت سارة بعلي فؤاد باشا وقالت : سيدي الباشا ، أنا أيضاً أرغب في التعرف على مصطفى كال باشا .

ـ طلبك لا يُرد ، لقد دعوت اليوم مصطفى كال باشا لتناول العشاء ، يمكنك الحضور وتناول العشاء معنا .

نزلت سارة إلى العشاء تلك الليلة مرتدية لباساً شفافاً وبراقاً ، لفت انتباه كل الحاضرين .

وكان الصالون مضاءً بالشموع لانقطاع التيار الكهربائي ، ومرت سارة من الصالون باتزان ووقار من جانب إلى جانب آخر ، واقتربت من الطاولة

التي يجلس عليها مصطفى كمال باشا وعلي فؤاد باشا في زاوية الصالون .

فنهض علي فؤاد باشا لتحيتها حين رآها ،التفت إلى مصطفى كمال باشا : سيدي الباشا ، لوتكرمتم وسمحتم لي ، سأعرفكم على أجمل فتاة في هذا العالم . فنهض مصطفى كمال باشا ، وحدق النظر بعينيها ، وصافحها قائلاً: أهلاً وسهلاً بك يا آنسة .

ـ أقدم إليكِ بطل جناق قلعة ، مصطفى كمال باشا ، يا آنسة سارة .

ـ لقد سررت جداً يا سيدي ، إن جمال باشا يمدحكم طوال ذكره لكم ولقد طلبت منه مراراً التعرف عليكم .

وكان مصطفى كمال ينظر بدقة ويراقب تصرفات وكلام سارة .

فقال لها : أشكرك يا آنسة .

وشربت سارة نبيذاً كثيراًفي تلك الليلة ، والتفتت إلى علي فؤاد باشا بحركة أنثوية لبقة وقالت : للأسف، فإن القائد مصطفى كمال سيغادرنا ويرحل إلى مكّة حيث البادية والصحراء ، هل يُعقل هذا ؟

فرد عليها مصطفى كمال : إن كل شبر من وطننا أرض مقدسة بالنسبة لنا يا آنسة .

ـ نعم ، أفهم قصدكم يا سعادة الباشا . فإن قائداً مثلكم يجد متعة في التنقل من جبهة إلى أُخرى . أما وأنكم قائد ينتقل من نصر إلى آخر، فكيف لكم أن تقبلوا هذه المهمة ، اني لا أستطيع تخيل الأمر . فأنا أجدكم تهينون نفسكم بقبولكم الذهاب إلى مكة ، حيث الصحراء والجوع والمرض والجيوش المتقهقرة، لكي تسحبوا هذه الجيوش وتعيدوها إلى الداخل .

سُر مصطفى كمال لسماعه هذا لكن هذا الموضوع بدأ يُشغل باله . فقال لسارة : أرى أن الآنسة ملمة بالأمور العسكرية بشكل جيّد .

كان مصطفى كمال يعلم أن سارة عشيقة جمال باشا ، فقد أخبره علي فؤاد باشا بذلك قبل دعوته له إلى العشاء .

لم تعر سارة لكلام مصطفى كال باشا أي اهتمام ، وتابعت تقول :
- سعادة الباشا ، لاتنسوا أنني أنا أيضاً أعمل إلى جانب جمال باشا ، مثلي مثل ضباطه المساعدين . فأرجو معذرتي لتكلمي عن بعض الأمور التي أعرفها منه .
كان مصطفى كال شارداً في النظر إلى عيني سارة تحت ضوء الشموع المتلألئة ، وبعد برهة سألها :
- يا آنسة، إن التراجع والانسحاب يعتبر أحياناً نصراً، أليس كذلك ؟
فقالت سارة مندفعة : كلا ، يا سيدي، لا يمكن للانسحاب أن يحقق للقائد أي نصر ، الانسحاب هو الانسحاب . والتراجع هزيمة ومصيبة . فإلى أين ستقودون جيشكم الجائع، العطشان، المنهك ، يا سعادة الباشا ؟ ترى إلى أي جبهة ستسوقونه وهو في هذه الحالة المزرية ؟
وأود أن أذكركم أن قواداً مثل نابليون وقيصر كانوا ضحية مثل هذا التراجع . انكم مؤهلون لقيادة حملة تنتصرون فيها وليس لتهزموا بها .
دهش علي فؤاد باشا لسماعه حديث سارة بقدر ما دُهش لها مصطفى كال ، بل أكثر ، وفكر علي فؤاد باشا وقال في نفسه ، « ربما طلب جمال باشا من سارة التحدث بهذا الشكل إلى مصطفى كال باشا » .
وكان علي فؤاد باشا يعلم بعدم رغبة وترحيب جمال باشا بقدوم مصطفى كال إليه ، وفي تلك الآونة ، كان جمال باشا في مدينة القدس .
هل ترغب سارة الابقاء على مصطفى كال باشا إلى جانبها ، حتى تحدثت معه هكذا ؟ سأل علي فؤاد باشا نفسه .
ولم يستطع علي فؤاد باشا الوصول إلى نتيجة وقرار حول هذا الأمر .
في حين ، اقتنع مصطفى كال بكلام سارة ، وأخذه على محمل الجد ، وأحاطه بالأهمية والجدية ، وكان يرى كلامها منطقياً .
فسأل نفسه : ألا يوجد قائد آخر غيري يمكنه القيام بهذه المهمة التي

أوكلت إلي .

لقد أعلن الشريف حسين العصيان ، ورجاله يقتلون دورياتنا العسكرية ويهاجمونها في كل مكان : فكيف له أن يقود جيشاً جائعاً منهكاً، مهزوماً وسط صحراء تمتد مئات الكيلومترات من مدينة مكة إلى جبهة فلسطين أو جبهة الشام ؟ خصوصاً وأن الخطوط الحديدية لم تعد آمنة إطلاقاً.

والأهم من ذلك كله ، لم يكن مصطفى كال يرغب في أن يكون عدواً لحاملي راية الاسلام في مكة ، ولم يكن يرغب بالعمل تحت إمرة جمال باشا .

فجمال باشا قائد جيش ، ومصطفى كال أيضاً قائد جيش ، فكيف لقائد جيش أن يعمل تحت إمرة قائد جيش آخر ؟

ومن ناحية أخرى لم يكن جمال باشا في وضع مُرضٍ مع حلفائه الالمان. باختصار ، لم يعد أحد يساند جمال باشا باستثناء سارة . حتى علي فؤاد باشا ، شكى إليه أمر جمال باشا وتصرفاته عند حديثه معه الليلة ، لم ينم مصطفى كمال في تلك الليلة من شدة التفكير . فلقد كان متردداً في قبول منصب قائد مدينة مكة ، فبدأ يمضي وقته بتفحص التقارير القادمة إلى مكتب جمال باشا وقراءتها والإطلاع عليها . فهو من ناحية ، يدرس الأوضاع الراهنة ، ومن ناحية أخرى ينتظر قدوم أنور باشا إلى الشام .

أنور باشا في الشام

استقبل جمال باشا ، أنور باشا عند قدومه استقبال الفاتحين فهيأ ألوف الرجال ، ونشرهم في الشوارع لتحيته والهتاف له ، حتى رؤساء القبائل والعشائر جاؤوا جميعاً من حلب والشام وبيروت لاستقباله لأنهم يعلقون أهمية كبرى على لقائهم به .

وكان جمال باشا قد أوكل لسارة مهمة إعداد وليمة لأنور باشا ،

فسافرت إلى بيروت لإعداد الترتيبات اللازمة لتلك الوليمة .

أنور باشا يستقبل جمال باشا ببرود

صحيح أن جمال باشا استقبل أنور باشا استقبال الملوك والسلاطين ولكن اللقاء بين الاثنين كان على قدر كبير من البرودة والجفاء ، فكل منهما ، كان يحذر الآخر ويراقب تحركاته وتصرفاته .

عقد اجتماع للضباط القادة في مقر قيادة جمال باشا ، وتم دراسة واستعراض أوضاع الجبهات كل على حده ، ووصولاً إلى موضوع الجلاء عن «المدينة» قال أنور باشا لجمال باشا :

ـ هل دققتم يا باشا في الوضع الراهن ؟ كيف سيتم تنفيذ هذه المهمة وكيف سيتم نقل الأمانات المقدسة إلى استنبول أرجو تبيان الأمر لي. لأن هذه الأمانات التي ورثناها عن أجدادنا ، لايمكن التخلي عنها وتركها هنا ، أرجو أن تفكر في أمر إعداد الترتيبات اللازمة لنقلها .

وقال مصطفى كال الذي كان صامتاً :

ـ يا سعادة الباشا ، أرجوكم إعفائي من مهمة قيادة المدينة . وتعيين قائد غيري مكاني ، بديلاً عني .

غضب أنور باشا من كلام مصطفى كال الذي يعرفه باحتجاجاته الدائمة ، خاصة وأنه يتحدث بحضور جمال باشا . لكنه تمالك أعصابه ، رغم غضبه وقال : يا باشا ، يا باشا لقد أوكلت إليكم القيادة مهمة لتنفذوها ، وعليكم تنفيذ هذه المهمة ، تلك هي واجباتكم تجاه القيادة ، فهل تريد أن تنصح القيادة وتقرر بدلاً عنها ؟

ـ أستغفر الله يا سيدي ، فأنا لا أجرؤ ولا أفكر في تقديم النصح والقرار للقيادة ، ولكنني أردت أن أقول إن الشخص الذي قام بحماية المدينة عليه أيضاً إخلائها لأنه وحده القادر على ذلك .

عندها قطع أنور باشا الحديث قائلاً : مادام الأمر هكذا فالمدينة حالياً تحت إمرة القائد فخر الدين باشا وعليه أن ينسحب منها ويخليها ، ويكون مسؤولاً عن إيصال الأمانات المقدسة إلى استنبول ثم التفت إلى جمال باشا وقال : عليك أن تصدر في الحال أمراً بذلك .

عودة مصطفى كمال

بعد الاجتماع ، قرر أنور باشا الذهاب بنفسه إلى المدينة . وأعطى الأوامر لمصطفى كمال بالعودة إلى استنبول . وهكذا ، ودون أن يستفيد مصطفى كمال من قرار تعيينه الأول ، عاد إلى استنبول .

وبينما كانت سارة منشغلة بإعداد وترتيب وليمة الغداء على شرف أنور باشا ، كانت في الوقت نفسه تعد لعملية اغتياله .

فرغم اعتراض الأمير فيصل على هذه العملية في البداية ، إلا أنه بعد إعلان عصيانه على الدولة العثمانية ، سيسره ذلك .

دخل أنور باشا إلى بيروت دخول الأباطرة وتجول في أنحاء المدينة داخل سيارة مكشوفة برفقة جمال باشا ، وكانت الجموع تلهو وترقص حتى الصباح على شرف قدوم أنور باشا ، وكانت شوارع بيروت مزدانة بالورود والأزهار والصحافة منهمكة في الحديث عن حياة أنور باشا وعن أعماله وتسهب في مديحه ، بينما كانت الامبراطورية العثمانية في حقيقة الأمر تعاني سكرات الموت .

محاولة اغتيال أنور باشا

لم تفلح محاولة الاغتيال التي أعدت لأنور باشا في مدينة بيروت . إذ تمكن من القبض على الجاني بنفسه ، حين تسلل إلى غرفة نومه ليلاً وسلمه للحرس .

وعند ادلائه باعترافاته ، قال الجاني ، أنه كان يقصد سرقة أنور باشا وهذا ما دعاه للدخول إلى غرفته .

لكن جمال باشا أرسل الجاني إلى المحكمة العرفية العسكرية في عالية ، وتم اعدامه في اليوم التالي .

كان جمال باشا على علم بتحضير مثل هذه العملية مسبقاً من التير بالذات ، وهذا يعني أن التير كان يرسل أخباراً صحيحة وموثوقة ، قال جمال باشا في نفسه .

لورانس في المنطقة

علمت سارة بفشل عملية اغتيال أنور باشا فأصيبت بخيبة أمل وتوترت أعصابها . فرغم أن الجاني لم يتكلم قط ، إلا أنها قضت يومين متوترة الأعصاب .

من ناحية أخرى ، لم يقدم جمال باشا سارة إلى أنور باشا ، بل كان يحاول إبعادها عن مكان تواجد أنور باشا قدر الإمكان . ولم تكن سارة مرتاحة لهذا الأمر ، بل هي في الحقيقة حزينة ، إذ كانت ترغب بالتقرب من أنور باشا غير أن جمال باشا كان دائماً يعترض طريقها .

وبينما استقل جمال باشا وأنور باشا القطار متوجهين إلى عمان قاصدين المدينة المنورة ، كانت سارة قد توجهت إلى زمّارين[1]، مركز الاستخبارارت الذي تعمل من خلاله .

ففي داخل المختبر كانت سارة تفك شيفرة المعلومات الآتية إليها

---

(١) أقيمت على أراضي بلدة زمّارين العربية ، جنوبي حيفا ، مستعمرة صهيونية أُطلق عليها اسم (زخرون يعقوب) عام ١٨٩٣ ، وذلك تخليداً لذكرى والد البارون (إدمون روتشيلد) الذي تعهّد بتقديم المال اللازم لذلك . واشترى الأراضي يهود رومان (من رومانية) من وكيل شركات السفن البريطانية في الموانىء السورية ، في بلاد الشام .

وترسلها من هناك إلى القيادة الانكليزية .

وقدم إليها لورانس ، برفقة رجل لزيارتها . واستضافتها سارة لمدة أسبوع .

ثم حدثتها كيف رفض مصطفى كال باشا الذهاب إلى المدينة واجلاء الجيوش التركية بشكل مسهب ومفصل . ثم تكلمت عن بعض الأمور المتعلقة بالالمان والأتراك وقالت بعدها :

ـ أما الآن فعندي لكما مهمة عليكما بتنفيذها ، عليكما تدمير كافة الطرق المؤدية إلى «المدينة» .

فضحك لورانس وقال :معك حق يا آنسة، ولكن الشريف حسين ليس راضياً عن هذا ، فهو يقول أن طرقهم تُخرب وخطوطهم الحديدية سوف تتعطل وهو لايريد أن تدمر هذه الخطوط ، فهي ملكهم .

ـ « يا لهم من حمقى هؤلاء الذين نتعامل معهم » .

فمن جانب لدينا ذو التفكير الغليظ الجنرال اللنبي ومن جانب آخر لدينا هؤلاء الجهلة الذين يهمهم أمر الخطوط الحديدية ونحن في حالة حرب .

هل رأيت يا لورانس تحت أية ظروف أعمل ؟

ـ لا تسأليني يا سارة ، أنا أيضاً أعيش في مثل ظروفكِ ، ولا أدري لمن أشتكي ، فإنني أجد صعوبة كبيرة في التفاهم مع الجنرال اللنبي والأمير فيصل ووالده الشريف حسين ، وإخوته عبد الله وعلي . ولكن ذهب الكثير وبقي القليل يا آنسة ، ولم نظهر بعد قوتنا الحقيقية .

ـ نعم سنظهر قوتنا الحقيقية ، وإلا لو تركنا الأمر بيد الجنرال اللنبي والشريف حسين لطالت الحرب سنين عديدة أُخرى .

سارة تعرف لورانس من زمن بعيد

كان لورانس قد زار سارة في زمّارين قبل نشوب الحرب بسنين وعمل

بصفة منقب عن الآثار وقام بحفريات بالجوار من مختبرها وهكذا تم التعارف بين سارة ولورانس وأهلها .

زد على ذلك أن لورانس من أصل موسوي ، والاثنان يعملان من أجل هدف واحد مشترك .

وسألته سارة بعد برهة :

ـ هل تم توقيع الاتفاق المبرم بين وايزمان والشريف حسين ؟

ـ نعم ، لقد جعلناهما يوقعان . ولكن أتدرين ما حصل ، لقد وقعت بدلاً عن الحكومة الانكليزية .

فضحك الاثنان معاً وقالت سارة ساخرة : لم تقل لي أنك أصبحت الآن تتكلم بإسم الحكومة الانكليزية وتعقد الاتفاقيات عنها ؟

ـ ماذا أفعل يا آنسة ، هؤلاء الانكليز صعب جداً التفاهم معهم .

فإلى أن أقنع القيادة الانكليزية بضرورة إرسال بعض البواريد وكيسين من الذهب إلى العرب ، أكون قد أصبت بالجنون . فهم لا يفهمونني ولا يثقون بي .

ـ وهل يثق بك العرب ؟

إن إقناع العرب أسهل بكثير من اقناع الانكليز . يكفي أن تحملي إليهم بعض الذهب وبعض الأسلحة ، لتحصلين على ثقتهم . غير أن الانكليز يجدون مشقة في دفع مصاريف للّذين يتعاونون معهم .

لورانس يعود محملاً بانباء ومعلومات جديدة

استفاد لورانس كثيراً من الوثيقة التي أعطيت له من قبل سارة ، والمهورة بخاتم جمال باشا . فقد استطاع أن يذهب فيها إلى شبه الجزيرة العربية ، حيث قابل الأمير فيصل وخرج من عنده وهو يحمل أملاً كبيراً ومعلومات كثيرة ، ثم انطلق نحو القاهرة ليعطي كل المعلومات التي جمعها

للإنكليز الذين أرسلوه مرة ثانية إلى الصحراء ليقابل الأمير فيصل من جديد.

عند وصول أنور باشا إلى المدينة ، قام الشعب بأكمله لاستقباله ، وشاركه رؤساء القبائل المجاورة لها . وأقيمت المراسم الرفيعة أمام مدخل قبر الرسول (ﷺ) ودخل أنور باشا بكل خشوع إلى غرفة القبر ولم يكن أحد برفقته سوى جمال باشا ، وجلس هناك يدعو ربه وسط تلك الأجواء الدينية.

وعند لقائه بفخر الدين باشا ، قائد المدينة ، طلب هذا الأخير من أنور باشا أن لا ينقله من المدينة وقال متوسلاً : إننا ، أنا وضباطي وجنودي لن نترك قبر سيدنا محمد (ﷺ) ونرحل ، أرجوكم أن تسمحوا لنا بالبقاء هنا ، فإننا سندافع عن المدينة حتى آخر رمق من حياتنا .

فالتفت أنور باشا إلى جمال باشا وسأله :

ـ ما رأيك يا باشا ؟

ـ يا سعادة الباشا ، أنا لايمكنني إطعامهم إلا إذا تعهدتم بإرسال الأرزاق والأموال اللازمة لهؤلاء ، فأنا عندها أشاطر فخر الدين باشا الرأي .

فكر أنور باشا ملياً ثم رد وقلبه مليء بالإيمان والحماس الديني وقال :

ـ معك حق يا باشا . لن أدع أحداً يقول إن الأتراك تخلوا عن قبر الرسول (ﷺ) وهربوا ، سوف أساعدكم حتى تدافعوا عن المدينة حتى آخرقطرة من دمائكم ، ولكن اعملوا على إرسال الأمانات المقدسة والشريف علي حيدر إلى استنبول في أسرع وقت ممكن أريد لسعادة الشريف الجديد أن يكون في مكان لائق .

فخر الدين باشا يبكي

فهمّ فخر الدين باشا ليقبل يدي أنور باشا وقال له وعيناه ممتلئتان بالدموع حفظكم الله لنا يا سعادة الباشا ، وليباركم الله .

وعاد جمال باشا وأنور باشا بالقطار نفسه إلى الشام. ولم تكن مظاهر الاستياء التي شاهداها معاً تثير الفرح في قلبيهما ، فالدفاع عن المدينة في وجه العرب ليس بالأمر السهل ، وخطوط الاتصال بمعظمها مقطوعة ، والجنود المقاتلون على الجبهة يعانون من الجوع والعطش والمرض ويحاربون الأعداء بشراسة ويستشهدون كل يوم ، ولكن من أجل ماذا يحاربون ؟ من أجل من ؟ لم يكن أحد يعرف جواباً لهذين السؤالين .

كان الجنود المسلمون ، على السواحل ، يقاتلون الانكليز من جهة والفرنسيين من جهة ثانية والعرب من جهة ثالثة . وأصبح كل جندي وكل مجموعة تحارب مستقلة عن الأخرى وكأن الأقدار هي التي ساقتهم لذلك ، وأصبح كل منهم يدافع عن نفسه وعن قدره المحتوم .



الفصل السابع

سارة تنتحر
في الحمّام بعد انكشاف أمرها

رغم كل ما حدث ، كان أنور باشا متفائلاً ، يرغب برفع معنويات جنوده . فأمر باعداد وترتيب احتفال كبير في القدس ، قدم في مستهله وسام « الفريق الأول » لجمال باشا وبهذه الالتفاتة من أنور باشا ، تكون المشاحنات القائمة بينه وبين جمال باشا قد زالت واندثرت .

وهل من فرصة أفضل من هذه الأيام الحرجة ، لتصفية مثل تلك الخلافات ، خاصة أنه لم يكن هناك أصلاً سبب لإبقائها .

ورافق جمال باشا ، أنور باشا إلى مكتبه حيث جلسا يتحدثان عن أيامهما الماضية التي ذاقا فيها طعم المرارة ، خاصة وأنهما كانا صديقين في صف واحد وخريجي مدرسة واحدة ، واشتركا معاً في حركة التمرد الأولى مع نيازي حيث اختبأا في الجبال ، وكان جمال باشا وقتها برتبة نقيب واستطاع أن يقدم لهما أكثر من مساعدة .

وعندما حقق أنور باشا حلمه وعاد بواسطة القطار إلى سلانيك كان جمال باشا في استقباله فبادره قائلاً :

ـ إنك اليوم مثل نابليون ...

ثم عمل جمال باشا مع أنور باشا، جنباً إلى جنب، وكانا الشخصيتين اللامعتين اللتين عملتا على إعلان حزب الاتحاد والترقي .

وبعد ذلك ، نال كل منهما ترفيعات متتالية ، غير أن أنور باشا كان دائماً في المقدمة ، يسبق جمال باشا في حصوله على الترفيعات والترقيات بعد أن أصبح صهراً للقصر .

وهذا ما يجعلنا نقول أنهما ، أي أنور باشا وجمال باشا، رفيقا درب، رغم وجود بعض الاختلافات في وجهات النظر بينهما ، وهكذا كانت الأمور .

فعندما نال أنور باشا رتبة القائد العام بدلاً عن رتبته كوكيل (نائب) للقائد العام ، ترفع جمال باشا أيضاً وأصبح قائداً عاماً للجيش الرابع وحاكاً على كافة الأراضي العربية . وكان لدعم القصر أثر هام في ترفيع أنور باشا إلى رتبة القائد العام للقوات زيادة عن جمال باشا .

وبعد أن رفّع أنور باشا نفسه لرتبة فريق أول ، ها هو اليوم ، وبكلتا يديه ، يضع وسام الفريق الأول على صدر صديقه جمال باشا ويمنحه تلك الرتبة العالية .

يا باشا . هؤلاء امانة في عنقكم

عندما غادر أنور باشا سوريا فإن جمال باشا ودعه بحفاوة بالغة لم تكن ظاهرة عند مجيئه بقصد التفتيش على أعمال جمال باشا وإقالته من منصبه ، ولكن بعد أن تصافت القلوب وكان تقرير التفتيش يشير إلى أن الوضع جيد وكل شيء يسير وفق الخطة المرسومة ثم أوصاه خيراً بأهل المنطقة وقال لجمال باشا : إني أضع بين يديك هؤلاء أمانة . ثم حضر مراسم الوداع العسكرية الرسمية ، بكل وقار وعظمة وودع كا استقبل به ، بحفاوة وتكريم .

حين كان جمال باشا يخطط لمعاركه وتحركاته على جبهات القتال كانت سارة أيضاً من ناحيتها تخطط وتتحرك لضرب جمال باشا وإفشال خططه الحربية وتكبيده الخسائر الفادحة .

وبدأت سارة تعمل في مركزها بزمارين ، بكل ارتياح وطمأنينة .

فلم يكن هناك ما تخشاه . إذ لم تكن أية دورية أو أي مأمور يجرؤ على الاقتراب من هذا المركز الذي تعمل فيه .

كانت سارة على يقين باقتراب موعد تحرك الجيوش الانكليزية، وسقوط القدس بأيديهم .

غير أن القيادة الانكليزية كانت تلح على طلب خطط معارك القوات الالمانية والتركية من سارة .

وكان الانكليز يريدون معرفة الاتجاه الذي ستنسحب منه القوات التركية وهي ترحل إلى الأناضول .

وكانت سارة ، بكل يسر وبكل ارتياح ، ترسل للانكليز المعلومات التي يطلبونها ، وتعلم الجنرال اللنبي بكل تلك الخطط والتحركات .

ومن ناحية أخرى ، كان أفراد جهاز الاستخبارات التركية والالمانية لايعرفون نهائياً إلى أي وضع قد استقرت عليه الأمور ، غير مكترثين بالخطر الكبير المتربص بهم . حتى أن بعض أفراد جهاز الاستخبارات هذا ، كانوا يقضون لياليهم بين أحضان الموسويات .

حدث هام

في إحدى الأيام جرت حادثة هامة . حين قدم عدنان شوقي بك ، أحد الضباط الأتراك التابعين للفرقة الثالثة والأربعين ، إلى الناصرة ، بمهمة رسمية استطبابية .

فمكث شهراً تقريباً في إحدى مستشفيات القدس، وأراد قضاء فترة

نقاهته في مدينة الناصرة . لقد كان عدنان شوقي ابن عائلة غنية ، وكان يملك أموالاً كثيرة، وفي تلك الأثناء، كان الناس يرغبون في اقتناء القطع الذهبية بدلاً من الأوراق النقدية . لذلك ، كان عدنان شوقي يرغب في تحويل الأموال التي كان يملكها من الأوراق النقدية إلى قطع ذهبية، وتعرف في الناصرة على شخص يدعى أحمد ذهني، وأعلمه برغبته هذه.

قال عدنان شوقي لأحمد ذهني سائلاً :

ـ يا أحمد ، أريد استبدال الأوراق النقدية بقطع ذهبية هل هذا ممكن يا ترى ؟

ـ يا سيدي ، إنني أعرف أحد المسيحيين يقوم بأعمال الصرافة ، كم تريدون أن أصرف لكم منه يا سيدي القائد .

ـ مئة وخمسون قطعة ذهبية .

ـ حسناً ، سأجهز لكم الأمر خلال ساعة تقريباً .

وبالفعل ، وبعد ساعة ، أحضر أحمد ذهني مئة وخمسين قطعة ذهبية لعدنان شوقي ، واستلم منه عدنان بك القطع الذهبية ، وأعطاه بدلاً عنها أوراقاً نقدية ، وانتهى الأمر بالنسبة لعدنان شوقي عند هذا الحد .

وعند المساء قام، بعد القطع النقدية تلك لاخفائها منعاً من سرقتها. فراح يضعها في كيس من قماش ليلفها حول خصره .

وهنا كانت المفاجأة !

كان بين تلك القطع الذهبية، قطعتان تلمعان لمعاناً مميزاً، كانتا قطعتي ذهب انكليزية ، كتب عليها تاريخ صكها ، عام ألف وتسعمائة وستة عشر .

ولما كان عدنان شوقي ضابطاً ذكياً ويقظاً، فقد بدأ يفكر كيف وصلت هذه القطع الذهبية الانكليزية إلى البلاد وخاصة إلى القدس ، فلقد بدأت الامبراطورية العثمانية الحرب عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر .

ومنذ ذلك التاريخ لم تبقَ أية علاقة مع الانكليز ولم تكن هناك أية

تجارة بينهما ، من ناحية آخرى ، فالسواحل كلها محاصرة ، وبناءً على هذا ، كيف إذاً دخلت هاتان القطعتان الذهبيتان الحديثتان إلى القدس ؟ سأل عدنان شوقي نفسه ، لابد من وجود أمر خلف هذا الموضوع ، ولكن ، لمن سيوجه سؤاله هذا ؟ فتبديل الأوراق النقدية بقطع ذهبية كان بحد ذاته أمراً مخالفاً يحاسب عليه .

هل سيواجه المسؤولين ويقول لهم أنه قام بعملية صرافة أو بورصة ؟

سيسألونه « ما حاجة ضابط شاب مثلك إلى مئة وخمسين قطعة ذهبية ؟ » . خاصة وأن البلاد في حالة حرب ، فماذا سيكون جوابه ؟

هل سيتمكن من اقناعهم بأن هذه الأموال أتت إليه من أهله ؟ بقي عدنان شوقي طوال الليل يفكر في هذا الأمر. ولم يستطع النوم قط ، وكان ضميره يؤنبه قائلاً له « حتى ولو كان عقابك الموت ، عليك إعلام رؤسائك بالأمر » .

شوقي بك يتوجه إلى قائده

توجه عدنان شوقي بك في الصباح الباكر من اليوم التالي ، إلى مركز القيادة العسكرية في الناصرة ، وكان الحاكم العسكري يدعى يونس حيدر بك واستقبل الحاكم العسكري الضابط الشاب قائلاً :

ـ تفضلوا يا عدنان شوقي بك !

فأخرج شوقي بك قطعتي الذهب الانكليزيتين من جيبه وقدمهما للحاكم العسكري يونس حيدر قائلاً له :

ـ هل تعتقدون أن قطعتي الذهب هاتين قد تكون ذات فائدة لكم يا سيدي ؟

وفهم يونس بك قصد عدنان شوقي . وأخذ قطعتي الذهب بيده ووضعهما على راحته وتمعن فيهما ، وفجأة أطلق صيحة تعجب وقال :

ـ يا عدنان بك ، تاريخ الصك يعود إلى عام ألف وتسعمائة وستة عشر، ترى من أين أتت هاتان القطعتان ؟

ـ شخص يدعى أحمد ذهني من أصل عربي قام بتصريفهما لي بواسطة أحد الصرافين الذين يعرفهم، لقد أرسلت إليه أحد جنودي ليقوم بالتصريف.

وعلى الفور ضغط يونس حيدر على كبسة الجرس ، وقال للضابط الذي أتى إليه ملبياً نداءه :

ـ اعثروا لي على المدعو أحمد ذهني واتوا به إلي .

وبعد بضعة دقائق ، كان أحمد ذهني واقفاً بين يدي يونس حيدر واستقبله يونس حيدر بكل لطف واحترام وقال له :

ـ يا أحمد ، لقد أمنت لعدنان بك قطعاً ذهبية من عند صرافك أرجوك ، يلزمني ألف قطعة ذهبية ، هل يمكنك تأمينها لي ؟

فتحمس أحمد وقال للحاكم :

طبعاً ، أجدها لكم يا سيدي الحاكم .

ـ حسناً ، كيف تحصل على هذه القطع الذهبية ؟

ـ من شخص يدعى حنا مرقص وهو صرّاف يا سيدي الحاكم .

ـ حسناً أحضر لي من عنده ألف قطعة ذهبية .

أسرع أحمد فرحاً ، فهو لم يصدق نفسه أنه يتعامل مع أحد أكبر ضباط الجيش وأنه سيسدي له خدمة كبيرة بتحويل أمواله من الأوراق النقدية . وأسرع أحمد إلى عند الصرّاف حنا وقال له : مسيو حنا حاكمنا العسكري يونس حيدر يريد شراء ألف قطعة ذهبية!

لم يندهش حنا كثيراً من الأمر ، إذ أن معظم القواد كانوا يحولون أموالهم في تلك الفترة ، من الأوراق النقدية إلى قطع ذهبية ، وتصريف مبلغ كهذا للحاكم العسكري أمر سره جداً .

ألف قطعة ذهبية يتم تسليمها

خلال بضع ساعات ، تمكن حنا الصرّاف من جمع ألف قطعة ذهبية .

قام بتسليمها ليونس حيدر . وأعطى الحاكم يونس حيدر له مقابل تلك القطع الذهبية الألف ، قيمتها بالأوراق النقدية .

وبعد ذهاب الصرّاف حنا ، أفرغ الحاكم العسكري يونس محتوى الكيس على طاولة مكتبه وبدأ يعاينها واحدة فواحدة ، غير أنه لم يجد أية قطعة ذهبية انكليزية بينها .

وفي اليوم التالي ، تم استدعاء حنا مرقص إلى مركز الحاكم العسكري وقادوه إلى غرفة مجاورة لمكتب الحاكم يونس وبعد أن مكث فيها حوالي الساعة حاول حنا الخروج من الغرفة غير أن عسكرياً اعترضه قائلاً له :

ـ لا يمكنك الخروج ، ابق مكانك ...

ورغم تصريحه بأنه يريد مقابلة الحاكم العسكري إلا أن العسكري منعه من الخروج واحتجزه داخل الغرفة فقال حنا للعسكري :

ـ كيف ذلك ، وقد دعاني الحاكم العسكري يونس حيدر إليه ، فأنا ضيفه .

ـ مهما كانت صفتك ، فإنه ممنوع عليك الخروج من الغرفة .

ـ هل هذا يعني أنني موقوف ؟

ـ أجل ...

وكانت هذه الكلمة بمثابة طعنة خنجر في قلب حنا . فراح يتساءل «ترى ماذا فعلت بحق الحاكم العسكري ؟» .

وعند المساء ، قابل يونس حيدر ، حنا الصرّاف .

أثناء ذلك ، كان يونس حيدر قد أرسل ضابطاً برفقة بعض الجنود إلى منزل حنا الصرّاف وقاموا بتفتيشه . غير انهم لم يعثروا على شيء ، حتى ولا إبرة .

قال يونس حيدر لحنا الصرّاف :

ـ هل تعرف ما هو ذنبك ؟

ـ كلا يا سيدي الحاكم ، ولكن إن كان لي ذنب فهو بيعي لكم القطع الذهبية .

فقال له يونس حيدر بك : كلا، كلا . فالأمر ليس كما تظن . أنا لم أوقفك لبيعك لي قطعاً ذهبية.

فضغط يونس حيدر على الزر وقال للعسكري :

ـ استدعوا لي عدنان شوقي إلى مكتبي ، ثم قال لحنا :

ـ لقد بعتَ قطعاً ذهبية مزيفة لصديقي هذا .

دُهش حنا لكلام الحاكم وقال :

أنا ؟ أنا ؟ قالها متأتئاً . وتابع يقول : سيدي الحاكم أنا حقاً أبيع قطعاً ذهبية ، فأنا لا أنكر ذلك . إلا أنني لا أبيع قطعاً ذهبية مزيفة .

وعلى أثر ذلك ، التفت يونس حيدر إلى شوقي وقال له :

ـ حسناً ، أره إذاً تلك القطع المزيفة يا عدنان بك .

فاخرج عدنان شوقي من جيبه قطعتي الذهب الانكليزيتين وقدمهما لحنّا.

ونظر حنا إلى القطعتين اللتين كانتا تلمعان لمعاناً ملفتاً ، ودقق فيهما ثم قال بسرور واضح :

ـ سيدي الحاكم ، هذه القطع ليست مزيفة .

ـ إنها مزيفة ، انظر جيداً .

ـ كلا إنها ليست مزيفة ، ولو كانت كذلك ، فأنا مستعد لأن تقطعوا رأسي .

ـ حسناً ، انظر إليها جيداً ، ...

أعاد النظر في القطعتين ملياً ، ولفت نظره التاريخ المكتوب عليهما

عام ألف وتسعمائة وستة عشر ، وفهم أن يونس حيدر ، يحقق معه لكون القطعتين تلك ، انكليزيتين ، وتاريخهما عام ألف وتسعمائة وستة عشر . فقال: الآن فهمت يا سيدي الحاكم .

ـ حسناً ، في تلك الحالة ، قل لنا إذاً أين وجدت هذه القطع ، ومن أين جلبتها ؟

ـ أريد أن أقول يا سيدي إنها الحاجة ...

ـ قل بسرعة ، وإلا حولتك إلى المحكمة العرفية وهناك تعرف ماذا ينتظرك .

ـ أقسم أنني لا علاقة لي بالأمر يا سيدي . كما أن الذي أعطاني هذه القطع لا علاقة له بمثل هذه الأمور ، إنه إنسان شريف ونزيه .

ـ من هو هذا الرجل ، قل بسرعة ، وإلاأمرت جنودي بجلدك .

ـ كنت أريد أن أقول، إنني أخذت هذه القطع من الأب اغناطيوس، ولا علاقة له على الاطلاق مع الانكليز ، سيدي الحاكم .

إحضار الأب اغناطيوس

لم يمضِ وقت طويل حتى استدعي الأب اغناطيوس لعند يونس حيدر. في بادىء الأمر ، أنكر الأب اغناطيوس الأمر وقال :

ـ لا أعلم يا سيدي ، فأنا لم أعط أحداً هذه القطع الذهبية .

ـ اغناطيوس أفندي ، أنت رجل دين مؤمن ، ألا تخجل من نفسك وأنت تكذب . إذا لم تقل لنا من أين أتيت بهذه القطع الذهبية ، فسوف أضطر لإرسالك إلى المحكمة العرفية .

كان الأب اغناطيوس يدرك ما معنى ارساله إلى المحكمة العرفية ، فهناك ، إما أن يحكم المرء بالإعدام بعد تحقيق صوري معه ، أو ينفونه إلى الأناضول . وعلى ضوء ذلك قال ليونس حيدر .

ـ سيدي ، حسب ما أذكر فإن هذه القطع الذهبية قد وصلت الي من السيدين يوسف الأسعد ، وحنا المهيري ، اللذين قدما لي قطعاً ذهبية لمساعدتي . في بناءالكنيسة وأنا بدوري قمت بتبديل هذه القطع الذهبية عند الصرّاف حنا بأوراق نقدية . وأنا أعرف هذين الرجلين منذ زمن بعيد . ولا يمكن أن يكونا جاسوسين ، ولقد دخلا البلاد بطريقة مشروعة .

القبض على يوسف الاسعد وحنا المهيري

وعلى الفور أرسل يونس حيدر دورية للقبض على يوسف الأسعد وحنا المهيري وجلبهما إليه، وبعد أقل من ساعة كان يوسف وحنا يقفان أمام يونس حيدر .

وبدأ يونس حيدر مباشرة التحقيق معهما .

ـ من أين أتيتما بهذه القطع الذهبية ؟

ـ إذا وعدتنا بعدم ارسالنا إلى المحكمة العرفية ، فإننا مستعدان لأن نقول لكم كل شيء وأن نعترف لكم بكل ما حدث .

ـ إن لم تخفيا عني أي شيء ، ووعدتماني بأن تعترفا بكل ما حدث ، أقسم بشرفي بأنني سوف أطلق سراحكما . وفي حال أخفيتما عني كلمة واحدة فإنني سوف أعدمكما .

ـ سوف نعترف لكم بكل حقيقة الأمر ، وكما حصلت الأمور بدقّة .

ـ قولا إذاً ما عندكما .

ـ سيدي ، نحن ، وقبل نشوب الحرب ، رحلنا إلى مصر للعمل هناك . ولكن وبعد فترة قصيرة بدأت الحرب واضطررنا للبقاء هناك.

وكيف قدمتما إلى هنا ؟

ـ لقد أوصلتنا غواصة بحرية إلى شواطىء عتليت .

ـ من أين ركبتما هذه الغواصة ؟

ـ من بور سعيد وعلى بعد ثلاثة أميال من شواطىء عتليت تركنا هذه الغواصة ، بعد أن طفت على وجه الماء، وساعدنا ضابط انكليزي في الصعود على ظهرها بواسطة سلم متدلٍ منها

هل كان هناك أحد بانتظار هذا الضابط على شواطىء عتليت ؟

ـ نعم يا سيدي ، كان هناك شخصان بانتظاره، أعطياه حقيبة مملوءة بالأوراق ، وبمجرد استلامه لهذه الحقيبة ، غادر الضابط الانكليزي الشاطىء.

ـ هل تأتي هذه الغواصة غالباً إلى شواطىء عتليت ؟

ـ إنها تأتي مرتين في الشهر وتقترب من شواطىء زمارين عتليت حسب ما سمعنا . فهي صلة الوصل بين الجواسيس الذين يعملون هنا والقيادة العسكرية الانكليزية .

ـ ما هو هدف إرسالكما إلى هنا ، وكيف التقى بكما أولئك الانكليز ؟

ـ في بادىء الأمر، كنا نرغب في القدوم ولكن عندما علمنا بالأوضاع المتردية هنا ، من جوع وفقر ، قررنا البقاء مدة اضافية .

فنحن عائلة كبيرة، ولو ذهبنا إلى القدس فإننا لن نتمكن من العيش باطمئنان ولكن بعد فترة، سمعنا أن الحكومة قررت إرسال المواطنين من أصل عربي إلى الجبهات للقتال ضد القوات العثمانية . وعلى أثر هذا راجعنا المسؤولين الانكليز في مصر ، وعرضنا عليهم العمل لصالحهم في منطقة فلسطين . وهكذا أرسلونا إلى الناصرة ، بلدتنا ومسقط رأسنا .

ـ وما هي الأمور التي طلبوا منكما أن تنفذوها ؟

ـ أول تلك الأمور ، توطيد الصداقة بين العرب الذين يمثلهم الشريف حسين والانكليز في مواجهة العثمانيين .

فكان علينا إقناع العرب بأن تعاونهم مع الانكليز سيخلصهم من الحكم العثماني ، وأنه ، عند انتهاء هذه الحرب ، ستقوم دولة عربية كبيرة

مستقلة . كان علينا إفهام هذا الأمر لسكان القرى وكافة المناطق في فلسطين.

الأمر الثاني ، حث الضباط والجنود المتواجدين على جبهات القتال في فلسطين على الفرار وترك سلاحهم .

الأمر الثالث ، توزيع المنشورات التي يرسلها الانكليز من مصر في فلسطين ، وفي هذا الصدد ، سيقوم الجواسيس العاملون هنا لحساب الانكليز بمراقبتنا ومراقبة حسن تنفيذنا لهذه الأوامر ، وتوزيعنا لهذه المنشورات وارسال تقارير عنا إلى القيادة العسكرية الانكليزية .

أما الأمر الرابع والأخير، كان علينا تجميع كافة المعلومات العسكرية والسياسية ووضعها تحت إمرة وتصرف القوات الانكليزية .

ـ منذ متى أتيتما ؟

ـ لقد مضى عشرون يوماً على قدومنا .

ـ وهل زاركما أحد ؟

كلا ، ولكن منذ يومين ، وُضع تحت باب بيتنا منشورات مع بطاقة كُتب عليها ، « وزعوا هذه المنشورات على أصدقائكم »

ـ وهل وزعتم تلك المنشورات ؟

ـ كلا لم نوزعها قط .

وطلب يونس حيدر إحضار تلك المنشورات ودقق في محتواها ، فكانت هذه المنشورات الموقعة بإمضاء الشريف الحسين تطلب من العرب القيام بالعصيان بوجه العثمانيين ومساعدة الانكليز .

يونس حيدر على علم بكل شيء

علم يونس حيدر الآن بكل شيء ، وإثر ذلك أطلق سراح حنا الصرّاف والأب اغناطيوس وحنا المهيري ويوسف الأسعد دون قيد أو شرط .

لقد كان لقطعتي الذهب اللتين قدمتا للكنيسة بشكل هبة بمثابة رأس الخيط للكشف عن أشياء حيوية ومهمة وخاصة بالنسبة لحياة المقاتلين

العثمانيين المتواجدين على جبهات القتال في فلسطين .

وتوجه يونس حيدر حاكم الناصرة إلى القدس ليطلع متصرف القدس مدحت بك على الأوضاع المستجدة .

وفي الوقت نفسه ، كان مدحت بك بمعاونة جمال باشا المرسيني وتنفيذاً لأوامر القائد العام علي فؤاد ، قد بدأ حملة تفتيش ومراقبة مدعوماً بفرقة من المخبرين بلغ عددهم أربعين مخبراً .

كانت هذه الفرقة حديثة العهد . لذلك ، طلب مدحت بك من مدير الأمن عارف ابراهيم التعاون معه واستدعاه إلى مكتبه وأخبره بما علمه من يونس حيدر .

فقال عارف ابراهيم بك لمدحت بك :

ـ يا سعادة المتصرف ، يجب أن نتعاون مع يونس حيدر .

فقال يونس حيدر : بكل ممنونية نحن كجنود سنقوم بمساعدتكم بقدر المستطاع فنحن من جهة وأنتم من جهة سنضع كل مناطق فلسطين تحت المراقبة .

وعند إبلاغ القائد العام علي فؤاد بمجريات الأحداث ، توجه هذا الأخير فوراً من الشام إلى القدس ليتولى بنفسه قيادة التحقيقات اللازمة .

كما عقد المجلس العسكري والأمني اجتماعاً قرر فيه إلقاء القبض على الجنود الفارين وتوقيف المشتبه بهم ، ومراقبة السواحل والتحقق من صحة قدوم الغواصة الانكليزية مرتين في الشهر إلى الشواطىء الفلسطينية، ومن هم الأشخاص الذين يتم الاتصال بهم .

وبينما يقوم يونس حيدر بمهمة مراقبة هذه السواحل في منطقة الناصرة، كان على عارف ابراهيم القيام بالمهمة ذاتها في منطقة زمارين وعتليت .

وباقتراب موعد قدوم الغواصة الانكليزية ، لم يكن هناك ما يثير

الشبهة ، كما رأى عارف حكمت بك ، فلقد كانت الترتيبات والتحضيرات قائمة في منزل سارة لإقامة حفل ساهر كبير . وكانت المنطقة مزدحمة بالفتيات الحسناوات ، ومؤن الخمر والمأكولات تصل تباعاً إلى المنزل ، وكأن هناك حفل زفاف سيقام . وأثناء قيامه بالتجول على شواطىء عتليت لم يلحظ عارف ابراهيم وجود أي جندي ، وقام عارف ابراهيم باتخاذ كافة التدابير اللازمة لمراقبة سواحل عتليت .

وبعد يومين لوحظ قدوم ضباط السواحل ومعاونوهم وبعض المسؤولين في عتليت إلى منزل سارة . وكان عارف ابراهيم يتوقع وصول الغواصة في تلك الليلة . وهكذا ، وضع منزل سارة تحت المراقبة السرية .

فقد أقامت سارة في تلك الليلة ، سهرة رومانية[1] دعت إليها كل ضباط ومسؤولي المنطقة .

وكانت الفتيات الموسويات تترامين في أحضان الضباط ، وكل الحاضرين في حالة السكر الشديد وفقدان وعي .

ولفت هذا الأمر انتباه عارف بك . فتربص برفقة بعض ضباطه في أعلى التل وراحو يراقبون منزل سارة .

وعند منتصف الليل ، خرجت سارة برفقة شاب وتوجهت إلى الشاطىء . وغابت قرابة الساعة ثم عادت إلى المنزل .

هل سارة جاسوسة ؟

بدأت شكوك عارف بك تحوم حول سارة . ترى هل سارة جاسوسة كبيرة ؟ ولكنه لم يجرؤ على التحدث في هذا الأمر مع أحد . كما أنه لم يتأكد

---

(١) لأن الذين حضروها هم يهود من أصل روماني . وفي الحقيقة ، جاء المهاجرون الذين أقاموا مستعمرتين : عتليت و (زخرون يعقوب) ـ زمّارين ، الواقعتين جنوبي حيفا ، من رومانية .

من وصول الغواصة الانكليزية إلى شاطىء عتليت .

وعند الصباح قدم رئيس الدرك عثمان أفندي وأعلم عارف بك بقدوم الغواصة الانكليزية في تلك الليلة ، وأنها أعطت اشارات إلى الشاطىء.

عندها فكر عارف بك وقال في نفسه : « إذاً سارة دعت كل الضباط والمسؤولين في المنطقة وجعلتهم يسكرون ثم خرجت في منتصف الليل لملاقاة الغواصة والاتصال بها » ، وهكذا ثبتت شكوك عارف بك حول سارة ، فوضع منزلها ومختبرها ومصنع النبيذ الذي يملكه أهلها تحت المراقبة.

وعاد عارف بك إلى القدس للاجتماع مع مدحت بك متصرف المدينة. ولم يستطع عارف بك اخبار مدحت بك بشكوكه حول سارة، فقد كان يعلم أنها صديقة حميمة لجمال باشا .

الجاسوس ليتسانيسكي يزور منزل سارة

كيف سيتمكن عارف بك من أن يعلم مدحت بك بشكوكه تلك حول سارة . وليس لديه أية وثيقة وأي دليل يثبت صحة شكوكه .

فقال عارف بك للمتصرف مدحت بك :

ـ سيدي مدحت بك ، أرجو أن تسمحوا لي بإعداد مفرزة من الجنود ، وبدء حملة تفتيش عامة في المنطقة ، لقد ثبت وصول الغواصة الانكليزية مرتين كل شهر إلى الشاطىء، وهذا ما يثبت ارتباط الانكليز ببعض الأشخاص المتواجدين في هذه المنطقة . لذلك أرجو أن تسمحوا لي بالقيام بحملة تفتيش عامة في المنطقة .

ـ حسناً حسناً يا عارف بك ، مرحى لك . سوف أقوم بالاتصال بيونس حيدر بك، لإرسال مفرزة من قواته في الناصرة لوضعها تحت امرتك .

سُرَّ عارف بك لهذا الوضع ، وانطلق بحملته بادئاً بمنزل ومختبر سارة . فأحاط بالجنود كل منطقة عتليت وبدأ بالتفتيش العام .

ودام هذا الحصار عشر ساعات ، راقب أثناءها القادمين والمغادرين من منزل سارة دون التجرؤ على الدخول إليه وتفتيشه .

ولفت انتباه عارف بك ، أحد القادمين إلى منزل سارة كان هذا القادم هو الجاسوس ليتسانيسكي الشهير ، برفقة خمسة رجال بزيارة سارة ، وبعد مضي ساعة تقريباً غادرها ثانية .

وكانت سارة متوترة الأعصاب ومضطربة ، وهي تلاحظ اشتداد الحصار والتفافه حول منزلها يوماً بعد يوم، ولكنها لم تكن خائفة أبداً . كانت على يقين وثقة بأن لاأحد يجرؤ على اجتياز عتبة منزل حبيبة جمال باشا ، وحتى لو حصل ذلك ، فإنهم لن يجدوا شيئاً . لقد أخفت سارة كل ما لديها ودمرته .

وعند زيارته لها قال ليتسانيسكي منبهاً :

ـ يا آنسة ، عليك بالفرار ، فقد يتمكنون من القبض عليكِ .

ـ لا تقلقوا بشأني ، فلا أحد من الأتراك يجرؤ على الاقتراب مني . أعلموا القيادة بالوضع الراهن في المنطقة وبلغوها بإلغاء رحلات الغواصة إلى هنا ، سوف نقوم بترتيب قناة اتصال أخرى .

ـ لاتقلقي يا آنسة سارة ، فلدى القيادة عدة أقنية للاتصال معكم ، إننا قلقون على وضعكِ الراهن ، ليس إلاّ ونريد تأمين سلامتكِ .

سُرّت سارة لهذا الأمر ، ولكنها لم تشأ مغادرة منزلها، وقررت الذهاب إلى الشام لعند جمال باشا.

وبدأت بتحضير أمتعتها استعداداً للرحيل إلى الشام ، فأعدّت حقيبتها واتصلت بمركز الدرك في عتليت لتحصل على موافقة جمال باشا في التوجه إليه .

ووصلت برقية من جمال باشا مفادها: يرجى تأمين سفر الآنسة سارة إلى الشام واتخاذ التدابير اللازمة لسفرها ، وتقديم المساعدة لها .

لم يستطع عارف بك مواجهة سارة ، ولم يشأ إرباكها ، وكان يدعي قيامه بمهمة عسكرية في المنطقة تبريراً لتصرفاته ، ولكن ، عندما لاحظ عارف بك أن سارة تقوم باعداد نفسها للسفر والهرب لعند الباشا ، جن جنونه ، وبينما هو يفكر حائراً في أمره ، وكيف سيتمكن من منع سارة من السفر ، قدم إليه أحد جنوده حاملاً بيده حماماً زاجلاً مقتولاً :

ـ سيدي ، لقد اصطدت هذا الحمام بعد أن شاهدته يطير من سطح مختبر سارة آرونسون ووجدت في قدمه رسالة مشفرة مربوطة فيه .

فأخذ عارف بك الرسالة ، وفتحها وحاول قراءتها ولكنه لم يفهم منها شيئاً .

ـ كيف حصل هذا ؟

سيدي، بعد وصولنا إلى هذه المنطقة لاحظنا طيران حمامتين كل يوم من جهة الشاطىء إلى منزل سارة . وبعد ذلك لاحظنا أن حمامات أخرى كانت ترسل إلى الشاطىء ثانية وفكرت ، لعل هذه الطيور قناة اتصال بين مجموعتين من الناس ، فاصطدت أحدها للتأكد من صحة شكوكي ، وكما تشاهدون سيدي فهذه الطيور تحمل رسائل سرية بين جهتين تقومان بالاتصال فيما بينهما . ولقد أكد لنا المركز أن مصنع الخمور الذي تأوي إليه هذه الطيور عائد لسارة آرونسون .

وعلى الفور ، قام عارف بك بإبلاغ القيادة العسكرية في القدس بالأمر واتصل بالمتصرف مدحت بك وأبلغه الأمر بحذافيره .

فقال عارف : سيدي مدحت بك ، سأقتحم منزل سارة آرونسون .

فقال له مدحت بك :

ـ هل جرى لعقلك شيء يا عارف بك ؟ هل جُننت ، ألا تعرف من تكون سارة آرونسون هذه ؟

ـ أعرف يا سيدي أجاب عارف بك ، ولكن للأسف فإن كل الدلائل

تشير إلى منزل سارة آرونسون والأدلة كلها تحوم حولها .

لقد اصطدنا اليوم حماماً زاجلاً قادماً إلى مختبرها وفي قدمه رسالة سرية ، ثم شرح لمدحت بك ملابسات الموضوع وسير التحقيقات في المنطقة ثم أضاف يقول :

ـ والآن ، ها هي تهرب إلى جمال باشا ، يا سيدي ، فإنها سوف ترحل اليوم أو غداً إلى الشام .

ـ فقال له مدحت بك :عارف بك ... عارف بك ... لا تؤاخذني فيما سأقوله لك ولكن أنا لا أقحم نفسي في هذا الأمر . فأنا لا أستطيع أن أعطيك أي تصريح ولا أي أمر بتوقيف أو اقتحام منزل سارة آرونسون ، أرجوكم ، انقلوا نشاطكم إلى مكان آخر غير منزل سارة .

لايمكن أن تكون سارة جاسوسة مطلقاً . وحتى لو كانت فإننا لا نستطيع كشف ذلك ولا نجرؤ على إعلانه ، إن هذا الأمر شائك جداً . فأنا لا أريد التعرض لغضب جمال باشا .

من ناحية أخرى ، علينا مناقشة هذا الموضوع بروية مع علي فؤاد باشا . لنرى رأيه في هذا الأمر . وبعد ذلك نقوم بتفتيش منزل سارة آرونسون.

فرد عليه عارف بك بحزم وعصبية :

ـ سيدي المتصرف ، لما كنتم تثقون بي فقد منحتموني مركزي ورتبتي العسكرية هذه ، والآن أرى أنني لست أهلاً لهذه الثقة ، لذلك أرجو قبول استقالتي . فلو كان جمال باشا وطنياً حقاً ، فلن يتوانى عن إعدام الخائن ولو كانت والدته .

فأنا لا أرى أي مبرر لحماية فتاة موسوية جاسوسة تخرب بلادنا .

ففكر مدحت بك قليلاً ، ثم قال وهو يضرب يده على طاولة مكتبه :

حسناً يا عارف بك ، إني أصرح لك بما تريد ، ولكن فلتعلم أنك

وحدك تتحمل كل المسؤولية . ففي حالة حدوث أي شيء فأنا لا أعرف شيئاً ولست على علم بشيء ! هل هذا مفهوم !

فأسرع عارف بك ، تكاد عيناه تدمعان ، وانكب على يد مدحت بك ليقبلها ، ثم قال :

ـ سلمك الله يا سيدي ، فأنا أتحمل كل المسؤولية سأقوم بتطهير هذه البلاد من هؤلاء الجواسيس الموسويين وسوف أقودهم إلى جمال باشا .

مدحت بك يبحث عن علي فؤاد بك

عاد عارف بك بسرعة إلى عتليت واتصل بالمتصرف مدحت بك الذي كان قد اتصل هاتفياً بعلي فؤاد بك وأعلمه بمجريات الأوضاع، وتلقى عارف بك من مدحت بك آخر التعليمات حول الأمر . ولأهمية الموضوع اتجه علي فؤاد بك مباشرة إلى عتليت دون تأخير .

كما اتصل المتصرف مدحت بك بجمال باشا المرسيني ويونس حيدر وياسين بك وأعلمهم بالأمر .

وفي تلك الأثناء، تحركت إلى عتليت قوة عسكرية من الجيش الرابع.

معمل الخمور يتم اقتحامه

في تلك الليلة وخلال اقتحام معمل الخمور ، تم العثور على جهاز لاسلكي كان مخبأً تحت التراب . في حين كانت سارة تنام نوماً هنياً وهادئاً . فاعتقل عارف بك العاملين في المعمل ، واحداً واحداً .

وفي الصباح الباكر ، كان عارف بك قد اعتقل الجميع ولم يبق سوى سارة آرونسون .

وفي تلك الأثناء كانت الأمور قد وضحت أمام أعين علي فؤاد بك والمتصرف مدحت بك ، وكان لابد من القيام بالخطوة التالية : اعتقال سارة

فالمسألة أصبحت واضحة وانكشفت كل الأمور .

فقام عارف بك بشرح الموقف للباشاوات مطولاً ، وتقرر إحضار سارة إلى المركز لاستجوابها على الأقل ، فتوجه علي فؤاد باشا برفقة ابراهيم بك ، وعشرين من عناصر الدرك إلى منزل سارة ، التي كانت مشغولة بحديقتها ، تنسق الزهور وترتبها . فأعلموها بضرورة مرافقتهم إلى مركز الدرك بناءً على أوامر علي فؤاد .

فقالت سارة : لا يليق بالباشا أن أذهب إليه هكذا ، فإن سمحتم لي ، سأرتدي ملابسي الرسمية وبعدها سنذهب إليه .

فأبلغ الملازم الخبر إلى علي فؤاد باشا ، الذي رد قائلاً : دعوها ترتب نفسها وتأتي إليّ بعد ذلك .

وصعدت سارة إلى غرفتها بخطى ثقيلة وهمت بالدخول إلى غرفة نومها ، ولكن الملازم ابراهيم بك أسرع ودخل معها إلى الغرفة .

فقالت : سيدي الملازم، إن الأتراك أناس ذوو شرف وتعليمات دينكم تمنعكم من دخول غرفة إمرأة تنزع ثيابها أم أنني مخطئة ؟

ـ إنني أؤدي واجبي يا آنسة ، لا تنسِ ذلك .

فنظرت إليه نظرة ازدراء . وقالت :

ـ هل تعلم أن جمال باشا مولع بي يا سيدي الملازم ؟

ـ نعم أعلم ذلك .

ـ وتعلم أني استطيع أن أجعلك غنياً ، وأستطيع أن أُرقيك وأستطيع أن أؤمن لك مركزاً في الداخل ، بعيداً عن الجبهة ، أليس كذلك ؟

ـ كنتِ تستطيعين ذلك يا آنسة ، أما الآن فلا أعتقد أن ذلك ممكناً .

ـ حسناً ، ما رأيك لو أعطيتك ألف دولار ، فهل تطلق سراحي ؟

ـ إن منزلك محاصر يا آنسة سارة ، حتى لو أطلقت سراحك وجعلتك تفرين ، إلى أين تعتقدين أنه يمكنك الذهاب ؟

ـ مـا عليـك، أطلـق سراحـي ودع البـاقي لي، استطيـع أن أتـدبر أمري بنفسي .

ـ لايمكنني أن أفعل ذلك يا آنسة .

ـ حسناً ، ألا ترغب في مضاجعتي ولو للمرة الأخيرة ، فأنا أرغب في مضاجعة شاب وسيم مثلك .

ـ لقد تكلمت كثيراً يا آنسة ، أرجوكِ ارتدي ملابسكِ فالباشاوات جميعاً بانتظارك .

ـ من هم الذين قمتم باعتقالهم ؟

ـ لم يبق سواكِ يا آنسة سارة . إنكن خائنات للوطن .

ـ كلا يا ملازم ، أنا لست خائنة للوطن ، بالعكس ، أنا ناضلت من أجل وطني وقمت بالتجسس لصالحه .

ـ في تلك الحالة أنتِ تعترفين بذنبكِ .

ـ طبعاً ، لايهمك الأمر ، إن كنتُ أعترف لك بذلك ، سوف أرافقك الآن ولكن كما قلت لك ، لقد أعجبتني ، وكنت أريد أن ...

ـ أرجو ان لا تنكري ما قلته لي الآن في مركز الدرك .

ـ لا ، لا ... لا يهمك الأمر لقد عملت بالتعاون مع أخي الكسي وآهارون مع الانكليز لكي نحصل مقابل ذلك على وطن للموسويين في فلسطين. إنما كنت أريد أن أُذكركم أن أخواتي ريبيكا وسام ليس لهما علاقة بعملنا هذا وهما خارج هذا الموضوع .

ـ تستطيعين قول هذا أمام المحكمة يا آنسة سارة .

ـ حسناً ، سوف نفعل ذلك .

صمتت سارة طويلاً وقامت بتجميل وجهها ووضعت أحمر الشفاه على شفتيها ثم قالت : أريد أن أظهر أمام الباشاوات بمظهر جذّاب ولائق .

وبعد أن ارتدت كل ملابسها توجهت إلى باب الغرفة لكنها وقفت

ثم تراجعت إلى داخل الغرفة وفتحت أحد الأدراج فأخذت منه قطعة قطن وقالت للملازم :

ـ أرجو أن تسمحوا لي بالدخول إلى الحمام قليلاً .

ـ حسناً .

عند قدوم الباشاوات . كانت سارة قد ماتت

بعد مضي دقيقتين ، سمع صوت طلق ناري قادم من الحمّام فاندهش الجنود والضباط الذين كانوا ينتظرون في الخارج حول الحديقة وتوجهوا إلى مصدر صوت الطلقة ، فوجدوا سارة ملقاة على الأرض وسط بركة من الدماء ، حمل الجنود سارة إلى غرفتها وذهب أحدهم ليخبر الباشاوات بما حدث .

وعند قدوم فؤاد علي باشا وباقي المسؤولين ، كانت سارة قد فارقت الحياة منذ وقت طويل ، وحزن جمال باشا المرسيني وعلي فؤاد باشا لما حدث.

وعادا إلى القدس ، وهما يتساءلان هل هذا أمر ممكن ؟ سارة ، التي كانت كل ليلة تنام في أحضان جمال باشا ، سارة التي كان يحترمها كل الباشاوات ويقبلون يدها ، جاسوسة انكليزية ؟

وفوق ذلك ، كانت تعمل على انشاء دولة موسوية على أرض فلسطين بالتعاون مع أجهزة الاستخبارات الانكليزية وترأس شبكة تجسس كبرى ؟

كانت سارة تعلم الكثير. كانت على علم بكل تحركات جمال باشا، وتطلع على كافة خططه الحربية ، وتنقل إلى القيادة الانكليزية المعلومات يوماً بعد يوم ، وكانت وراء تسرب خطط حملة القناة الأولى ، ومعارك الجبهات المختلفة.

فقال علي فؤاد باشا لجمال باشا المرسيني :

ـ سعادة الباشا ، لقد منينا بضربة موجعة .

ـ لم تكن معرفة الأمر ، شيئاً صعباً .

لقد أشرت إلى خطورة تواجد تلك الموسويات في القدس ، غير أن جمال باشا كان يتذرع بأنه لا يريد أن يشردهن رغم أنني رجوته في إرسالهن إلى الشام.

ـ كنت أنا أيضاً مقتنعاً بذلك يا باشا .

ـ علينا إبلاغ جمال باشا بالأمر .

ـ نعم ، علينا إبلاغ جمال باشا بالأمر . ولكن علينا أولاً إعلامه بما حدث لسارة ، فكيف سيمكننا ذلك ؟ هل سيتقبل جمال باشا حقيقة أنها كانت جاسوسة انكليزية ؟

هل تريد أن نقول له إن الملازم ابراهيم بك هو الذي قتل سارة ، أو إن أجهزة الأمن في القدس قد نفذت هذا الحادث بناءً على أوامر عارف ابراهيم بك وعندها سيقوم الباشا بإعدامه .

ـ كلا يا باشا ، هذا أمر لا يمكن تحقيقه ، لم يجن بعد جمال باشا على كل حال علينا أن نمسك بيدنا كل الأدلة الثابتة ، بناءً على ما قمت به من تحقيقات فإني سأقوم بابلاغ جمال باشا بنفسي.

ـ ماذا لو أبلغناه بالأمر بالهاتف.

ـ كلا ، إن ذلك سيسبب له ارتباكاً وقد يدفعه إلى اتخاذ قرارات مفاجأة خاطئة ، سأقوم بإبلاغه بنفسي عند ذهابي إليه في الشام .

ـ حسناً يا سعادة الباشا . وفي تلك الأثناء سأقوم بتوجيه تقرير حول ما حدث إلى القيادة العسكرية وسوف آمر بنقل كل الموسويين المتواجدين هنا ، إلى الشام .

ـ أجل ، أوافقك الرأي .

ـ سوف اتصل بحاكم الشام خلوصي بك ، وأرجوه أن يجهز أماكن للموسويين المبعدين من هنا إلى الشام .

وأنتم قدّموا تعازيّ لجمال باشا يا سعادة الباشا .

ـ كما تشاؤون يا سعادة الباشا .

كيف سيتمكن من إخبار الباشا الكبير بما حدث لسارة

تاركاً جمال باشا المرسيني في القدس ، توجه فؤاد علي باشا إلى الشام والحزن يملؤ قلبه ، وكان طوال الطريق يفكر كيف سيجد طريقة لإخبار جمال باشا بما حدث لسارة .

وفي الصباح الباكر ، وعند دخوله إلى فندق قصر الشام كان قلب فؤاد علي بك يخفق خوفاً وهلعاً من قرب مقابلته لجمال باشا ، وكان تفكيره محصوراً في : هل سيبدي جمال باشا أسفه لما حدث ؟

أخذ فؤاد علي باشا الملفات ودخل مكتب جمال باشا .

كان الباشا الكبير جالساً خلف مكتبه يلهو بخنجر صغير في يده ويقلبه يمنة ويساراً دون توقف . وعند رؤية علي فؤاد باشا نهض قليلاً من مقعده ثم جلس وقال :

ـ تعال يا سيدي الباشا ، تفضلوا بالجلوس من فضلكم ، فجلس فؤاد علي باشا على أحد المقاعد وسأله جمال باشا كيف حالك؟

ـ بصحة جيدة . اشكركم يا سيدي .

وهز جمال باشا رأسه وسأل فؤاد علي باشا وصوته يخفي بعض الألم :

قل لي ، كيف حدث ذلك . هل تؤمنون وهل تصدقون أن سارة كانت جاسوسة ؟.

كان علي فؤاد باشا حائراً لسماعه هذه الكلمات . ذلك يعني أن جمال باشا على علم بما حدث . فأجابه قائلاً :

ـ مع الأسف ، الأمر حقيقي .

لقد أجريت التحقيقات بنفسي . سارة جاسوسة فوق ما نتصور ، وأكثر مما توقعناه . لا أعرف من أبلغكم بالأمر ، وكيف وصف لكم الحادث .

ـ لقد أجريت اتصالاً بالقدس ، وتحدثت إلى متصرف القدس مدحت بك حول الأوضاع الراهنة هناك ، فأبلغني بما حدث .

قال إن سارة انتحرت ولاعطائك المزيد من التفاصيل حول الحادث توجه إليكم علي فؤاد باشا لشرح ملابسات الموضوع .

ـ أجل ، لقد فهمت يا سيدي .

ـ حسناً ، ماذا ترون أن نفعل ؟

ـ إذا سمح الباشا ، فسآمر باخلاء جميع الموسويين من مدينة القدس وارسالهم إلى الشام .

ـ ولكن ماذا ستكون ردود الفعل العالمية تجاه هذا القرار .

ـ إن أمن بلادنا أهم من ردود الفعل العالمية ، يا سعادة الباشا . إن الأحداث التي مرت منذ شهرين ، وأعمال التجسس التي واجهناها في بلادنا من قبل الموسويين قد سببت لدولتنا خسائر كبيرة .

علاوة على ذلك فالموسويون كانوا يخططون لبناء دولة لهم على أراضينا في فلسطين بعد اجلائنا عنها : لقد كان هناك اتفاق قائم بينهم وبين الانكليز بهذا الصدد .

أعدكم بعدم اعدامهم

ـ إذاً فالصهيونية كشرت عن أنيابها !

ـ إن هذا قرارٌ تم اتخاذه في الماضي وليس قراراً جديداً ، والاتفاق المبرم بين الموسويين والانكليز أمر واقع وحقيقي مثله مثل الاتفاق المبرم بين الشريف حسين والانكليز حول انشاء دولة عربية كبرى .

وأثناء حديثهما ، رن جرس الهاتف فتكلم جمال باشا وقال :

آلو نعم ، أنا قائد الجيش الرابع جمال باشا .

وسمع صوت خافت على الجانب الآخر من سماعة الهاتف .

وأنصت جمال باشا إلى المتكلم ثم قال :

ـ حسناً ، أعدكم بأنني لن أعدمهم بشرط أن يعترفوا بكامل الحقيقة .

وبمجرد أخذ افاداتهم أرجو ابلاغي ذلك .

أغلق الباشا الهاتف والتفت إلى علي فؤاد باشا قائلاً :

ـ كان المتحدث ، قائد منطقة يافا . لقد تم اعتقال جاسوسين صرحا بأنني إذا وعدت بالعفو عنهما فسوف يعترفان بالحقيقة الكاملة . ولقد أعطيتهما الأمان لنرى ما سيدليان لنا من معلومات .

ـ ولكني لا أفهم يا سعادة الباشا ، ماذا تفعل أجهزة استخباراتنا . فئات النسوة تندس في قيادتنا ، ولا أحد يتعرف على هوياتهنّ ، ولا أحد يعلم إن كنّ جاسوسات أم لا ، والعديد من قطاراتنا تنقلب بالمئات من الناس ، ويهيئون خطة لاغتيالي ، والفارون حدث ولا حرج ، والاهانات والخيانات تتوالى الواحدة تلو الأخرى ، ونحن واقفون دون حراك ، ولدينا أجهزة استخبارات تعمل لدينا . هؤلاء مهرجون يا باشا ، هؤلاء مهرجون...

صاح جمال باشا وقد أصابه الغضب :

ـ انظر إلى هذه السفالة ، في يافا يعتقل جاسوسان ، ولا يخشيان من مفاوضتي ومساومتي ، والقائد العسكري هناك ، يطلب الأمان لهما ، دون خجل وبهدف معرفة شيء منهما قبلتُ طلبهما ، ووافقت على اعطائهما الأمان .

قل لي بحق السماء ، هل هذا أمر ممكن ؟ هل هذا أمر معقول !

الدولة العثمانية محاصرة من جميع الأطراف ، ونحن نقاتل على كل الجبهات مع أعدائنا ، وأقرب الناس إلينا يطعنوننا من الخلف ، والبلاد في حالة هيجان والنار مشتعلة فيها ، ونحن قابعون لا نأتي بأية حركة ، لماذا ؟

لأننا لا نعلم شيئاً عن أعدائنا . في حين أن أعداءنا يعلمون كل شيء عنّا ، إنهم يعرفون ما نأكل وما نشرب يا باشا !

لم يعد بوسعك الاعتاد على جهاز استخباراتك ولا على العاملين في مكتب التحقيقات الأول ، هل تفهمني ؟

يجب استبدالهم جميعاً . جنودنا المسلمون في الجبهات ، ينتظرون جياعاً مرضى مشردين . وأجهزة استخباراتنا لا تفعل شيئاً .

عليك بالبحث عن الشرفاء والأمناء يا باشا إنك قائد وحاكم هذه المنطقة والقائد الأعلى للجيش . إنك أنت المسؤول إن كانت سارة جاسوسة ، فقد كان على أجهزة استخباراتك معرفة ذلك قبلي ، وليس أنا .

اعتقال الجواسيس الموسويين

لم يكن علي فؤاد باشا يقول شيئاً . كان فقط يستمع إلى جمال باشا بإمعان ، ينتظر زوال العاصفة .

وبعد قليل ، رن جرس الهاتف من جديد .

ـ آلو ... يافا ... نعم أسمعكم ...

وعندما أقفل جمال باشا الهاتف قال لعلي فؤاد باشا :

ـ عليك بإخلاء يافا منهم يا باشا ، لاأريد أن أرى أي موسوي هناك. عليك بنقلهم جميعاً إلى الشام . ولكن لا تتعرض إلى كرامتهم ولا إلى أموالهم وممتلكاتهم . دع كل واحد منهم يحمل ما يشاء من ممتلكاته .

ـ هل هناك أنباء سيئة من يافا يا سعادة الباشا ؟

ـ نعم ، إنها أنباء سيئة ولكنها متوقعة . لقد اعترف الجاسوسان اللذان تم اعتقالهما ، بأنهما كانا يعملان في شبكة سارة للتجسس في سبيل تجسيد حلم روتشيلد الذي جندت سارة كل الموسويين لتحقيقه .

فقد قرر الانكليز بالتعاون مع الموسويين والعرب اجلاءنا من هذه البلاد ولكن قبل أن يطردوننا منها سنطردهم نحن . فإن لزم الأمر ، اطردوا الموسويين من كافة القرى والمناطق والمستوطنات التي يعيشون فيها .

ـ كما تشاؤون يا سعادة الباشا . كنت سأطلب منكم ذلك بنفسي . لقد تحدثت مع جمال باشا المرسيني في القدس وسيوجه إليكم خطاباً بهذا الخصوص، فهو يريد اخلاء القدس أيضاً من الموسويين .

ـ حسناً ، أخلوا القدس أيضاً . لاأريد أن يبقى في القدس موسوياً واحداً . هؤلاء الذين رعيناهم وساعدناهم إنظر ماذا فعلوا بنا اليوم !

اتخذوا فوراً الاجراءات المناسبة ... واستفيدوا من الأبنية الحالية والثكنات وإذا لزم الأمر أسكنوهم المساجد ريثما نجد لهم المأوى المناسب .

ـ كما تأمرون يا سعادة الباشا. سأتصل حالاً بالحاكم خلوصي بك ليجهز الأبنية والمنازل الخالية لإيواء الموسويين الذين سيتم اجلاؤهم من المناطق المختلفة في البلاد .

ـ عليك بإنجاز هذا الأمر في أسرع وقت ممكن ولندعو إلى الله أن لا يكون قد فات الأوان .

ـ إن شاء الله يا سيدي سأسخر كل القطارات لهذه الغاية وفي أسرع وقت ممكن سيتم نقل أولئك الموسويين .

ـ اتصل أيضاً بالالمان في الشام والقدس وبيروت ، عليهم أيضاً استبدال ضباطهم في القيادة العسكرية، وإعادة النظر في تنظيم أجهزة استخباراتهم، وضبط عناصرها الذين يلهون كل ليلة مع الفتيات الموسويات، للالتفات قليلاً إلى أعمالهم ومهماتهم ، فلا يقعون فيما وقعنا فيه.

ـ كما تأمرون سيدي ، سوف أقابل الالمان ، وسوف نتبادل الحوار فيما بيننا ، ونقوم باستبدال عناصرنا أيضاً في أجهزة الاستخبارات .

جمال باشا في موقف صعب

بعد رحيل علي فؤاد باشا ، بقي جمال باشا وحيداً في مكتبه ، وهز رأسه حزيناً ثم قال :

ـ سارة ... سارة ... كيف فعلتِ هذا بي ؟ كيف يمكن أن تكوني جاسوسة ؟ وتذكر السنين الثلاث التي قضتها سارة بجانبه ، ساعة بساعة ، يوماً بيوم ، لحظة بلحظة ، كشريط سينمائي .

كان جمال باشا يعشق سارة ، ويحبها كثيراً ، غير أن هذه الخيانة ، لايمكن تحملها ولا يمكن غفرانها . لقد كانا كل ليلة معاً ، وكانت تقول له : « أنا خادمتك يا سيدي » فتطلق بذلك العنان لمشاعره العميقة ... كانت تغمره بكل الشفقة والحنان كأنها الأم الحنون ، فينام في عينيها ويستيقظ في قلبها ، لقد أذاقته أجمل طعم للحب في العالم ، وكانت إلى جانبه الرفيقة المواسية والمداوية للكثير من المشاكل والتعب . كيف لهذه الفتاة الرقيقة أن تكون جاسوسة ؟

لم يستطع جمال باشا تقبل الأمر ، ولم يستطع هضمه ، وعلاوة على ذلك، ماذا سيكون موقفه أمام تساؤلات الباب العالي؟ كل ذلك أصاب غروره في الصميم .

الموقف الراهن سيء جداً . السواحل محاصرة ، وقوات اللنبي لا تكف عن الاستيلاء على مناطق جديدة بعد تحريرها من القوات التركية ، وبقي جمال باشا وحيداً لا يعرف كيف سيتعامل مع هذا الموقف وكيف سيتصرف؟

في تلك الأثناء ، توجه مصطفى كال باشا إلى استنبول ليعزز من ترابط الباشاوات ويسوي خلافاتهم ، ثم توجه بعدها إلى المانيا للتنسيق مع القيادة الالمانية ، وعاد إلى فلسطين ليتم تعيينه قائداً لجبهتها .

كان مصطفى كال وفوزي باشا (جقمق) وعلي فؤاد باشا (جيبسوي) وعلي فؤاد (أرديم) وكاظم باشا وعصمت إينونو يحاولون جاهدين العمل على استعادة ثقة الالمان بهم.

ومن جانبهم ، قام الالمان بإجراء تعديلات وتبديلات في صفوف قادتهم العسكريين بقصد الإعداد لهجوم ساحق ، وبدأت اللقاءات والاجتماعات تدور بين الالمان والأتراك .

فات الأوان

غير أن الأوان كان قد فات ، فالجيوش المرابطة على الجبهات تتقهقر تحت وطأة الجوع والمرض والتشرد .

ووصل الجنود المسلمون ، بعد أربع سنوات من الحرب الطاحنة ، إلى حالة الإنهاك . فالسنوات الأربع التي مضت لم تكن سهلة ، إذ لايمكن لأي إنسان بعد أربع سنوات من الصمود في مثل تلك الظروف أن يستطيع الاستمرار.

ولكن ومع ذلك ، فقد كانت العقيدة الاسلامية القائلة « إن قُتلتَ فأنت شهيد وإن لم تمت فأنت غازٍ » تدفع هؤلاء الجنود إلى الاستمرار في قتالهم مع الانكليز .

من ناحية أخرى ، وأمام نقص الامدادت والمساعدات للجيوش التركية ، بدأت هذه القوات بالتقهقر عن العديد من الأراضي التي كانت قد استولت عليها وحررتها .

تقارير سيئة

كانت التقارير اليومية الواردة إلى جمال باشا أشبه بالكوابيس ، لقد تم اجلاء معظم الموسويين من القدس. ولكن والي وحاكم الشام بدأ بتقديم الشكوى إلى جمال باشا المرسيني حاكم القدس .

ـ « أرجوكم كفّوا عن ارسال المزيد من الموسويين إلى هنا ، لم يبق لدي مكان لإيواء موسوي واحد » .

وفي حين كان يتم القاء القبض كل يوم على جاسوس موسوي جديد في القدس ، بدأ الموسويون يعملون علناً على اسقاط الحكم التركي . فتم اعتقال ستين بالمئة ممن كانوا يعملون ضمن شبكة سارة التجسسية وإبادتهم .

كا تم اعتقال التير وزجه بالسجن ، وتم اعدام ليديا وكمباس والآنسة

سيمون والعديد من الموسويين الاخرين.

وكان أكثرهم يدفع الأموال الطائلة لينجو بعنقه من حبل المشنقة ويهرب من المثول أمام المحاكم العرفية .

لم يكن جمال باشا يعرف ماذا يفعل وهو يواجه كل هذه الأحداث في بلاده ، لقد استجر ما يقارب سبعة ملايين قطعة ذهبية سنوياً من لخزانة الدولة العثمانية لإدارة أموره في هذه المنطقة ، فقد كان حامياً وراعياً للمصالح العربية في بلاده .

ودفع كل هذه المبالغ لتأمين حماية هؤلاء العرب والدفاع عنهم .

غير أنه فشل في تحقيق مآرب الدولة التركية وعلى العكس فقد خلق نتيجة لأعماله ، عدواً جديداً داخل بلاده ، وهو عصيان العرب اضافة إلى هذه الضربة المؤلمة التي تلقاها جمال باشا من الموسويين ولم تكن بالحسبان .

لم يتلق حزب الاتحاد والترقي ، من الموسويين إلا المساعدة والدعم . لقد عمل عمانوئيل قره صو ، ورئيس الحاخامات نعوم أفندي بجد ونشاط على مساعدة الحزب وقدما له خدمات جلّى . وعملا أيضاً على ولادته بكل أمانة واخلاص حتى وصوله إلى سدة الحكم بعد الإحاطة بعرش عبد الحميد ، وبأيديهم صنعوا التشكيلات الاتحادية وهم يريدون الآن أن يطيحوا بنا كما فعلوا بالسلطان عبد الحميد ؟ فأين خبأوا هذا اللؤم كل هذا الوقت ؟ وهل يمكن من أجل حفنة تراب في فلسطين لكي يقيموا عليها الدولة اليهودية أن ينقلبوا ضدنا إلى هذا الحد سعياً لتهديم كيان الإمبراطورية .

كان جمال باشا يفكر بكل هذا متأملاً ما حدث ، وقال في نفسه : لو أن هؤلاء العرب وهؤلاء الموسويين طلبوا منا الاستقلال ، ألم نكن نمنحه لهم؟ ألم نكن نساعدهم على بناء دولة مستقلة لهم ترتبط بدولتنا العثمانية ؟

لقد أهمل طلعت باشا وأنور باشا فكرة الاعتراف بحقوق تلك الأقليات ، العربية والموسوية وكان هدفهما التعاون مع الحلفاء في حربهم ليس

إلاّ ، ففكر جمال باشا بدعم فكرتهم هذه للخروج من محنته تلك ، ولكن الأوان مرة أخرى قد فات .

جمال باشا يقرر مغادرة الشام

عين جمال باشا في ١٢ كانون الثاني ١٩١٧ جمال المرسيني وكيلاً عنه وقرر أن يترك الشام ، وكأنه قد أعطى لنفسه إجازة أمام الآخرين ، لقد كان قراراً مؤلماً حزَّ في نفسه كثيراً .

وهكذا عندما همَّ بالصعود إلى القطار أحس بالذل الذي أحاط به ، تاركاً وراءه ذكريات أليمة ، وأخذ يتذكر استشهاد الآلاف من جنوده البواسل، الذين ضحوا بأنفسهم لحماية هذه الأراضي ، وها هو اليوم يتركها مكرهاً ، رغم أنه عمل على رقيها وتمدنها ، وتساءل ألم يكن هو الذي أقام المدارس والمعاهد، وعهد للسيدة خالدة أديب وإخوتها بإدارتها لينشروا العلم والأدب.

وأقام علاقات صداقة عديدة مع الكثير من العائلات في الشام . وكان له اسماً مرموقاً بينهم . فبقدر ما كان قاسياً ، كان طرياً وليناً ، علاوة على أنه كان من رجالات الصالونات والبروتوكولات الاجتماعية .

لقد كان نبأ انتحار سارة ، ونكسة الجبهات ضربتين قويتين أثقلتا كاهله .

لم يكن جمال باشا متفاءلاً بعد ما حدث ، نتيجة الحرب القائمة .

فقرار الخامس من نيسان عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر ، الذي اتخذته أمريكا وتحالفت مع الانكليز على أثره ، كان حقيقة لابد له من مواجهتها .

فتحالف أميركا مع الانكليز في وجه الالمان ، كان يعرفه جمال باشا ويحاول نسيانه وعدم تذكره ، إلا أن الحقيقة كانت دائماً أمامه ، أما اليوم ،

وهو يتخلى عن مسؤولياته ، وعن المهمات الملقاة على عاتقه وما يحمله من رتب عسكرية ومكانة ومنصب عسكري فعليه أن يكون المسؤول الأول في مواجهة هذه الحقيقة .

أراد جمال باشا التملص من هذه المسؤوليات بأن يهرب من الشام تاركاً وراءه كل تلك الأزمات ، فغادر الشام وعيناه تذرفان دمعاً على ما ترك وراءه .

وعند وصوله إلى الأناضول ومشاهدته لحالتها المتردية المزرية من الخراب والدمار ، ازداد حزناً وهماً . وأحس بحرقة في حلقه وقال في نفسه ، « لو أننا صرفنا كل تلك الأموال التي بذلناها للعرب ، على هذه الأراضي لكان أفضل لنا » ولكانت الآن في أبهى حلتها مليئة بالخيرات الوافرة . بدلاً من رؤيتها هكذا صفراء يابسة .

أقر جمال باشا بأخطائه التي ارتكبها ، ولم يعد يرى الأراضي الأناضولية من نافذة القطار ، فذاكرته حملته من جديد إلى الماضي ، إلى الشام ، إلى الجبهات ، حيث ترك أولاده الجنود تكفنهم تلك الأراضي الجرداء الحارة ، تحت وطأة الجوع والتشرد والمرض ، لقد خجل مما صنعت واقترفت يداه هناك ، وهنا. هناك بتركه لأبنائه الذين ينتظرون دعمه ومساعدته ، وهنا لإهماله لهذه الأراضي ، فبدلاً من بذل الأموال لزرعها وبنائها ، راح يبذل الأموال على العرب لكسب ودهم ومحبتهم، وما زاده حزناً وتألماً موقف العرب في ردهم للمعروف والخير الذي أعطاهم إياه .

خجل جمال باشا من نفسه عندما تذكر هؤلاء الجنود المساكين ، الذين أرسلهم إلى القناة ، حفاة عراة ليقعوا في أسر الانكليز دون شفقة ولا رحمة .

كان الحزن يأكله كلما تذكر أعماله التي قام بها في الشام وهذه المنطقة .

وقرر تقديم استقالته عند وصوله إلى استنبول .

بعد رحيل جمال باشا لم تصمد الجيوش أكثر من عام . إذ أن القائدين

التركي والألماني ، جمال باشا وفالكنهاين ، انسحبا من مناصبهما العسكرية .

وكان الجنرال ليمان فان ساندرز قد استلم وتولى قيادة الجيوش الالمانية المقاتلة ، لكنه عند رؤيته أوضاع هذا الجيش والوضع العام بهذا السوء ، قدم هو الآخر استقالته لاحقاً .

تولى بعد ذلك مصطفى كال باشا الأمور في البلاد ، لكنه سرعان ما قرر انسحاب الجيوش التركية من سوريا ، نظراً للوضع المتدهور في الداخل .

فبدأ ينسحب شيئاً فشيئاً ، بادئاً بالقرى والمناطق وصولاً إلى حلب حيث دارت فيها حرب شوراع دامية كبدته خسائر فادحة لكنه استطاع انقاذ ألوف الجنود المسلمين ورد الموت عنهم بإنسحابه هذا .

وفي عام ألف وتسعمائة وثمانية عشر ، وفي الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول دخلت القوات الانكليزية إلى الشام بقيادة الجنرال اللنبي الذي نحى الحكومة العربية التي كانت قد تشكلت في المناطق المحررة من البلاد بعد رحيل الأتراك عنها .

وهكذا سيطرت القوات الانكليزية والفرنسية على هذه المنطقة .

وبعد استقبال المواطنين للجنرال اللنبي ، بعضهم بالفرح وبعضهم بالدموع ، توجه إلى الجامع الأموي في آخر سوق الحميدية قاصداً قبر صلاح الدين الأيوبي ، هناك بجانب المسجد حيث قال :

عليك أن تذكر بأن النصر لن يكون إلا لنا ، وأن أكبر دولة إسلامية مع حلفائها قد انهارت وركعت عند أقدامنا . وسوف لن تقوم للإسلام قائمة ما دمنا نحن الصليبيين أحياء .

هذا الكلام الذي قاله اللنبي عندِ مدفن صلاح الدين الأيوبي أيقظ العرب من سباتهم فعلموا بعمق الفاجعة التي أصابتهم .

كان عليهم بالأمس حمل السلاح لطرد الأفندية الأتراك من البلاد . واليوم عليهم حمل سلاحهم ثانية لطرد السادة الجدد الذين وطئت أرجلهم

بلادهم ، وداست كل القيم الاسلامية فيها . فبات الشرق العربي المسلم مهاناً ومداساً ، الآن فقط ، علم العرب وعرفوا كبر الفاجعة التي أصابتهم .

وبسقوط دولة سوريا ، قررت الدولة التركية توقيع معاهدة الصلح مع الانكليز . وكان في الجانب الانكليزي المفاوض النائب عمانوئيل قره صو والحاخام نعوم أفندي وهما أصحاب المراكز في تركيا ومن زعماء الصهيونية بالوقت ذاته واللذان منحتهما الحكومة الانكليزية صلاحيات وامكانيات التفاوض مع الأتراك .

ووقعت الحكومة التركية على معاهدة صلح مع الحكومة الانكليزية بشروط مجحفة . ولدى اعتراض بعض السياسيين الانكليز على تعيين نعوم أفندي وعمانوئيل قره‌صو في لجنة توقيع المعاهدة ، ردت الحكومة عليهم بأنهما سيقدمان دعماً مالياً كبيراً للحكومة .

لكن الحقيقة مختلفة تماماً فنعوم أفندي ، كبير الحاخامات وعمانوئيل قره سو كانا جاسوسين عملا لحساب القوات الانكليزية أثناء تواجد القوات التركية على أراضي سوريا ولبنان .

تم توقيع المعاهدة وسميت معاهدة مندروس . فأجبرت بنود هذه المعاهدة الحكومة التركية على الانسحاب من الجبهات الأربع القتالية .

إلا أن الجنود الأتراك والضباط المتواجدين على كافة الجبهات رفضوا الانصياع لأوامر الباب العالي بالانسحاب ، ورفضوا الاعتراف بهذه المعاهدة.

حتى حاكم المدينة فخر الدين باشا لم ينصع لأوامر الباب العالي ، ورفض الاعتراف بالمعاهدة التركية ـ الانكليزية . وظل يحارب القوات الانكليزية فيها حتى آخر رجل ، رافضاً استقبال وفد يضم الانكليز وبعض العرب لتسليم المدينة وأمر بنقل قيادته إلى جوار قبر الرسول الكريم واستبسل في الدفاع عنه حتى أسر واقتيد إلى مصر .

اقتسام الدولة العثمانية

وبدأت الامبراطورية العثمانية تتجزأ ، فالفرنسييون يريدون الحصول على سوريا ولبنان .

ولما كان فيصل قد أُصيب بضربة مؤلمة من الانكليز فقد أبعد عن سوريا ، وتم تعيينه ملكاً على العراق .

أما الشريف حسين فبقي مدة في الحجاز يحكمها حتى تم استدعاء ابن سعود من النجف وتم تسليمه الحكم في الحجاز . واستطاع الشريف حسين بالكاد النجاة بروحه غير أن الانكليز تمكنوا من القبض عليه ، وحكموا عليه بالنفي إلى قبرص .

وقد رافقه خلال رحلته إلى المنفى ابنه فيصل وعندما وصلوا إلى سواحل قبرص قال الشريف حسين لابنه :

« لقد خنَّا الدولة العثمانية ، وتسببنا بمقتل الألوف من الجنود المسلمين ، فليغفر الله لنا . »

ورد الأمير فيصل على والده مواسياً :

كلا يا أبي ، نحن لم نخن أحداً ، نحن نريد إقامة دولة عربية كبرى على هذه الأراضي . فبعد اليوم ، لن يكون للعرب المسلمين إلا علم واحد في مسيرتهم نحو التقدم والازدهار والحرية والاستقلال وسلطة عربية واحدة تحكم البلاد فسأله الشريف حسين .

ومن سيكون ملك هذه الدولة العربية الكبرى؟

فأجاب فيصل :

ـ أنا يا والدي ، أنا سأكون حاكم هذه البلاد .

وابتسم الشريف حسين بمرارة وقال :

إذا أصبحت تلك الدولة تحت إدارتك فأنا منذ الساعة أتألم لمصير هذا الشعب ، يا لهم من مساكين هؤلاء العرب !

الله وحده يعلم ، كم ستراق دماء نتيجة تخيلاتك وأحلامك .

وفعلاً ، وبعد عدة سنوات قتل فيصل مسموماً . وجاء إلى الحكم مكانه ، ابنه غازي الذي أعدت له فيما بعد عملية اغتيال فذهب ضحية حادث سيارة مفتعلة في العراق .

وشهد العالم بعد ذلك انهيار العائلة الحاكمة في العراق التي ترأسها فيصل الثاني حفيد فيصل وابن غازي ، بشكل لم يسبق له مثيل على أيدي نوري السعيد باشا[1] .

فلم يتركوا أحداً من العائلة إلا وقتلوه : طفلاً وامرأة وشاباً وشيخاً .

أما عبد الله بن الحسين، الذي تم تعيينه قائداً للقوات العربية فقد تم اغتياله طعناً بالخنجر عند مدخل باب مسجد عمر في القدس .

في حين أصيب ابنه طلال ، الذي خلفه بالجنون ونقل إلى استنبول وأدخل إلى المشفى العسكري للأمراض العقلية فيها للمعالجة التي دامت عدة سنين واستلم ابنه حسين الحكم في شرق الأردن

وهكذا كان الانكليز يمزقون العرب الذين ساندوهم ضد الأتراك ، ويغتالونهم ويعملون على تصفيتهم، والعبث بأفكارهم وزرع الانشقاقات بينهم والتأكيد على أن كل المصائب التي حلت بهم كانت بسبب الأتراك ، وفي فلسطين أقيمت دولة فلسطين بحماية الانكليز . وسكن فيها أغلبية الموسويين القادمين من كافة أنحاء العالم .

ومع الزمن، سيستوطن الموسويون فلسطين وفي نهايات الحرب العالمية الثانية ، ستنشأ لهم دولة تسمى اسرائيل .

---

(١) لا شك في أن الكاتب أراد أن يقول أن نوري السعيد قد ألحق الضرر بالعائلة الهاشمية الحاكمة في العراق ، لأن ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، هي التي قلبت الأوضاع رأساً على عقب وقضت على رموز الحكم البائد وعلى رأسهم نوري السعيد والأمير عبد الاله وفيصل الثاني . ابن الملك غازي بن فيصل الأول .

وهكذا ، نجد الانكليز والعرب والموسويين الذين تكاتفوا ، خلال الحرب العالمية الأولى ، يتناحرون ويتقاتلون في الحرب العالمية الثانية وغرقت المنطقة(منطقة الشرق الأوسط) ببحر من الدماء .

وأثناء الحرب العالمية الأولى ، لو لم يرتكب العرب هذا الخطأ ولو أنهم حاربوا الانكليز والموسويين ، لو فعلوا ذلك ، لما سجّل التاريخ سلسلة الحروب التي جرت بينهم وبين الاسرائليين .

وبناءً على هذه الاعتبارات، ومع انهيار الامبراطورية العثانية ، تم تقسيم الشرق الأوسط بين العديد من الدول .

ولم يكن الانكليز قد وضعوا في حساباتهم مطامع الدول في هذه المنطقة ، فقد انحصر همهم في إفناء العرب بعد انتصارهم على الأتراك لتفرغ الساحة لهم، ولكنهم لم يواجهوا حقيقة وجود مطامع دولية حول هذه المنطقة.

أما حزب الاتحاد والترقي ، فقد تمت تصفية كل أعضائه من قبل الانكليز بعد انهيار العثانيين ، هرب جمال باشا وأنور باشا وطلعت باشا ، في إحدى الليالي على متن غواصة المانية ، إلى روسيا ثم إلى المانيا .

وبعد أن أمضى بضعة أشهر في بلاد الغربة بالمانيا، طرح أحد الأرمن طلعت باشا أرضاً برصاص مسدسه، وأطلق أرمني آخر رصاصة على جمال باشا عام ألف وتسعمائة واثنين وعشرين في مدينة تفليس[1] في منتصف إحدى الليالي ، وأرداه قتيلاً .

وأخيراً قتل أنور باشا على يد أحد الشيوعيين في المجر بعد أن فر من روسيا إلى أفغانستان ومنها إلى المجر .

كا اغتيل معظم أعضاء حزب الاتحاد والترقي وأعوانه ، وحكم على بعضهم الآخر بالإعدام .

---

(١) تفليس (تبليسي) ، عاصمة بلاد الكرج . كانت جمهورية سوفياتية واليوم هي الجمهورية الكرجية المستقلة .

لقد كتب التاريخ في صفحاته كيف تمت تصفية أولئك الذين خانوا أمتهم وإسلامهم ، وتسببوا في مقتل الآلاف منهم دون سبب أو مبرر . بدءاً من سلالة الشريف حسين وصولاً إلى أعضاء حزب الاتحاد والترقي ، وقد أوضحنا لكم بإيجاز كيف نالوا عقابهم .

أما الآن ، دعونا نرى ما حصل للموسويين الذين طعنوا الأتراك العثمانيين من الخلف .

لقد قرأتم كيف كانت نهاية سارة المفجعة وكيف أنها انتحرت ، فبعد انتحار سارة ، سقطت مدينة القدس على أيدي الانكليز ، وعاد آهارون والكسي إلى القدس ، وفي رحلة إلى لندن ، للانضمام إلى مؤتمر للموسويين ، سقطت الطائرة . وقتل آهارون ، أما الكسي فقد قتل بانفجار محرك سفينة مع خمس وستين مهاجراً كانوا متجهين إلى حيفا إثر عاصفة هوجاء .

أما ربيكا ، فقد أصيبت بالجنون بعد سماعها نبأ انتحار أختها سارة وتوفيت بعد مدة طويلة قضتها في مشفى للأمراض العقلية .

في حين أن سام ،أحد أخوة سارة، مات متأثراً بالحروق التي أصابته لدى نشوب حريق في إحدى الخمارات التي كان فيها ، حين خرج والنار تلتهمه .

وانتحرت والدة سارة، بإلقاء نفسها من القطار أثناء اجلاء الموسويين من القدس بناءً على أوامر جمال باشا .

أما الجاسوس لورانس[1] ، الذي قام بتخريب معظم الخطوط الحديدية وتسبب في مقتل آلاف من المجاهدين المسلمين ، فقد قتل إثر حادث دراجة نارية مفجع تهشم فيها رأسه وانهرس دماغه ، كما أن العديد من الذين تعاونوا مع لورانس وسارة لقوا مصرعهم إما قتلاً، أو حكم عليهم بالإعدام،

---

(١) لورانس ، الذي أطلق البعض عليه لحماقتهم . اسم « لورانس العرب » عميل بريطاني من أصل يهودي ، اتصل بشريف مكة الحسين وأبنائه . صاحب كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) .

فأولئك الذي لعبوا بقدر أمة ، أولئك الذين دمروا هذه الأمة ، هكذا كانت نهايتهم .

لقد شاهدتم كيف استشهد الآلاف من المجاهدين الأبرياء وكيف قتل مئات الألوف من الناس ، نتيجة خيانة شرذمة من الجواسيس وادارة كتلة من القادة اللامبالين ، وأخطائهم ، ورأيتم كيف دُمّرت الامبراطورية العثمانية.

وأريد أن أذكركم وانبهكم بضرورة الاحتراس من الطامعين ببلادنا ، وبناء على هذه الاعتبارات وما شاهدناه من أحداث مؤلمة فإن على الذين يحملون مسؤولية أمن واستقرار شعوبهم ، ويقومون برسم سياستهم وخططهم الحياتية أن يتصرفوا بشكل لائق وحكيم يعود بالفائدة والخير على الأمة كلها .

مع بداية عام ألف وتسعمائة وثمانية عشر ، بدأت الامبراطورية العثمانية التي دخلت الحرب عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر بالتمزق .

وفي بداية عام ألف وثمانمئة وثمان وثمانون كانت الجهات الصهيونية قد باشرت اتصالاتها ومناقشاتها مع أطراف عديدة لتأسيس دولة موسوية لهم.

وهكذا، تم تسخير سارة آرونسون في بداية عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر، لتجسيد هذا الحلم الصهيوني، ولكنها، أي الجهات الصهيونية لم تتمكن من تحقيق مآربها في المدة التي كانت تتوقع تحقيقها .

وفي عام ألف وتسعمائة وثمان وأربعون ، أُنشأت دولة اسرائيل ، وبعد تأسيس هذه الدولة ، دخل الموسويون مع العرب في ثلاثة حروب دامية ، ومازالوا في حالة حرب فيما بينهم . فهذان الطرفان ، اللذان كانا في إحدى الأيام في جبهة واحدة ، لم يستطيعا اقتسام ميراث الامبراطورية العثمانية .

فالعرب، الذين كانوا يحلمون «بدولة سوريا الكبرى» «والامبراطورية العربية الكبرى» بقيت هذه الأحلام في خيالهم دون أن يستطيعوا تجسيدها على أرض الواقع. والقادة العرب الذين كانوا يحكمون العرب في سنوات الألف وتسعمائة ، قضموا أصابعهم ندماً على دورهم الفعّال في اسقاط وتدمير الامبراطورية العثمانية .

وهكذا أصبح العرب فيما بعد ولمدة ثلاثين أو أربعين عاماً تقريباً، مرغمين على مواجهة الموسويين[1] من جهة والدول الأخرى مثل انكلترا وفرنسا من جهة ثانية ودامت هذه الحروب حتى أعوام ألف وتسعمائة وستون

(١) من الأمور التي تسترعي الانتباه، أن كاتباً مثل (نجيب عازوري) قد انتبه إلى أمر، غاب عن أذهان بعض الزعماء العرب (من ملوك ورؤساء دول) ومفكرين، منذ مطلع هذا القرن=

وألف وتسعمائة وسبعون .

أما في الشرق الأوسط ، أي على أراضي الميراث العثماني ، فلقد استمرت الحروب الدامية سنين عديدة .

وتم انشاء الدول التالية في الأراضي التي كانت الامبراطورية العثمانية تسيطر عليها :

١ ـ مصر، ٢ ـ العربية السعودية، ٣ ـ اليمن الجنوبية، ٤ ـ اليمن الشمالية، ٥ ـ عُمان، ٦ ـ الامارات العربية المتحدة ، ٧ ـ الكويت ، ٨ ـ البحرين ٩ ـ قطر ، ١٠ ـ العراق ، ١١ ـ سوريا ، ١٢ ـ الأردن ، ١٣ ـ لبنان ، ١٤ ـ اسرائيل ، ١٥ ـ ... وفي النهاية دولة فلسطين التي أُعلنت في المنفى في الخامس عشر من شهر تشرين الثاني عام ألف وتسعمائة وثمان وثمانين في الجزائر .

=وحتى يومنا هذا. فها هو يقول في كتابه : يقظة الأمة العربية، في عام ١٩٠٥ .

« إن ظاهرتين هامتين، متشابهتي الطبيعة بيد أنهما متعارضتان لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن تتضحان في هذه الآونة في تركيا الأسيوية أعني : يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاقٍ واسع » . ومصير هاتين « الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر احداهما على الأخرى وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم بأجمعه . وليس للمرة الأولى على كل حال تناقش في الأقطار العربية مصالح أوروبا في حوض البحر الأبيض المتوسط ، لأن هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار كانت على مدى عهودٍ متفاوتة مسرحاً لأحداثٍ سياسية أو دينية قلبت مصير العام بأسره . »

كاتب هذه الرؤى السياسية الصائبة ـ والتي لم يدركها حتى يومنا هذا بعض العرب ـ هو (نجيب عازوري) ، المولود في عازور ، قرية صغيرة في قضاء جزين اللبناني . شغل منصب مساعد حاكم القدس ما بين ١٨٩٨ ـ ١٩٠٤ ، قبل اعتزاله المنصب واللجوء إلى مصر ، هرباً من بطش الحكام الأتراك . انظر لتفاصيل أوسع الترجمة العربية عن الأصل الفرنسي ، الصادر في باريس عام ١٩٠٥ : (نجيب عازوري ، يقظة الأمة العربية ، تعريب وتقديم . الدكتور أحمد بوملحم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ .

كلمة أخيرة

بعد أن قرأتم هذا الكتاب ، بقلم صحفي حاول جاهداً ، أن يقدم كتاباً ، ليس بالقصة التي تسرد أحداثاً تاريخية ، ولا هو مجرد تكديس للمعلومات ، إنما يمكنكم اعتباره شيئاً من هذا وذاك ، فالأسماء الواردة فيه حقيقية تماماً والأحداث بكل مجرياتها متطابقة مع الواقع فهل أُلام على ذلك ؟ إن مسؤوليتي تنحصر في مجانبتي الحقيقية والواقع ، أوابتعادي عن معايير العمل الصحفي وأمانته .

أنا في كتابي هذا ، لم أشأ ايذاء أحد ولا تحقير أحد ، ولا تعظيمه ، إن ما كتبته ، هو حصيلة عمل صحفي دام خمسة وثلاثين عاماً ، ولما كنت أرغب في تقديم واجبي الوطني ، أخذت القلم بيدي وبدأت الكتابة. ولو أني لم أكتب هذا الكتاب ولم أفرغ ما في ذاكرتي من أحداث ، لعذبني ضميري طويلاً ، ولعشت في هذا العذاب مدة طويلة .

الآن، وقد قرأتم هذاالكتاب وعلمتم ما جرى من أحداث، وشاهدتم كيف دمرت الامبراطورية العثمانية . فإن معرفة العدو القديم يساعدنا على التعرف على أعدائنا القادمين ، أليس كذلك ؟ إننا لا نستطيع أن نملي على المسؤولين الذين يديرون بلادنا وعلى الشخصيات التي تخطط لمستقبل بلادنا ، ما عليهم القيام به ، كما أنهم لايستطيعون التنبؤ بكل ما قد يحصل في المستقبل ، وإلاّ لكانوا من أولياء الله ... وجهلهم لما سيحدث في المستقبل يعرضهم لارتكاب الأخطاء ولعذاب الله لهم ، وهؤلاء سيموتون يوماً ما أليس كذلك إن التاريخ هو الذي يقول لنا ، وهو الذي يظهر لنا تلك الأحداث كما حصلت ، وهكذا نرى من خلاله الأشياء ، ومنها نستطيع أن نحكم عليها .

إني أقدر حزنكم وتأثركم بما قرأتموه ، كنت حزيناً ومتأثراً لوحدي كل تلك السنين الماضية ، واليوم جعلت منكم شركائي في حزني وتأثري هذا .

ولكن أرجوكم ، أن لا يذهب البعض إلى محاربة هذه الحقائق وهذا التاريخ ويعتبر نفسه أصدق منه ويقف في وجه هذه الحقائق التاريخية ، فلنعتبر ولنتخذ دروساً من هذا التاريخ ومن أخطائه فكل واحد عليه أن يمعن النظر ويتأمل ملياً في هذا التاريخ . ويتخذ منه عبرة ويجعل من أخطائه دروساً له .

وإلاّ فإننا بارتكاب مثل تلك الأخطاء ، ومحاكمة التاريخ ثانية لن نخرج من وسط هذه الجعجعة ، فالعمر سوف ينتهي والأخطاء لن تنتهي .

علينا أن نأخذ عبرة من صفحات التاريخ المغبرّة هذه ، ولنترك الأحداث التي جرت فيها ، تنام بهدوء بين صفحاته .

ولا تنسوا ، هذا ليس مجرد سرد تاريخي وليس سرداً للأحداث، وليس أيضاً بصورة أو أخرى رواية ... !

الثلاثون من شهر تشرين الأول عام ألف وتسعمائة وثمان وثمانون

ينيكوي

مع تحياتي

لطفي أكدوغان .

شهادات سلوكية

للطفي أكدوغان

عاش صاحب اللقب الصحفي والسياسي ، بين زملائه الصحفيين ولم يكن غريباً عنهم أبداً . فاهتم بالأمور الانسانية وشرح لعبة «القدر» وكان من بين الذين يؤمنون به ويسلمون .

والمصادفات التي واجهها أكدوغان عام ألف وتسعمائة وخمسين ، في انطاكية مسقط رأسه كان لها دور كبير في حياته المهنية .

عندما بدأ لطفي أكدوغان يمارس مهنة الصحافة ، عام ألف وتسعمائة وخمسين ، كان يتكلم اللغة العربية بالاضافة إلى لغته التركية ، ولامتيازه بهذه الامكانية ، أصبح أكدوغان من الصحفيين البارزين .

ذلك الصحفي ، الذي لم يكن يعرف بعد ، كيف يجمع الأنباء من هنا وهناك ، غير أن معرفته للّغة العربية كانت مساعداً في تقدم مهنته وشهرته.

كان أكدوغان صلة وصل بين أبناء بلده والدول العربية ، حيث كانت الأنباء ترد إلى الصحافة التركية باللغة الانكليزية ، وغالباً ما كانت لا تصل إلى الأتراك لصعوبة نقلها من اللغة العربية .

ففي ريبورتاجه الأول عن العالم العربي عام ألف وتسعمائة وثلاث وخمسين حصل أكدوغان على اهتمام جماهيري وحتى على اهتمام رئيس الجمهورية التركية آنذاك جلال بيايار .

وكانت نقلته النوعية ، تغطية لأحداث قناة السويس عام ألف وتسعمائة وست وخمسين ، فاستفاد أكدوغان من علاقته بأصدقائه في القناة لتغطية أنباء الأحداث هناك. وكان ينقل إلى القارىء التركي مجريات الأحداث

داخل الدول العربية المجاورة ، وكونه صحفياً ، فكان ينقل صوراً حية لهم .

بعد ذلك، وبين عامي ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ تمكن أكدوغان، لكونه مراسلاً حربياً ، من تغطية كل الأحداث وأظهر في ذلك براعة فائقة في كشمير ، وفي الهند ، واستطاع أكدوغان في اليمن ، نقل الأحداث الجارية بين الملكيين والجمهوريين .

وأثناء فترة الاحتلال الأجنبي ، لسوريا والعراق والجزائر كان أكدوغان يعيش الأحداث كاملة .

لقد استطاع أكدوغان التقرب من رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزراء في تلك الجمهوريات والدول في منطقة الشرق الأوسط وأقام علاقات صداقة معهم بالاضافة إلى مهنته الصحفية .

وخلال أعوام الخمسينات، بدأ أكدوغان نشاطه داخل الحكومة التركية بصفته أحد الخبراء لمنطقة الشرق الأوسط وعمل في سبيل توطيد أواصر الصداقة بين تركيا والدول المجاورة .

فكان ، علاوة على ذلك ، يقوم بإجراء اتصالات مع الأطراف المعنية لتحقيق ذلك . وهكذا بدأت حملة الصداقة التركية ـ العربية تسيرفي مسارها الصحيح والحقيقي .

وفي عام ألف وتسعمائة وخمسة وستين رشحه «حزب العدالة» لشغل منصب نائب في مجلس الشعب ولم يتخلى رغم مسؤولياته الجديدة تلك عن مهمته كصحفي .

فكان لطفي أكدوغان يوجه زملاءه الصحفيين ، من خلال وجوده في البرلمان التركي . وأجرى أكدوغان تحولات وتعديلات كبيرة وهامة في مسار الدولة التركية نحو المستقبل الأفضل والمشرق .

وساعد لطفي أكدوغان دولته وبلاده على الانفتاح على العالم الاسلامي وكان اكدوغان صلة وصل وجسر تفاهم بين حكومته التي كان

يترأسها سليمان ديميريل رئيس الوزراء التركي ، حيث نقل رسائل شفهية ومكتوبة بين حكومته وبعض رؤساء الدول العربية المجاورة ، ولعب دوراً هاماً في توطيداً أواصر الصداقة بين دولته والدول العربية الأخرى .

وأقام لطفي اكدوغان علاقات صداقة وتعارف مع العديد من رؤساء وملوك الدول العربية من بينهم :

الزعيم المصري جمال عبد الناصر والرئيس المصري أنور السادات والملك فيصل الثاني والملك سعود ، وأمراء الكويت ، والبحرين وقطر والامارات ، ورئيس ليبيا القذافي وعلي عبد الله صالح في اليمن ، وكذلك في الصومال والجزائر وسوريا ، ولبنان والعراق والباكستان وغيرهم من رؤساء الدول العربية والاسلامية . لطفي أكدوغان ، منذ الخمسينات وحتى يومنا هذا عمل خلال ستة وثلاثين عاماً بالأحداث والمواقف المثيرة .

وكان يجمع في مكتبه أرشيف كل هذه الأحداث .

واليوم ، يملك أكدوغان أرشيفاً من الصور والمقالات والبيانات التاريخية عن الدول العربية ويعتبر أحد الصحفيين النادرين الذين بحوزتهم مثل هذا الأرشيف .

ويقدر أرشيف لطفي أكدوغان اليوم بخمسة ملايين دولار وأكثر .

ـ السابع من تموز عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين .

يانكي

الطريق إلى الملايين

العام : ألف وتسعمائة وخمسين .
المكان : استنبول .

لطفي أكدوغان ، محرر زاوية الأحداث في صحيفة الصباح الجديدة يأتي كل يوم من اكسراي إلى دار الصحيفة مشياً على الأقدام .

وحسب ما صرح به ، فإن طعامه اليومي كان بعد اثنين وثلاثين عاماً من الجهد والعمل، مؤلفاً من السميد والشاي وشوربة العدس .

كان أكدوغان ، الصحفي التركي الوحيد ، الذي غطى أحداث القناة في مصر . وحاز على اهتمام الزعيم المصري جمال عبد الناصر لكل أعماله وكتاباته.

العام : ألف وتسعمائة وثلاثة وستين
المكان : أنقرة

لطفي أكدوغان يضع جانباً مهنته الصحفية ، ويقوم بدور المراسل الدبلوماسي بين اينونو والرؤساء العرب في سلسلة من اللقاءات معهم على طريق الانفتاح بين بلدة وتلك الحكومات .

العام : ألف وتسعمائة وخمسة وستين
المكان : أنقرة

محرر زاوية الأحداث في صحيفة الصباح الجديدة وبعد خمسة عشر عاماً من العمل ينضم إلى حزب العدالة التركي ويعمل على تأسيس مجلس وطني كبير في البلاد .

العام : ألف وتسعمائة وسبعين وما بعده
المكان: لبنان
صحفي الخمسينات وسياسي الستينات ، لطفي أكدوغان يقوم بدور المفاوض بين رئيس الجمهورية المصرية ، عبد الناصر والملك سعود ملك العربية السعودية ، لاعادة الوفاق بينهما ونال ثقة الطرفين في سياق مهمته تلك .

العام : ألف وتسعمائة واثنين وثمانين
المكان : استنبول

لطفي أكدوغان ، يصبح رجل أعمال مليارديرٍ يعيش وسط خدمه وحشمه وسكرتيراته في قصر بناه صدر الزمان سعيد حليم باشا ، وكأنه أمير.
قالوا : « حتى لو أصبح المرء ديكاً تبقى عينه تفتش عن القش .»
فمازال أكدوغان يمارس هوايته ، فأينما توجه ، يمارس هوايته الصحفية ، فلا يبالي بهوية من يقع بين يديه ، أكان وزيراً أم رئيس وزراء فإنه يدور في

الطرق ويتجول ثم يعود ثانية إلى قصر الباب العالي .

ويفكر أكدوغان باستثمار بعض الملايين من ثروته لانشاء دار لجريدة يومية بجانب مقره اليومي في أجمل منطقة من الشواطىء التركية .

باب العالي - باب العادي شمسي بللي استنبول
عام ألف وتسعمائة وثمان وثمانون .

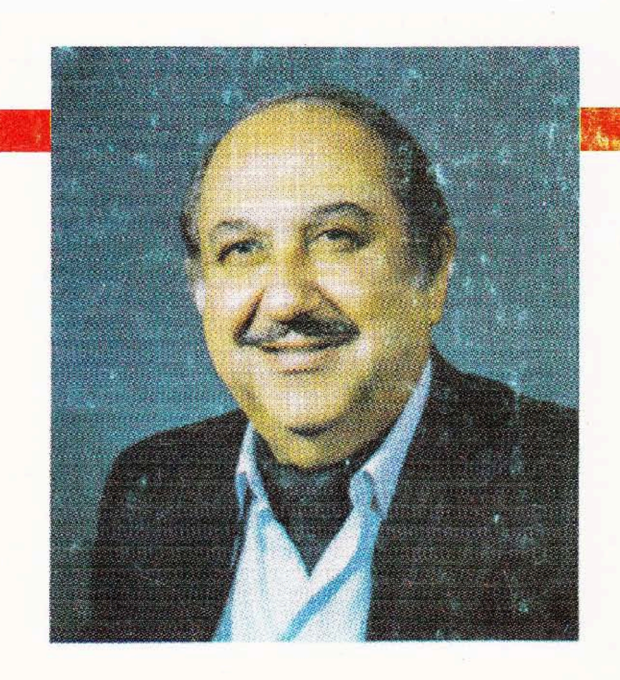
المحتوى

سارة المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية = Imparatorluyu yihan /
Kadin Sara لطفي أكدوغان . ترجمة دار طلاس، مراجعة وتقديم
محمد محفل دمشق : دار طلاس ، ١٩٩٥. ـ ٣٢٣ ص ، ٢٠سم .

١ ـ ٩٥٦,٠٨١ أ ك د س ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ أكدوغان ٥ ـ دار طلاس
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـ ١٩٩٥/٢/١٢٥ رقم الإصدار ٦٥٥

موافقة وزارة الإعلام
رقم : ٢٤٦٠٧
تاريخ : ١٩٩٤/١٢/٢



لطفي أكدوغان

لطفي أكدوغان ، «خبير الشرق الأوسط» والصحفي المشهور صاحب الأسلوب السهل الممتع ، ستتعرفون عليه عند قراءتكم للصفحات الأولى لكتابه .

ولد لطفي أكدوغان في انطاكية ، التي كانت تحتلها القوات الفرنسية عام ألف وتسعمائة وثلاثين وعاش خمسة وثلاثين عاماً من الإثارة في عمله الصحفي ومقالاته وكتبه .

وفي كتابه هذا ، يصف لنا أكدوغان كيف اندثرت أكبر امبراطوريات العالم ، الامبراطورية العثمانية وكيف عاش العرب بعد ذلك حالة الأسف والندم على ما فعلوه بها ، وما جناه عليهم فعلهم هذا .



